

60

كتابي

شارلوت برونتي



جين إيسر

الجزء الثالث

Looloo

www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

للطباعة والنشر

شارلوت برونتي جين إيسر الجزء الثالث

دار



جين إير

الجزء الثالث والأخير



Looloo

www.thelibrary.com

هكذا بدأت القصة

ملخص ما ورد في الجزئين الأول والثاني

■ كان أقصى ما تفتحت عليه عيناى - أنا (جين إير) - فى طفولتى ، هو أننى كنت وحيدة فى الحياة ، بلا أسرة ، ولا مال ، ولا جمال !.. فقد مات والدائى - الواحد بعد الآخر ، فى مدى شهر واحد - وأنا بعد طفلة لا أكاد أعى شيئاً ، فكفانى خالى مسر (ريد) ، الذى كان يعيش فى رخاء فى قصر (جيتسهد) . ولكنه لم يلبث أن توفى ، وتركنى فى رعاية أرملة مسر (ريد) .. على أن حياتى بعده لم تكن نعيماً ، فقد كان (جون) - ابن خالى - يود متعة فى إبدائى ، وكانت شقيقته (جورجيانا) و (إليزا) تتعاليان علىّ ، بينما حرصت أمهم - مسر ريد - على أن تعاقبنى بدورهم ، وأن تحصل على إذلالى . وحدث ذات مرة أن حبستنى ، فى غرفة مهجورة ، رهيبه ، استبدت فيها الغزع ، حتى أسلمنى إلى مرض قاس . ودفعتنى الحالة النفسية التى خلفها هذا الحادث ، إلى أن أروى لاصيدلى - الذى عادنى وعالجنى - كل ما كنت ألاقه من عنف مسر ريد وأولادها وخدمها ، فعرض الرجل الطيب أن يتصل بأقاربى لينقذونى من الحرمان والعذاب ، ولكنى لم أكن أعرف أحداً من أهل أبى .. أجل ، لم أكن أعرف عنهم سوى ما كانت تذكره مسر ريد من أنهم فقراء ، وضعيون .. ولم أكن من الشجاعة بحيث أشتري حريق بالفقر !.. ومن ثم اقترح الصيدلى على مسر ريد أن تلحقنى بـ مدرسة داخلية ، فراق لها أن تتخلص منى .

مسز فيرفاكس ، وتعلق تلميذتى بى ، وأبهة القصر وجمال المناظر المحيطة به .. كل هذه كانت تشغلتنى عن السيد الغائب !

ولم يكن فى القصر عدائاً سوى مربية فرنسية تدعى (صوفى) ، جاءت مع أديل من أوروبا ، وخدام لتنظيف الدار تدعى (لياه) ، وخدمتى يدعى (جون) وزوجته . وكان لهم صف من الحجرات الصغيرة - خلف القصر - لسكنائهم . وفيها عدا هذا ، كان يخيم على القصر طابع غريب ، يبدو فى أجلى صوره فى الطابق الثالث ، الذى كان مكتظاً بقطع من الأثاث عريقة فى القدم ، بل أثرية .. وأوحى إلى جوّه بالأشباح !

وفى كانت مسز فيرفاكس تطوف فى حجرات هذا الطابق ، سمعت ضحكة عجيبة .. ضحكة واضحة ، متكلفة ، كثيفة ... وإذا تكررت من وراء باب إحدى حجرات الطابق ، قالت مسز فيرفاكس : « لعلها ضحكة الخادم جريس بول ! » .. وقدرت أن أرى (جريس) هذه ، فيما بعد ، فإذا بها امرأة ربعة القوام ، بين الثلاثين والأربعين من عمرها ، حمراء الشعر ، جامدة الأسارير ، أقرب إلى أن تكون شيخاً خفيفاً ! .. واعتدت - بعد ذلك - أن أسمع هذه الضحكة الرهيبة تجلجل ثم تعقبها غعمقة شادة ، وأن أرى (جريس) - أحياناً - تغادر غرفتها إلى المطبخ ثم تعود حاملة وعاء مليئاً بالطعام . وكان مظهرها يخالف تصرفاتها الشادة ، فقد كانت قسيتها الحادة ثم عن رصانة ، وكثيراً ما حاولت استدراجها إلى الحديث ، فكانت تبدى زهداً فيه ، وتجنب باقتضاب يقطع على المرء أى أمل !

التياتى فى (لووود) .. وكان خير عزاء فى لى حياتى الجديدة ، أن مالت نظرة المدرسة - مس تبلى - إلى ، فغمرتنى بعطفها وتشجيعها .. وقضيت فى المدرسة ثمانى سنوات : ستاً كتلميذة ، وتالنتين كعالمية ، وأتقنت فى تلك الأثناء الرسم ، والعزف على (البيانو) .. كما أجليت اللغة الفرنسية . ثم استبدت فى الرغبة فى مباحرة (لووود) ، بعد أن تزوجت نصيرتى (مس تبلى) وغادرتها .. ولم ألبث أن عيئت معلبة لتلميذة دون العاشرة من العمر . فالتفت إلى قصر (ثورنفلد) بالقرب من مدينة (مبلوكوت) :

● ولم يكن فى القصر سوى سيادة مسنة تدعى مسز (فيرفاكس) - عرفت فيما بعد أنها المشرفة عليه وليست ربه - وفى رعايتها تلميذتى (أديل فارنس) التى كانت فى حوالى السابعة أو الثامنة من عمرها ، والتى كانت نحيلة ، شاحبة ، لطيفة ، ولدت فى فرنسا ، وكفلها مستر (رويستر) سيد القصر . ولم تكن الصغيرة تذكر عن أبيها شيئاً ، ولكنها كانت تذكر حنان أمها وعنايتها بأن تلقىها - منذ طفولتها - الشعر والإلقاء والرقص .. ولم ألقى بالآلى والذى تلميذتى ، فقد علمت أنهما ماتا .. أما سيد القصر ، فقد عرفت من أحاديث مسز فيرفاكس وأديل ، أنه كان سيداً محترماً ، يملك معظم أراضى المنطقة ، ويعتبره مستأجرو أراضيه عادلاً متحرراً . وكان كثير الأسفار ، على شئ من الشنود ، فلا يكاد المرء يدرك أسرور هو أم مساء ، بل لا يكاد المرء يفهمه ! .. ولكننى لم أحفل بهذا ، إذ كان السيد متغيباً ، وكان حنان

● وفي عصر أحد أيام شهر يناير - وكنت قد قضيت ثلاثة أشهر في القصر - خرجت أسعى على قدمي إلى قرية (هاى) التى كانت تبعد بحوالى الميلين عن القصر ، وإذا بي أفاجأ بى بقعة موحشة من طريق ضيق على سفح التل ، بفارس يصحبه كلب ضخيم .. واستبدتني الخوف ، وقد خلعت أن الفارس وجواده وكلبه من الأشباح . ولكن الجواد لم يلبث أن انزلق على الصخور المكسوة بالجليد ، فوقع الفارس والتوت قدمه . وخففت إلى مساعدته ، فقبل المساعدة فى جفاء وخشونة .. وكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، أحمر البشرة ، ذا قسبات جافة ، وحاجبين غريزين يلتقيان فوق عينيه ..

وعندما عدت إلى القصر فى المساء ، عرفت أن الفارس لم يكن سوى .. مستر روشستر - سيد القصر !

ودبت الحياة فى (ثورنفيلد هول) بمقدم السيد ، ولكننى لم أحتظ بلقائه ، حتى طلب ذات مساء أن أتناول وتلميذتى الشاي معه فى حجرة الاستقبال . وكانت مقابلاته بى جافة ، فائرة ، ولكنه ما لبث أن سألنى عن حياتى السابقة ، وعن قراءاتى وهواياتى فى شىء من الحفاه والسخرية . وإذا خلوت إلى مسر فيرفاكس فى تلك الليلة ، أبديت دهشة لتقلب طباع السيد وفظافته ، فإذا بها تلمس له العنبر بأن لديه أفكاراً مؤلمة تنكد عليه صفوه وتعذب روحه ! .. وعلمت أن حياته العائلية لم تكن هائلة ، فقد أوغر أخوه الأكبر صدر أبيهما عليه ، ومن ثم اتحد على أن يورطاه فى مركز أليم أغضبه منها ، فقاطع الأسرة ، ولم يعد يستقر فى حياته ، ومع أنه ورث المقاطعة منذ تسع سنوات - لوفاة أخيه - إلا أنه

لم يكف عن الأسفار ، ولم يكن يقيم فى (ثورنفيلد) أكثر من أسبوعين ، فى أية مرة .. وأدرت من الحديث أن فى الأمر سرّاً غامضاً ، ولكن مسر فيرفاكس لم تشأ أن تفصح عن شىء !

● وسألنى مستر روشستر مرة وقد فاجأنى وأنا أتأمل سمته : «أرئيتى جيملاً؟» .. وقبل أن أفطن إلى واجبات الجاملة واللباقة ، انزلق لسانى قائلاً : «لا يا سيدى !» .. وحاولت أن أعتذر ، ولكنه أصر على أن أنتقد عيوبه ، فلما تورعت قال : «إننى لا أطيق معايشرة الأطفال والنساء العجائز .. ولست محباً للبشر والإنسانية بصفة عامة ، ولكنى أحمل ضميراً يزين جنيتى .. كما كان لى فيما مضى قلب رقيق .. وكنت فى سنك شديد الحساسية .. أعطفت على كل من لم يستكمل النضج ، وكل من لا يجد عائلاً ، وكل من يخونه الخط .. بيد أن القدر عادانى منذ ذلك الوقت .. بل إنه طحننى بيديه ..»

وراح يحاورنى فى حديث لم يكن من اليسير على المرء أن يقطع بما إذا كان جاداً أو هازلاً ، صريحاً أو ماكرأ ! .. وتبدى لى الرجل عجيباً .. وكان يقرأ فى عيني ما يطوف برأسى .. وحديثى عن نفسه ، فكان مما قاله : «أقسم لك إننى لست شريراً ولا وغداً ، ولكننى - لظروف خاصة أحاطت بى - أصبحت مبتذل الأخلاق ، وآثماً مهيئاً تردى فى كل الملذات الرخيصة التى يحاول الأغنياء والتافهون أن يدخلوها على حياتهم .. وتطرق إلى فلسفة الخير والشر ، والتوبة بعد الخطيئة ..» .. وحديثى عن أدبيل ، فأدرت منه أنها ابنة ممثلة فرنسية كانت تدعى (إميلين) (فانسن) ،

قال عنها : « لقد فتنني وجعلتني أنفق عليها بغير حساب ، عندما كنت غرض الإهاب .. وما لبث أن روى لي قصته معها - في لقاء آخر : كان مفتوناً بالممثلة الفرنسية ، وقد أوهمته بأنها تحبه حباً عتيقاً - برغم دمايته - إلى أن اكتشف يوماً أنها تؤثر عليه (فيكونت) شاباً ، طائشاً ، فاسداً . وسجماهما يسمانه بأقذع السباب ، وأخذت (سيلين) تعدد عيوبه وعاهاته .. ففاجأها في خلوتها تلك ، وهجر الغاية ، كما يارز (الفيكونست) فترك في ذراعه رصاصة .. وظن أنه انتهى منهما - ولكن (سيلين) كانت قد جاءت به بالصغيرة (أديل) قبل ذلك بفترة أشهر ، فمالبت أن هجرت الطفلة - التي زعمت أنها ابنته - و « لم أكن أعترف بأى حق شرعى لأديل ، بيد أنني أنقذتها من ألوحال باريس ، لتزعرع هنا في تربة نظيفة » !.

* * *

■ وجاذبتني إليه صراحته وثقته اللتان جعلتاها يعاملني كما لو أنه كان قريبي ولبس خندوى .. وأدركت أن ما كان يبدو عليه من خشونة وخيبث واكتئاب ، إنما نشأ عن صدمات القدس القاسية !
وفي الأيلة التي روى لي فيها قصته مع (سيلين) ، استيقظت في جوف الليل على ضحكة شيطانية خبيثة ، وعلى أنين وخوار .. وتوقعت أن تكون (جريس بول) في إحدى نوباتها ، ولكنني لم أقو على البقاء بمفردي ، فخرجت إلى الردهة ، وإذا بي اكتشف حريقاً في مخدع مستر روشستر ! .. واستطعت أن أطفئ النار التي كانت مشتعلة حول الفراش ، وأن أوقظ السيد في اللحظة المناسبة : وهممت بأن أطلب النجدة ، ولكنه

استحقتي أن أكرم كل شيء .. وعندما هممت بأن أغادر مخدعه أمسك يدي وقال : « لقد أنقذت حياتي .. وما كنت لأحتمل أن أدبر لمخلوق يمثل هذا الدين الضخم ، ولكن الأمر يختلف معك .. كنت أعرف أن خبيراً سيصيبني على يدك ! » .

وأدهشتني أن أتين في اليوم التالي أنه زعم مسز فيرفاكس والخدم بأنه استغرق في النوم بينما كان يقرأ في فراشه ، فامتدت النار من الشمعة إلى الستائر .. ولكن الذي أذهلني حقاً ، هو أنني رأيت (جريس بول) في المخدع تحيط ستائر جديدة ، دون أن يبدو عليها أى انفعال أو شعور بالإنهم .. وعجبت من أن يتكتم السيد الجسور ، المنتقم ، المتعالي ، جرم خادم كهذه ، ويدع نفسه تحت رحمتها !.

وضاعف من عجبى أن السيد رحل في صباح الحادث ، دون أن أظن إلى رحيله .. وعلمت من مسز فيرفاكس أنه في زيارة قصر أسرة من قوى الجاه ، حيث كان مدعواً مع طائفة من عليه القوم .. وداخلني شعور غريب عندما حدثتني السيدة العجوز عن شغف سيدات المجتمع الرافئ بمستر روشستر برغم أن شكله لم يكن يرشحه لذلك .. واشتد أثر ذلك الشعور عندما سمعت منها أن السيد كان يبدى اهتماماً خاصاً بفتاة من أسرة رفيعة تدعى (مس انجرام) .. وكانت حسناء ، ذات جمال خللاب .. وشد ما جزعحت حين تبينت حقيقة ذلك الشعور الذي أبغظه في نفسي حديث مسز فيرفاكس ، فأدركت أنني .. أحببت خندوى !.

* * *

● واشتدت تبايرج الهوى ، عندما أقبل مستر روشستر - بعد أسبوعين

من غيابه — مصطحباً طائفة من سيدات وسادة الطبقة الراقية .. وكانت (مس انجرام) بينهم !.. وفي الوقت الذي كنت أعاني فيه من صلف هؤلاء السادة والسيدات .. وجدتي أكنوى بالغيرة اللاذعة ، لما كان يديه مخدوى من اهتمام بمس انجرام .. ومن تقرب إليها .. وحاولت أن أكسج جماع قلبي ، ولكنني لم أكن أملك أن أنصرف عن حب مخدوى .. حتى بعد أن أدركت أن لا بد له من أن يتزوج من الفتاة لاعتبارات عائلية واجتماعية !.. ولم أكن كذلك أملك أن أستكر هذا الزواج ، ولكنني أوجست منه شراً ، إذ تبذرت لي مس انجرام متعجرفة ، ضحلة المشاعر ، تافهة التفكير !.

وحدث أن حبط القصر ذات يوم رجل غريب ، ذكر أنه يدعى (ميسون) ، وأنه قدم من (جمايكا) ، وأنه كان صديقاً لمستر روشستر ، ولكن السيد كان متغيباً عن القصر ، فأصر الغريب على أن يمكث في انتظاره .. وفي تلك الأثناء ، أقبلت عجوز من العجور ، تعرض فنونها في قراءة الطالع والتنبؤ بالغيب ، ولكنها أصرت على أن تقصر تنبؤاتها على الشابات غير المتزوجات فقط ، وعلى أن تكون كل منهن على حدة ، تخلو إليها في غرفة المكتبة دون رقيب !.. وأقبلت الشابات في لفحة وفصول ، فدخلن للعجوز تباعاً ، حتى إذا فرغت منهن ، أقبل خدام يقول : « إن العجورية تقول إنه لا تزال بالحجرة شابة غير متروجة لم تذهب إليها ، وتقسّم ألا أنصرف حتى تراها ! .. ووجدتني مسوقة إلى أن أتسلل إلى غرفة المكتبة . وبادرتني العجوز بمسألة : « لماذا لا ترتعنين ؟ » فأجبت بأنني لا أشعر ببرد ، وعادت تسأل : « ولماذا لم يشحب وجهك ؟ »

فأجبت : « لأنني لست مريضة » ، واستعطرت نسائي : « ولماذا لا تستشيرين حرقتي ؟ » ، فقلت : « لأنني لست حمقاء !.. وإذا العجوز تضحك قائلة : « بل أنت بردانة لأنك وحيدة لا يشعل نيرانك الكأمة احتكاكك .. ومريضة لأن أسمي وأحلى ما يوهب من المشاعر للرجال ينأى عنك .. وحمقاء لأنك برغم مقاسمين لا تشيرين إليه (أي للرجل الرموق) ليقترب منك ، ولا تتقدمين خطوة نحوه لتلتقي به !.. ومضت تحلل نفسي تحليلاً معقولا ، حتى مست خفيفاً موضوع ما كان براودني من غيرة لما كان بين مستر روشستر وضيفته الفاتنة ، وتنبأت بأن السيد لن يلبث أن يتزوج من مس انجرام .. ثم راحت تكشف عن أدق ما كان يخالج نفسي من أحاسيس خفية .. وما أن انتهت حتى قالت : « ألا انهضي يامس لير .. لقد انتهت المسرحية ! » .

وشد ما كانت دهشتي حين تبينت أن العجورية العجوز ، لم تكن سوى ... مستر روشستر متكرراً ؟ وإذ قلت له إن الضيف الغريب — مستر ميسون — في انتظاره ، شحب وجهه وترنح قائلاً : « يا الشيطان ! .. لقد أصابني لطفة ياجين !.. لقد قدمت لي كنفك مرة من قبل ، فدعيني أتكى عليها اليوم » .. وما لبث أن سألتني أن أدعو إليه السيد ، ولكنه استوثق — قبل ذلك — من أنني على استعداد لأن أعاونه ، فقال : « ولو جاء هؤلاء الناس وبصقوا في وجهي ، فإذا تفعلين ؟ » .. فقلت : « أطردهم ! » .

— وإذا شهبوا بك لتسكك في ؟

— لا أعرف شيئاً عن هذا التشبه

الجراح ، الذى وجد أن لحم كسف ميسون كان ممزقا من أثر أسنان .. وقال الجريح : « لقد عشتى » انقضت على كمنورة ضارية ، عندما اقترع مناروشتر السكين ! » فقال مستر روشتر : « كان عليك أن تصارعها ولا تستسلم » : لقد أنذرتك ! : كان فى وسعك أن تنتظر إلى الغد لأكون معك .. كانت حماقة منك أن حاولت مقابلتها الليلة وحده ! » وشاهدته يرتجف فى اشمزاز ورعب وكراهية وهو يتكلم .. وما لبث أن أمرنى بأن أحضر من خزانته قيصاً ورباط رقبة لمستر ميسون ، ثم ذكر له أنه سهرسله مع الجراح بعيداً عن القصر قائلاً : « إن هذا لصالحك وصالح تلك المخلوقة الشقية . لقد ناضلت طويلاً لتعاشي التعريض والشهر ، ولا أريد أن يحدث شيء من هذا أخيراً ! » . وفى هنيهة ، رحل مستر ميسون مع الطبيب بينما كان الضيوف نائمين !



● وكان الصبح قد تنفس عندما ودعتهما مع مستر روشتر ، فلما تهيأت للعودة إلى داخل القصر ، دعانى إلى بستان ذى باب مغلق - فى جانب من القصر . وأخذنا نتمشى فى هدوء ، وسأله إن كان الخطر الذى توقعه عندما علم بوصول مستر ميسون قد انتهى ، فقال : « لا أستطيع الجزم بذلك .. حتى بعد أن يغادر ميسون إنجلترا ١٤ .. إن ميسون لن يتسنى عامداً بأذى ، ولكنه ربما تسبب عن غير قصد ، وبكلمة يتفوه بها ، فى جرماني إلى الأبد من السعادة ، إن لم يكن من حياتي ! » .

● وقضى مستر (ميسون) ليلته فى القصر : ولكننى استيقظت فى جوف الليل على صرخة مروعة ، حادة ، أعقبا ضجيج صراع كان يدور فى الغرفة التى كانت تعملو غرقى ، وصرخات تطلب النجدة وتنادى روشتر .. وقفز الضيوف من مضاجعهم مذعورين . ولكن سيد القصر لم يلبث أن ظهر فطمأنهم وزعم أن كابوساً انتاب خادماً عصبية ، سريعة الهياج .. وما أن اطمأننت إلى أن الجميع عادوا إلى مخادعهم ، حتى ارتدبت ثيابى ، وجلست أنظر وقد شعرت بأنى عندوى فى حاجة إلى معوتى .. وفعلاً أقبل بعد قليل ، فسألنى أن أحضر إسفننجاً وبعض (النوشادر) ، ثم قادنى إلى غرفة فى الطابق الثالث : « وسمعت ضحكة (جريس) تساب من غرفة داخلية : ينفذ المرء إليها خلال غرفة أخرى واسعة بها سرير كبير .. وفى هذه الحجرة رأيت مستر ميسون فاقد الوعي جريحاً . وتركنى السيد أعنى بإيقاف الدماء التى كانت تساب من جراح ضيقه ، بينما أسرع هو إلى استدعاء جراح ..

واشدتني الخوف وأنا وحيدة مع الجريح ، لايفصلنى عن المرأة التى كادت تفتك به - والى أوشكت أن تحرق روشتر من قبل - سوى باب واحد ! .. ورحت أسائل نفسى : أية جريمة هذه التى تعيش متجسدة فى القصر المنعزل ، دون أن يقوى صاحبه على إقصائها ؟ .. ولقد سمعت مستر روشتر يختار لضيفه غرفة فى الطابق الأسفل : فما الذى جاء به إلى هنا ؟ .. ولماذا تستر مستر روشتر على الحريق ، كما أخذ يستتر على هذا الحادث الأخير ؟ .. ثم ، لماذا وقع تباؤ وصول مستر ميسون عليه وقع الصاعقة ؟ .. وأخرجنى من خوفى وحيرتى مقدم السيد مصطحباً

وفيا كنا جالسين في البستان ، حدثني عن انغراسه منذ الصغر في حياة كلها زيف ومظاهر . وكيف أنه ارتكب في بلد أجنبي خطيئة تراكت نتائجها حتى أصبحت لا تطاق ، وحتى أغلقت أبواب الأمل في وجهه وهو بعد في مستقبل العمر ، فأخذ يهيم على وجهه بجأ عن الراحة . ومضى ينشد السعادة في اللهو الجماني الشهواني الذي يظلم العقل ويؤذي الشعور .. ثم عاد إلى الوطن بعد سنوات من النفي الاختياري مثقل القلب ، ليجد صديقاً جديداً لمس فيه الفضائل التي ظل يبحث عنها عشرين سنة ، فإذا قلبه ينتعش ، وإذا آماله تتجدد .. وكنت أنا ذلك الصديق على ما فهمت . ولكنه استطرد قائلاً : « إنه يرجو أن يبدأ حياة جديدة سعيدة مع ذلك الصديق الغريب ، ولكن : « هل يجوز أن يتخطى عقبة العرف والعادات .. تلك العقبة التي لا يقرها ضمير ولا عقل ؟ » .

وما لبثت أن فوجئت بدعوة من مسز (ريد) أرملة خالي التي سامني العذاب في صغري .. كان ابنها قد مات بعد أن بدد ثروته ومعظم ثروتها . وكانت هي تحتضر وتطلب أن أكون إلى جوارها . وسمح لي غلوم كارهاً بأن ألبى دعوتها ، فرحلت إلى (جيتسهد) . وهناك وجدت مسز (ريد) ما تزال تكن لي أشجع ألوان البغضاء ، ورغم أنها كانت على أبواب القبر .. وتبينت أنها كانت قد تنقّت خطاباً منذ سنوات ثلاث من قريب لوالدي يدعي (جون إير) ذكر فيه أنه هاجر إلى (ماديرا) حيث أصاب ثروة ، وأنه يمتنى أن يبتناي ليترك لي ثروته عند موته . ولكن الأرملة الحقود كتبت إليه زاعمة أنني مت !

● وانفضي شهر قبل أن أعود إلى (ثورنفيلد) بعد موت مسز (ريد) .. وكان مسز روشستر أول مخلوق رأته عند عودتي ، إذ كان يجلس وحيداً في طرف ناء من حدائق القصر ، فاستقبلني بابتهاج .. وزخر الشهران اللذان أعقبا عودتي بهدوء مريب « مشوب بالغموض . إلى أن خرجت أتتزه عند غروب شمس أحد أيام منتصف الصيف » وإذا مسز روشستر يلقاني في البستان ، فيحدثني في لهجة غامضة عن زواجه . ولما أبدت رغبة في مبارحة القصر وترك منضي قبل وصول عروسه ، اقترح أن يلحقني بخدمة أسرة صديقة له في (إرلندا) ... فقلت واجهة القلب : « ولكن إرلندا بعيدة يا سيدي .. والبحر يفصلها عن إنجلترا ، وعن ثورنفيلد » وعن .. « ، فساءل : « وعن ماذا ؟ » .. فقلت : « وعنك أنت يا سيدي ! » وطرقت الدموع من عيني دون إرادتي .. وعصفت الأحزان بكيفاني ، فلم ألبث أن هتفت : « ليتني لم أولد ولم تقع عيناى على ثورنفيلد ! » .

واهتاجني الحزن والحب ، فإذا مسز روشستر يحثيني بين ذراعيه ويضغط شفتيه على شفتي ، ويقول : « إن إرادتك سوف تقرر مصيرك ، وأنا أقدم لك قلبي ويدي وممتلكاتي .. هل تتزوجيني ؟ » .. وظننته في البداية يسخر مني أو يعبث بي ، ولكنه راح يؤكد لي أنه جاد ، وأنه ما فكر في الزواج من من انجرام راضياً ، لا سيما وقد استوثق من أنها لم تكن نجيحة ، وإنما كانت تحب ثروته ، فلما أوهها بأن هذه الثروة لا تساوي ثلث قيمتها الظاهرية ، انقلبت معاملتها له إلى فتور . واستطرد قائلاً : « أما أنت .. أنت أيضا اختلعي العزيمة العجيبة

التي لا تمت إلى الأرض بصلة ، فلأنني أحبك كما لو كنت من لحمي ..
أنت : أبنا الفقيرة الغمورة الضليلة البسيطة .. أنت هي التي أتوسل
إليها أن تقبلي زوجاً ! ..
وحدد أزواج مؤعداً بعد أربعة أسابيع ، فلم تكن الدنيا تقسع
لفرحني !

■ وانقضى الشهر كأنه حلم بهيج ، لم يكن يعكر هنأى خلاله ، سوى
شعور مبهم بأنه لم يكن من المعقول أن يخالفني القدر إلى الحد الذي يحقق
سعادتي .. ووفر في نفسي أن زوجي من مستر روشستر لن يتم !
وحدث أن نغيب مستر روشستر عن القصر يومين ، وكان مقدراً
أن يعود في الليلة السابقة على الزواج فجلست أنتظره ، ولكنه تأخر ..
وكانت الأمطار تهطل مدرارة ، والرياح ترسل عواء حزيناً ، رهيباً ..
وأويت أخيراً إلى مخدعي ، ولكنني غادرته في جوف الليل ، وانطلقت
إلى الخارج غير حافلة بالعاصفة ، لانتظر السيد الحبيب . وما أن رآني
حتى هتف في جزع مشفق يسألني عما بي .. ووجدتني أقضي إليه
بمخاوفي وهو جاسي . فلقد رأيت في المنام في الليلة السابقة أنني أسير
في طريق مجهول ، كثير التعاريج ، وامطر ينهمر مدراراً ، وعلى ذراعي
طفل صغير يولول بصوت حزين .. وكنت أحاول أن ألحق بمستر
روشستر ، ورحت أناديه وأصرخ إليه . ولكن قدني سميراً إلى الأرض
وصوت راج مع الريح ، والسيد معني في الابتعاد عني .. واستيقظت
من الحلم مذعورة ، ولكنني لم أثبت أن تحت ثانية ، فرائيت مناماً أكثر

رهبة .. رأيت قصر (ثورنفلد) أطلالا موحشة .. ورأيتني أتجسول
وسط الحشائش التي نبتت بداخله ، وأنا أحمل الطفل المجهول ، وإذا
بقدمي تتحثران .. وما لبثت أن سمعت وقع سنابك جواد ، فخيّل لي
أن مستر روشستر هو القادم ، وأمرعت أتساق جداراً ، وإذا بالأحجار
تنهار ، وإذا بالطفل يلف ذراعيه حول عنق حتى كاد يخنقني ..
وفقدت توازني فسقطت ، ثم صحت من نومي ، فبهر عيني نور شمع ،
ورأيت باب الخزانة - التي علقت فيها ثوب الزفاف وخمار العرس -
مفتوحاً .. وحضت ظالة أن (صوفي) - مربية أدبل - في الحجرة ،
وإذا بشخص يبرق من الخزانة ، ويرفع النور عالياً ، ويتأمل الثياب
المعلقة ، وهو صامت .. واستبدت في الحيرة والخوف ، ثم جسد
الدم في عروقي .. لم يكن الشخص (صوفي) ، ولا (لياها) ، ولا مسز
(فيرفاكس) ، ولا تلك المرأة الغريبة الأطوار .. (جريس بول) .
والآن تستطيع أن تقر ما تبقى من هذه القصة الرائعة :

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

● وقاطعني سيدى قائلا : « لابد أن الشخصى كان واحدة منهن » .
 — لا يا سيدى : أقسم لك إن الأمر كان على النقيض .. إن الشكل
 الذى كان ماثلا أمامي : لم تقع عليه عيناى فى أرجاء (ثورنفلد هول)
 من قبل .. كان ارتفاع القامة والتفافها غريبين عني .
 .. صفيه يا جين !

— يلوح لى ياسيدى أنها امرأة مدبدة ضخمة يتدلى شعرها الغزير
 الأسود على ظهرها ، ولا أدري ماذا كانت تلبس . فقد كانت ترتدى
 شيئا أبيض مستقيما لم أثبت ما إذا كان عباءة أو ملاءة أو كفتا !
 .. هل شاهدت وجهها ؟

— لم أره فى البداية . ولكنها سرعان ما أخذت تمار الزفاف من
 مكانه فرفعته وراحت تتأمله طويلا ، ثم ألقت به على رأسها واستدارت
 إلى المرأة . وفي تلك اللحظة شاهدت وجهها وأساريرها منعكسة بوضوح
 تام على صفحة المرأة المعتمة .
 — وماذا كان شكلها ؟

— نحيفة . مروعة .. أواه يا سيدى . ما رأيت قط مثل هذا
 الوجه ! .. وجد عديم اللون . وحشى . بودى نو أسى كيف كانت
 مقلناه المحمرتان يتولان فى محجريهما اللذين توسطتا وجهاً منتفخاً ،
 مسوداً رهيباً !

— إن الأشباح شاحبة فى العادة يا جين !
 — لقد كان هذا الشبح قزمياً يا سيدى . وكانت الشفتان
 متورمتين داكنتين ، والجبين مغضناً . والحاجبان الأسودان مرتفعين

متباعدين فوق العينين اللتين كانتا بنون الدم .. أفأقول لك بماذا ذكرنى
 هذا الشبح ؟

— قولى !

— بالشبح الألمانى الخفيف .. الغول شارب الدماء .

— آه .. وماذا فعلت تلك المرأة ؟

— رفعت فخارى عن رأسها المزليل يا سيدى : ثم مزقته شطرين
 ألقت بهما على الأرض وداستهما بقدميهما .
 .. وبعد ذلك ؟

— جذبت إحدى سائر النافذة وأطلت إلى الخارج . ولعلهما
 شاهدت تباشير الفجر : لأنها تناولت الشمعة وسارت إلى الباب . فلما
 بلغت فراشى . وقفت وراحت تحديقاً فى بعينيهما المتفتحتين . ثم دفعت
 بالشمعة قريباً من وجهي . وأطفأتها تحت عيني . وأحسست بوجهها
 يلفح وجهي ، فأغمي على للمرة الثانية .. أجل . للمرة الثانية فى حياتي
 فقدت رشدى لشرط الرعب !

— من كان معك عندما أفتت من إنمائك ؟

— لا أحد يا سيدى غير ضوء النيران .. فنهضت من فراشى
 وغسلت وجهي ورأسي . وشربت بعض الماء . وكنت أحسن ضعفاً ،
 ولكني لم أكن مريضة . وعولت على ألا أيوخ بهذه الرؤيا لأحد سواك
 يا سيدى . والآن أخبرنى يا سيدى ماذا ومن تكون تلك المرأة ؟!

— إنها من ابتداع رأس زانجر .. أكثر مما يوحى .. بالتخيلات ..

ولا بد لي من أن أعني بك يا كثرى الغالى ، لأن أعصاباً كتعصابتك لم تخلق للمتعاب .

— ثقب يا سيدى أن أعصابى لم تكن مرهقة . وأن الرؤيا صحيحة ، وأن الحادث وقع فعلاً .

— وأحلامك السابقة . هل كانت حقيقية هي الأخرى ؟ .. هل ترين (ثور نفيلد) أطلالاً ؟ وهل صحيح أنني افترقت عنك وحملت بينى وبينك عقبات لا يمكن تذليلها ؟ هل فارقتك بدون دعة .. بدون قبلة .. بدون كلمة ؟

... كلا ، لم يحدث شيء من هذا بعد .

— وهل أنا على وشك القيام بذلك ؟ لقد بدأ فعلاً اليوم الذى سوف ترتبط فيه برباط لا تنقسم عراه ، وإذا امتزجنا واتحدنا فلن تعاودك هذه الأحوال الدهنية .. إننى أضمن لك ذلك !

— أهوال ذهنية يا سيدى ؟ .. ليتنا كما تقول ! ليتنا كانت كذلك ما دمت تعجز عن تفسير هذه الرؤيا المزعومة .

— وما دمت عاجزاً عن تفسيرها يا جين . فلا بد أنها غير حقيقية . ولكننى يا سيدى عندما قلت لنفسى هذا القول ثم غادرت فراشى فى هذا الصباح . نظرت حولى فى الغرفة لأجمع شتات نفسى ، فإذا عيناي تقعان على الخمار ملقى على الأرض وقد انشق من أوله إلى آخره !

■ وشعرت بمسحروشستر يفزع ويرتعد ، ثم باهر ينفوقنى بفرأعه

ويصبح : أحداً أنه إذا اقتصر الشر فى الالبنة الماضية على تحزيق خمارك ! .. إن يدى لترتعش كلما تصورت ما كان يمكن أن يصيبك « .. ثم تهد : وجذبى إليه بشدة كدت معها لا أقوى على الالهث . وبعد أن أدخلت إلى الصمت لحظات قال فى ابتهاج : سأشرح لك الآن يا جين كل شيء .. لقد كان الأمر نصف حلم . ونصف حقيقة . فليست أشك فى أن امرأة دخلت حجرتك . ولا بد أن تكون هذه المرأة جريس بول فقد وصفتها أنت بأنها مخلوقة عجيبة . ولك الحق فى هذا الوصف بعد الذى علمته عنها .. أفندكرين ما فعلته فى ؟ .. وما فعلته بمسحروشستر ؟ .. ولا بد أنك كنت بين النوم واليقظة حين لاحظت دخولها وأفعالها . ولكنك فى حافتك المحمومة . بل فى هذيانك . تصورتها فى صورة خيالية لا تتفق والواقع .. وما الشعر الطويل المشعث ، والوجه المنفوخ الأسود . والقوام المبالغ فيه . سوى أوهام الخيال وتلفيفاته الناشئة عن كابوس .. أما تحزيق الخمار فحدث حقيقى من المعقول أن تقدم عليه . ولعلك تسألينى لماذا أوى مثل هذه المرأة فى منزلى ؟ وسأأتولى الرد على ذلك بعد أن يتضح على زواجنا عام ويوم . وليس الآن .. أفأنت راضية الآن يا جين ؟ هل قبلت شرحى للأمر ؟

وفكرت فرأيت أن هذا كان التفسير الوحيد المحتمل . ومع أننى لم أقنع به تماماً . إلا أننى تظاهرت بذلك لأبعث السرور فى نفسه . ومن ثم أجبت بإقتسام راضية . وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بكثير . فتأهببت لمغادرته .. وعندما أشرت إليّ بالخرج . سألتى : هل تنام صوى مع أديل فى غرفة الأطفال ؟

أرقب أديل ، وهي بين ذراعي ، وأتأمل نوم الطفولة الحادئ الهري ،
وأنا أرقب مطلع النهار ، وقد استيقظت كل حيائي وراحت تدب في
كبيائي .. حتى إذا نهضت الشمس ، نهضت بدوري . وأذكر أن أديل
كانت متعلقة بي عندما غادرتها . كما أذكر أنني قبلتها عندما رفعت
يديها الصغيرتين عن عتي ، فجعلت أبيكي - وأنا أحنو عليها - بانفعال
عجيب ، ثم غادرتها خشية أن تقص شفتاي مضجعيها ونومها العميق ..
فلقد تبدت لي رمزاً لحياتي المسابية . أما هذا الذي كان علي أن أنمياً
إذ ذاك لثقله . فقد تراءى لي أنه الرمز الذي أرهبه وأعبده ليومئذ المقبل
المجهول !

* * *

الفصل السادس والعشرون

■ قدمت صوفي في الساعة السابعة لتساعدني على ارتداء ملابسني .
والواقع أنها تباطأت كثيراً في تأدية مهمتها ، حتى عيل صبر مستر
روشستر لتأخرى ، فيا أعتقد ، فأرسل يسأل عن السبب في عسدم
مجيئي . وكانت صوفي إذ ذاك تثبت خماري الأبيض المربع البسيط الذي
كنت أريده في البداية ، إلى شعري بدبوس . فبادرت أغادرها بأسرع
ما استطعت ، ومن ثم صاحبت بالفرنسية : « قني ! انظري إلى نفسك
في المرآة فلنك لم تختلي نظرة واحدة إلى صورتك ! » .. فعدت ثانية
إلى الحجرة لأرى في المرآة جسماً يرتدي ثوباً وخماراً ، ولا يشبهني
إطلاقاً بحيث خيل لي أنني أرى صورة فتاة غريبة عني ! .. وسمعت

- إن في فراش أديل على صغره متسعاً لك ، فعليك أن تشاطريها
إياه الليلة يا جين ، فليس من العجيب أن يؤثر الحادث الذي رويته علي
أعصابك ، وأؤثر لذلك ألا تنامي وحيدة . عديني أن تأوي إلى حجرة
الطفلة !

- سأفعل هذا بكل سرور يا سيدى .

- ثم أغلقت الباب جيداً من الداخل بعد أن توقظي (صوفي) عند
صعودك متلهة برغبتك في أن توصيها بإيقاظك في ساعة مبكرة من
صباح الغد ، لأن عليك أن ترتدي ثيابك وتفرغي من فتورك قبيل
البانحة .. والأآن . اطمرحي عنك الأفكار المظلمة . بل طاردي الموم
القائمة يا جين . ألا تسمعين كيف انقلبت الريح إلى صفات ناعمة .
وكف المطر عن طرق زجاج النوافذ .. انظري (ورفع الستارة عالياً
وقال) : إن الليل جميل !

وحقاً كان الليل جميلاً وقد صفا نصف السماء . وأخذت السحب
تنجاس أمام الرياح التي كانت تسوقها بعيداً نحو الشرق . وأخذ القمر
يرسل ضياءه في هدوء . ونظر مستر روشستر في عيني منسائلاً ثم قال :
« كيف حال حبيبتي جين الآن ؟ »

- إن الليل هادئ رائق .. وكذلك أنا .

- سوف لا تخلمين الليلة بالفراق والأحزان وإنما ستكون
أحلامك عن الحب السعيد والرباط المبارك .

ولكن هذه النبوءة لم تتحقق كلياً .. لم أحلم في الحقيقة بالأحزان ،
ولكني لم أر أحلاماً سارة كذلك ، إذ لم يغمض لي جفن - بل رحت

صوتاً ینادی : « یا جین ! » - فہرعت إلى حيث استقبلنی مستر
روشستر عند السلم قائلاً : « آیتھا المثلکنة !... لقد اتبعت رأسی بفقاد
العصر ، وأنت تتأخرین حتی الآن ! » .

وذهب فی إلى حجرة المائدة ، حيث جعل يتأملنی من مفرق إلى
أخص قدس . وما لبث أن وصفنی قائلاً : « بنتی كنت ، جميلة كالزنبقة »
والتي لم أكن كل ما تزدهی به حیاته فحسب . وإنما كنت ، غایة
ما تشبهی عوباء ! » . وإذ قال إنه یمنهني عشر دقائق لأتناول فطوری ،
دق الجرس ، فبابه أحد الخدم الذين استأجرهم أخيراً . وإذ ذاك سألہ :
« هل أعد جون العربیة ؟ »

- نعم یا سیدی .

- وهل أنزلتم الخفاف ؟

- إنهم یفعلون ذلك الآن یا سیدی .

- اذهب إلى الكنيسة وتأكد من وجود مستر وود (الكاهن) مع
الکاتب هناك ثم عد وأخبرنی .

وكانت الكنيسة - كما یعلم القارئ - تقع وراء الأبواب الخارجية
للقصر مباشرة . لذلك عاد الخادم بسرعة یقول : « إن مستر وود فی
قاعة الثياب یرتدی الزی الكهنوتی یا سیدی . »

- والعربیة ؟

- إنهم یاجمون جباها .

- لسنأ زریدها لالذهب إلى الكنيسة ، وإنما یجب أن نكون

مستعدة عند عودتنا ، وأن تكون كل الصنادیق والخفاف معدة ومخزومة
وأن یكون السائق فی متعدد .

- حسناً یا سیدی .

ثم سألتی مستر روشستر : « أمأهبة أنت یا جین ؟ » . فنهضت
واقفة . ولم تكن ننظر أحداً من أصدقاء (العریس) أو صديقات
العروس أو الأهل والأقارب : بل كنت وحیدی مع مستر روشستر .
وكانت مسر فیرفاكس تقف فی البهو عندما اجتمعنا . ففهمت بأن
أخطأها لولا أن یدعی كانت فی قبضة من حديد . كما كانت خطوات
مستر روشستر الواسعة تستحقنی حتی كاد یتمرد علی أن أسأرها .
وكان فی وسعك أن تترك لأول وهلة أنه لن یتسامح فی لحظة واحدة
تأخرها . مهما كانت الأسباب !... فما أحسب أن (عریساً) بدأ مثله
فی عزمه البالغ وحرصه علی بلوغ غایته . مما تم عنه جدیدته الذي انعقد
فی إصرار علی عینین متوجهتین مستعزین !

ولم أدر ما إذا كان الطقس جیلاً أو سیئاً فی ذلك الیوم ، لأننی
سرت فی طریق لا ألفت إلى سماء أو إلى أرض ، وقد علق قلبی - مع
عینی - بمستر روشستر ، أملاً فی أن أرى الشیء الخفی الذي كان
یسدد إلیه نظراته - طوال الطريق - فی قسوة واحدة ، وفی أن أتبین
الخواطر التي لآح أنه كان یصارعها وكانت تصارعه بقوة .. وما لبث
أن توقف عند مدخل صحن الكنيسة ، وإذ ذاك فقط ، أدرك أنني
متهدجة الانقباس ، فقال : « أتربنی قاسماً فی حی ؟ » . تمیل لحظة ،
واتكئی علی « یا جین ! » .

■ وما يزال في وسعي أن أتذكر صورة بيت الله الأبيض القديم - الذي قام أمامي في هدوء ودعة ، ومنظر غراب أحم يلدور حول برج الكنيسة . ثم منظر السماء المتوردة اللون في ذلك الصباح - كما أنني أذكر شيئاً عن الآكام الخضراء المتناثرة حول القبور . ولم أنس بعد أنني رأيت رجلين غربيين . كانا يهان بين الروابي الخفيفة . ويقرأن ما سطر على شواهد القبور الغليظة التي كانت الطحالب تكسوها . وقد استلقتا انتباهي لأنهما اتجهما إلى مؤخر الكنيسة بمجرد أن وقعت أعينهما عليهما . فلم أشك لحظة في أنهما سيدخلان من الباب الخلفي لمشاهدة الحفلة : أما مستر روشستر فلم يلحظهما لأنه كان مشغولاً بالنظر إلى وجهي الذي هربت منه الدماء . وشعرت بعرق بارد يتصبب على جبينتي . وأحسست ببرودة تمرى في وجنتي وشفتي . حتى إذا بادرت إلى استجماع قواي سار معي في رفق ونحن نرق الطريق إلى مدخل الكنيسة .

ودخلنا الهيكل الهادئ المتواضع . فرأيت الكاهن ينتظرنا في ثوبه الكهنوتي الأبيض عند المذبح - الذي كان متواضعاً كذلك - والكتاب بجانبه . وكان الهدوء شاملاً وليس ثمة أحد سوى شبحين كانا يتحركان في ركن بعيد . وحسبك حاسي . إذ أنهما لم يكونا سوى الرجلين الغربيين . وقد تسللا إلى داخل الكنيسة قبلنا . وما لبثنا أن وقفا أمام القبو الخاص بموتى آل روشستر - وأوليانا ظهر بهما ليتطلعا - خلال القضبان الحديدية - إلى المقبرة الرخامية العتيقة ، حيث ركع تمثال أحد الملائكة في حراسة رفات دامر روشستر - الذي ذبح في (مارستون مور) أثناء الحروب الأهلية - ورفات زوجته إليزابث .

واتخذنا مكاننا عند قضبان الهيكل المقدس . وإذا سمعت خطواً مخادراً خلفي - نظرت من فوق كفتي فرأيت أحد الغربيين - وهو من الطبقة الراقية بلا مرء - يتقدم في الكنيسة نحونا . ثم بدأت المراسم ، فتلا الكاهن مقاصد الحياة الزوجية ، ثم تقدم خطوة إلى الأمام ، وانحنى قليلاً أمام مستر روشستر واستطرد يقول : « إنني أسألك ، بل أحم عليك أن تعترفا - كما ستعرفان يوم الدينونة الرهب حزين تتكشف أسرار القلوب جميعاً - بما إذا كان ثمة ما يحول دون ارتباط أحدكما بالآخر شرعاً بالزواج . إذ خلقي بكما أن تثقا من أن الكثيرين الذين يرتبطون بغير كلمة الله - لا يجمع الله بينهم ، ولا تفر الشرائع زواجهم ! »

وسكت طيقاً للعادة .. ولكن . متى بدد السكون الذي يعقب هذه العبارة عادة أي جواب ؟ .. إنه أمر لا يحدث ولو مرة في كل مائة عام ! .. ولم يرفع الكاهن عينيه عن كتابه ، بل أمسك أنفاسه لحظة ، ثم بسط يده نحو مستر روشستر . وهم بأن يسأله : « هل تقبل هذه المرأة زوجة لك ؟ » . ولكن صوتاً واضحاً انبعث عن قرب قائلاً : « لا يمكن أن يتم هذا الزواج . وأجابه بأن هناك عقبة » .

فرفع الكاهن عينيه إلى المتكلم ووقف صامتاً كالآخرس . وكذلك فعل الكاتب . بينما تحرك مستر روشستر قليلاً كأن زلزالاً هز الأرض تحت قدميه . ثم ثبت قدميه في مكانيهما تحفزاً . وقال دون أن يلتفت برأسه أو عينيه : « استمر ! » .. وما أن فطقت هذه الكلمة - في صوت خفيض ولكنه عميق - حتى ساد المكان صمتاً عظيماً .

(وود) أن قال : « ليس بوسعى أن أستمع قبل بعض التحريز عن صحة ما قيل - وحتى يقوم الدليل على صدقه أو زيفه » . وهنا عاد الصوت من خلفنا يقول : « لقد فسخت حفلة الزواج تماماً ولدى البرهان على دعواي .. إن هناك عقبة لا يمكن تذليلها تحول دون هذا الزواج » .

وسمع مستر روشستر ذلك ، ولكنه لم يكثر . بل ظل صامداً لا يفتنى ، ولم يبد حراكاً اللهم إلا ليتشبث بيدي . وما كان أشد قبضه وأدفاها ! .. وكما كان وجهه الشاحب الحارم النضج يشبه الرخام في تلك اللحظة .. وشده ما كانت عيناه تأتلفان في يقظة خبي تحبها ضراوة !

● ولدت الخيرة على مستر وود فقال : « وما ماهية هذه العقبة ؟ »
ربما أمكن تذليلها إذا وضعت لنا ! .. فكان الرد : « يصعب ذلك فقد وصفتها بأنها لا تذلل وقد تكلمت ناصحاً ! »
ثم تقدم المتكلم ومال على القضبان ، واستلرد في وضوح وهذوء وثبات دون أن يرفع صوته : « إنها بكل بساطة تعني وجود زواج سابق . إن لمستر روشستر زوجة على قيد الحياة ! »

واهتزت أعصابي عند سماع هذه الكلمات الخفيفة كما لم تهتز من قبل لقصف الرعد : وفعلت نبراتي بدى ما لم يفعله صفيح ولا نار من قبل ! .. بيد أنني لم أفقد روعى ولم أخش إغواء . وإنما تطلعت إلى مستر روشستر وحملته على أن ينظر إلى بوجه يشبه النضج الشاحب . وبعينين تقادحان شراً ، ولم ينكر شيئاً ، وإن بدا عليه الإصرار على

أن يتحدى كل شيء ! .. ويدون أن ينطق بحرف أو يتسم ، ويدون أن يبينو عليه أنه كان يراق مخلوقة آدمية . طوقني بذراعه ، وسمرني إلى جانبه . ثم سأل النخيل المتطفل : « من أنت ؟ »

— اسمي بريجز . حمام بشارع ... في لندن .

.. وهل تريد أن تلصق بي زوجة ؟

.. أريد أن أذكر لك ياسيدي بوجود زوجتك التي يعترف بها

القانون إذا كنت أنت لا تعترف بها .

— تكرم بيان عنها .. عن اسمها ووالديها ومكان إقامتها .

فقال الخناس : « بالتأكيد ! .. ثم أخرج مستر بريجز في هسوء

ورقة من جيبه . وراح يقرأ ما فيها بصوت رمعي أغن : « تؤكد . وفي

وسعي أن أقیم البرهان على أنه في يوم ٢٠ أكتوبر سنة .. بعد الميلاد

(منذ خمسة عشر عاماً) تزوج إدوارد فيرفاكس روشستر صاحب

قصر ثورفيلد هول بـ « فلفلم » .. وصاحب ضيعة (فرلدين) بمقاطعة :

« بلنجلترا » من أختي برتا أنطوانا ميسون . ابنة جوناس ميسون التاجر

وأنطوانا ميسون زوجته . الخالسية المولدة ، بكنيسته .. في سبانش

ناون بجاميكا . ويمكن الحصول من سجلات تلك الكنيسة على وثيقة

الزواج . وفي حوزتي الآن نسخة منها — التوقيع : ريتشارد ميسون »

— إن هذه الوثيقة — إذا صححت — قد تثبت أنني تزوجت ولكنها

لا تثبت أن المرأة المذكورة هنا على أنها زوجتي ما زالت على قيد الحياة !

فأجابه الخناس : « لقد كانت على قيد الحياة منذ ثلاثة أشهر »

— كيف علمت ؟

— لدى شاهد على هذه الحقيقة لا يستطيع أحد . حتى أنت ،
دحض شهادته .

— قدمه أو اذهب إلى الجحيم !

— سأقدمه على الفور . ليتفضل مستر ميسون بالتقدم .

فلما سمع مستر روشستر ذلك الاسم ، صرغ على أسنانه وبدت
عليه رعدة تشنجية . وكنت يخواره ، فشعرت برعدة الحلق واليأس
تجري في أوصاله . وكان الرجل الغريب الثاني — الذي تلکاً بعيداً — قد
اقترب وأهل من وراء كتف الخمار بوجهه الشاحب ، فإذا به ميسون
نفسه ! .. واستدار مستر روشستر يخلق فيه بنظرة حائرة — كالتفكرات
التي سبق أن حدثتک عنها — ولكنها كانت في هذه المرة عفراء . أي
تخلط ظلمتها ببريق دهوى بينا احترق وجهه وتألقت وجنتاه انمراوان
وجبينه الشاحب بالنيران المتأججة في صدره وقلبه .. ثم تحرك ورفع
ذراعه القوية . وكان من الممكن أن يلطم ميسون ويصرعه على أرض
الكنيسة ، بعد أن أذهلته الضربة التي نزلت على رأسه . ولكن ميسون
أجفل مبتعداً ، ثم صاح في صوت واهن : يا إلهي ! .. وأحس مستر
روشستر نحوه باحتقار هدام من انفعاله ، فإذا حنقه نجو .. واكتفى بأن
سأله : « ما الذي لديك ؟ » .. فانبعث عن شفتي ميسون جواب
لا تسبينه الأذن .

— حقاً لك إذا لم تتكلم بوضوح .. إنني أسألك مرة أخرى : ماذا
تريد أن تقول ؟

فقاطعه الكاهن : « يا سيدى . ياسيدى . لا تنس أنك في مكان
مقدس ! » .. ثم توجه إلى ميسون يسأله في وفق :

— هل تعلم علم اليقين أن زوجة هذا السيد على قيد الحياة أم لا ؟

وحثه الخمار قائلاً : « تشجع .. تكلم ! » ..

فقال ميسون بصوت أكثر وضوحاً :

— إنها الآن بقصر ثورنيلد هول . فقد شاهدتها هناك في أبريل

الماضى ، وأنا شقيقها !

فصاح الكاهن : « في ثورنيلد هول ؟ .. مستحيل ! إنني أقیم
في هذه المنطقة منذ زمن قديم ياسيدى ، ولم أسمع قط بوجود زوجة
لمستر روشستر في ثورنيلد هول » .

● وشاهدت ابنة سامة متجهمة تلوى شفتي مستر روشستر . ثم نعمت
قائلاً : « كلا والله ! .. لقد احتطت كنى لا يسمع أحد بها تحت هذا
الاسم . ولا يقصنها ! » .. ثم أطرق حوالى عشر دقائق ناقش فيها نفسه .
وما لبث أن اعترز شيئاً أعلنه قائلاً :

— كنى ! سوف ينطلق منى كل شيء أشبه برصاصة مدوية .

اطو كتابك يا وود واخلع عنك ثوبك الكهنوتي !

ثم التفت إلى الكاتب وقال : « وأنت يا جون جرين . غادر الكنيسة
فمن يتم اليوم زفاف ! »

فأطاعه الرجل . واستطرد مستر روشستر في جراءة واندفاع :

— إن تعدد الزوجات كلمة بشعة ! .. ومع ذلك فقد قسدت أن

ولكنني لن أزيدكم شرحاً بل أدعوك ياريميز - وأنت ياوود ، وأنت ياميسون - إلى القصر كي تشهدوا زوجتي المريضة التي عاهدت بها إلى مسز بول لترعاها . سترون أية مخلوقة خدعت فيها وتزوجتها ، ثم احكموا بما إذا كان من حقى - أو لم يكن - أن أقصم الرابطة بيني وبينها وأبحث عن الحنان والمشاركة الوجدانية مع إنسانة من البشر .

ثم نظر إلى واسترسل يقول : « إن هذه الفتاة لا تعرف ، ياوود ، هذا السر البغيض أكثر مما تعرف أنت . بل إنها كانت تعتقد أن كل شيء عادل شرعى ، ولم يدرك بظاهرها قط أنها سوف تتردى في حبال زواج زائف . من رجل شرير غدار مرتبط بشريكة شقية مجنونة متوحشة ! .. تعالوا جميعاً .. اتبعونى ! » .

ثم غادر الكنيسة وهو مازال يشد قبضته على يدي « والسادة الثلاثة يتبعونه . وعند مدخل باب البهو ، وجدنا العربية ، فقال ليوذى بيروود وفاتور : « عد بها ياجون إلى الحظيرة إذ لا حاجة لنا بها اليوم ! » .. وإذ ولجنا القصر . تقدمت مسز فيرفاكس وصوفى ولياه لائقاً وتحييناً . ولكن السيد صاح فيهن : « ابتعدوا جميعاً .. بحقاً لتهائنكم ! من الذى يحتاج إليها ؟ .. لست أنا ، إذ أنها قد تأخرت خمسة عشر عاماً ! » .

● وواصل السير مرتقياً الدرج وهو مازال يمسك بيدي ويشير إلى السادة أن يتبعوه ، حتى إذا بلغنا الطابق الأول واجتازنا الردهة ثم تقدمنا وواصلنا الصعود إلى الطابق الثالث ، ففتح لنا ماستر روشستر الباب الأسود الخفيض بمفتاحه الخاص ، وأدخلنا

أكون زوجاً لثنتين ، ولكن القدر خيب رجائى ، أو هى العناية الإلهية التى عاقبتنى عن ذلك . ولست الآن خيراً من شيطان رجيم . بل لئن أستحق بلاشك - كما يريد الكاهن أن يقول - أقسى عقاب يفرضه الله - حتى النار التى لتأخو والديدان التى لا تشبع .. لقد فشلت خطئى بإسادة - فإن مقالته هذا الحامى وعمله صعب . إذ تزوجت ، وما زالت المرأة التى تزوجتها على قيد الحياة ! ! . لقد قلت يا (وود) إنك لم تسمع قط بوجود زوجة لى فى ذلك القصر ، ولكنى أعتقد أنك ظالماً ملت بأذنتك لتلتقط أخبار المهنونة الخفية التى وضعها هنالك تحت الحراسة والرقابة . وقد أسر إليك بعضهم بأنها أخت غير شقيقة لى ، وأسر الآخرون بأنها خلية منبوذة ، ولكنى أخبرك الآن بأنها زوجتى التى اقترنت بها منذ خمسة عشر عاماً ، واسمها (برتا ميسون) ، وهى شقيقة هذا الرجل الثابت العزم (!) الذى يريك الآن بأطرافه المرتدة ووجنتيه الشاحيتين أى جنان جرىء يمكن أن يحمل الرجل بين جنوبهم ! ! .. طيب نفساً يا إدوارد ، ولا تحشنى قط فإننى أؤثر أن أنسرب امرأة على أن أضربك ! إن (برتا ميسون) مجنونة ، ومن سلاله أسرة مجنونة : كلهم بلهاء وملتائون طوال أجيال ثلاثة ، فقد كانت أمها الخلاسية مجنونة وسكيره . وقد اكتشفت ذلك بعد أن تزوجت الابنة لأنهم كانوا يتكلمون أسرار العائلة ! .. وسرعان ماقلدت برتا أمها - كأية ابنة باردة - فى كلا الأمرين .. واستطرد فى صغرية مريرة : « وعلدت لى شريكة ساحرة ، نفية ، عاقلة ، حية ! ! . إن فى وسعكم أن تصوروا كيف كنت رجلاً سعيداً أنعم بمشاهدة رائعة ! .. كانت تجربة من السماء والنعم . لو تعلمون ! » .

سرير كبير وصوان بديع ، ثم قال : « إنك تعرف هذه الحجرة ياميدون ، فقد عضتك وطعنتك هنا ! » .. ثم رفع الستار عن الجدار ليكشف عن الباب الثاني .. المفصلي للحجرة الداخلية - وفتحها بدويرة عن حجرة خالية من النوافذ ، بها موقد مشعل يحيط به سياج عال قوى ، ومصباح يتدلى من السقف بسلسلة . وكانت جريس بول منحنية على النار وهي تلهو شيئاً في مقلاة . وفي الظل الداكن ، في ركن بعيد ، كان ثمة شبح يدرع الغرفة بسرعة ولا يستطيع المرء أن يحكم لأول وهلة هل كان شبح حيوان كاسر ، أو أنه كان مخلوقاً آدمياً . إذ كان يحبو على أربع . ويهمهم ويزججر كوحش عجيب . ولكنه كان مكسواً بالثياب . وبكبة من الشعر السنجاني الحالك اسدل أشبه بمعرفة تخفى الرأس والوجه .. وقال مستر روشستر :

— صباح الخير يامسر بول ! كيف حالك وحال (الأمانة) التي في عهدتك ؟

— حالنا لأأس به ياسيدى .. أشكرك !

وبعد أن رفعت الطعام المغلي بعناية عن موقد التسخين ، قالت : « إنها فقلة شرسة ولكنها ليست خطيرة » .. وارتفعت إذ ذاك صرخة وحشية كأنها جاءت تكذباً لهذا التصريح الذى انطوى على جمالة لها . ثم وقفت الضبعة البشرية على قدميها الخائفتين . فصاحت جريس :

— آه ياسيدى لقد رأيتك وغير لك ألا تبقى .

— بضع دقائق فقط ياجريس . يجب أن تمنحني بضع لحظات .

— احترس إذن ياسيدى .. احترس بالله عليك !

وجأرت المجنونة ، ودفعت عن وجهها خصلات شعرها الكث ، ثم حملت كالحوشة في زواها - فتبينت جيداً وجهها الترمزى وتقاطيع وجهها المتفتخ . وإذا تقدمت مسر بول ، دفعها مستر روشستر جانباً وقال : « انسحى إلى الطريق . فهى على ما اعتقد لا تحسن الآن سكيناً . كما أنتى على حذر منها » .

.. إن الإنسان لا يعرف مالهيا ياسيدى ، لأنها غاية في الدهاء ، ويتعذر على ذوى الثقلنة والتمييز تصور مكرها !

فغمغم ميرون بصوت هامس : « يتعذر بنا أن نتركها » . وإذا ذاك صاح به صهرد : « ألا اذهب إلى الجحيم ! » .. بينما صرخت جريس : « حذار » .

فارتد السادة الثلاثة إلى الخلف بحركة آلية تلقائية ، وجاذبى مستر روشستر خلفه .. فنفخت المجنونة عليه تمسك عنقه بعنف وتفرز أسنانه في وجهه ، ثم دار بينهما النضال . كانت امرأة ضخمة الجسم وفى مثل قامة زوجها . فضلاً عن أنها كانت مفرطة في البدانة فأبدت قوة الرجال في نضالها . وكادت تخضع أكثر من مرة برغم أنه رياضى .. وكان في وسعه أن يتغلب عليها بضربة مسددة . ولكنه لم يشأ إلا أن يصارعها . وأخيراً أمسك بذراعها . فناولته جريس بول حبالاً شدها به خلفها ، ثم أوثقها بجبل آخر إلى أحد المقاعد . وقد تمت هذه (العملية) بين أبشع الصرخات والحركات المذمورة .. وأخيراً .. استأمر مستر روشستر إلى النظارة وتطلع إليهم في اقسامة امتزج فيها المرء بالجنونة والأمى ،

وقال : « هذه زوجتي ، وهذا هو كل ما عرفت من عناقها كزوجة ..
هذا كل ما تمنحني من مظاهر الإعزاز والتدليل التي أتعزى بها في ساعات
التفراخ .. » ثم وضع يده على كتفي ومضى يقول :

— هذه هي التي أردتها .. هذه الشابة التي تقف في هدوء وريانة
عند فوحة الجحيم ، وتنطلق في ثبات إلى الشيطانة التي تعجل أمامها ؟
أردتها فقط كضرب من التغيير بعد طبخة حريفة متبلة . انظر ياوود ،
وأنت يا برجز ، إلى الفارق بين الاثنين وقارتا بين هاتين العيتين الصافيتين
وبين الكرتين الملتبيتين هناك ، وذلك الوجه المنقوع ، والجسم البدين
المتفخ . ثم احكما بعد ذلك يارجل الدين يارجل القانون ، وتذكرا
أنه كما يدين المرء بدين ... هيا اخرجوا جميعاً الآن حتى أغلق الباب على
شرقي الغالية !

● وأنسحبنا جميعاً . وبقي مستر روشستر يضع لحظات ليصتدر بعض
أوامره إلى مسز بول ... وفي أثناء هبوطنا الدرج ، خاطبني الخاطي قائلاً :
« أنت خالصة من كل لوم ياسيدتي وسيغتبط عمك (جون إمر)
بذلك ، لو أنه بقي على قيد الحياة حتى عودة مستر ميسون إلى ماديرا .
... عمي ؟! .. ما أخباره ؟ هل تعرفه ؟ »

— إن مستر ميسون يعرفه . فلقد كان مستر إمر عميلاً له في
(فونشال) ليضع سنوات . وتصادف عندما تلقى عمك خطابك الذي
ذكرت فيه أنك اعترمت الزواج من مستر روشستر ، أن كان مستر



ثم دار بينهما التضال .. كانت امرأة ضخمة الجسم وفي مثل قامة زوجها

ميسون معه إذ سافر إلى (ماديرا) ليستكمل نقاحته - بعد الحادث الذي تعرفينه وقبل عودته إلى جايكا - فأبلغه عمك التبا لأنه كان يعلم أن له صلة بسيد يدعى روشستر ، وشده مدهش مستر ميسون وانغم . ثم شرح جليلة الأمور لعمك الذي يؤسفني أن أقول إنه الآن مريض وطريح الفراش في حالة انهيار قد لا ينجو منها . ولذلك لم يقو على أن يبادر إلى انجلترا بنفسه ليخلصك من الشر الذي وقعت فيه ولكنه توسل إلى مستر ميسون أن يسرع إلى اتخاذ التدابير اللازمة لمنع هذا الزواج الزائف ، كما أحاله عليّ لمساعدته ، فأسرعت ماوسغنى الإسراع . وأحد الله على أنفي لم تأخر عن الوقت المناسب ، وخلق بك أن تحمدي الله معي . ولو لم أكن موجساً من أن عمك سيموت قبل وصولك إلى (ماديرا) لتصحتك بمرافقة مستر ميسون عند عودته . ولذلك أرى من الخير أن تبقى في انجلترا إلى أن تصلك أنباء من عمك أو عنه . هل هناك شيء آخر يدعوننا للبقاء ياميسون ؟

فأجابني هذا في لحفة : « كلا .. كلا .. هيا بنا » .. ومرقا خلال باب البهو دون أن ينتظرا مستر روشستر ليستأذنه في الانصراف . وبقي الكاهن ليتبادل بعض عبارات لائمة أو مؤنية مع ابن ليراشيته - روشستر - حتى إذا انتهى من مهمته ، غادر القصر بدوره .. وسمعتة يرحل وأنا واقفة عند باب حجرتي الموارب ، بعد أن انسحبت إليها . وإذ خلا القصر : أغلقت حجرتي بالمرلاج حتى لا يتطفل عليّ أحد ، ثم شرعت - لاني البكاء ولا في العويل ، لأنني كنت أهلاً من أن أفعل ذلك - ولما في خلع ثوب الزفاف بمركبة آلية : ثم ارتديت ثوبي العادي الذي كنت ألبسه

في اليوم السابق لآخر مرة كما زعمت . وجلست بعد ذلك وأنا أحس الوهن والثعب ، فانتكأت بذراعي على المنضدة وألقيت رأسي عليها ثم أخذت أفكر في أن دورى - حتى تلك اللحظة - لم يكن يعدو مجرد أن أسمع وأن أشاهد وأن أتأثر ، وأنا مطاردة في أثناء ذلك أينما ذهبت أو انسقت .. أرى الحادث يندفع وراء الحادث ، والفضيحة تتلو القضية . ثم لا أملك سوى التفكير !



● وانقضى الصباح في هدوء تام . فيما عدا مشهد الجنونة القصير .. حتى حادث الكنيسة لم يثر أية جليلة ولم تنفجر فيه الانفعالات ، أو ترتفع المهارات والخلافات . ولم يصحبه تحد أو صراع أو دموع أو تشييع . بل قيلت في أثناءه كلمات قليلة ، وأثير الاعتراض في هدوء نسي ، وألقى مستر روشستر بعض أسئلة جافة مقتضبة تلقى عنها إجابات وإيضاحات وأدلة . اعترف سيدي بعدها بالحقيقة ، وشاهدنا الدليل إلى ماثلاً أمام عيوننا . ثم رحل المتطفلان واتهى كل شيء .

كنت في حجرتي كالعادة ، بمفردي ، دون تغيير ملحوظ ، فلم يضربني أحد أو يؤذي أو يشوهني ، ومع ذلك فأين كانت (جين إير) الأملس بحياتها وآمالها ؟ إن جين إير التي كانت امرأة ذات حمية وآمال وكادت تصبح عروساً ، عادت فتاة باردة وحيدة كما كانت ، بعد أن شحبت حياتها وتشوشت آمالها وحل لديها صقيع رأس السنة في أوج الصيف ، وهبت عواصف الشتاء المدمية في شهر يونيو ، وظلّ الجليد التفاح الناضج : وصحى القليج الورود المثلج كفن من

الجليل . أما العطرقات الصغيرة التي كانت تزدان في ليلة أمس بالزهور ، فقد أفقرت من المارة فلم تعد تطورها الآن سوى أقدام الجليل . وأما الغابات التي كانت عطرة موزقة منذ أربع وعشرين ساعة كأنها أحرش المناطق الاستوائية ، فقد غدت الآن موحشة مهلمة بيضاء ناصعة كأنها غابات الصنوبر في شتاء النرويج !

ذلك لأن آمالي جميعها قد قضى عليها القدر بضربة خفية .. ورحلت أتأمل آمالي العزيزة التي كانت بالأمس زاهرة زاهية فإذا بها قد ذبلت وغدت رهماً لا يمكن قط أن تسترد الحياة ! .. وعدت إلى حبي الذي خلقه سيدي فأريته يرتجف في قلبي : أشبه بطفل مريض في مهد بارد — لفوط ما كانت تنبئه العلل والآلام — دون أن يقوى على البحث عن ذراعي مستر رويستر أو صدره ليستمد الدفء ! .. أهواه ! لن يستطيع قلبي الاتجاه إليه لأن الإيمان قد تبدد والثقة قد تلاشت ، ولأن مستر رويستر لم يعد لي كما كان من قبل ، ولا ظل على ما كنت أتصوره . ولست أعزو إليه أية نقيص ، ولا أقول إنه غدر بي ، وإنما زایل فكرتي عنه كل اطمئنان إلى الحقيقة الخالصة من أية شائبة ! .. ولم يعد ثمة بد من الرجل بعيداً عنه .. وكان ههنا جل ما تراءى لي وما أحسست به ، ولكن متى ، وكيف ، وإلى أين ؟ .. لم أهد بعد إلى رأى ، غير أنني لم أرتب في أن مستر رويستر نفسه لن يلبث أن يجعل بإقصائي عن (ثورنفلد) . فقد لاح لي أن من غير الممكن أن يكون قد شعر بنحوى بحب حقيقي ، وإنما كان الأمر كله مجرد نزوة طارئة هدأت ، ولن يعود السيد بحاجة إلي .. بل إنني بت أحتشئ أن أعترض طريقه ، إذ لابد أنه غدا يعاف

رؤيتي .. آه ! لكم كنت عمياء ، ولكم كان مسلكي ضعيفاً ! .. أجل ، كانت عيناى محجوبتين ، ومعصيتين !

وخيل لي أن الظلمة تدور حولي كالدوامة ، وأن أفكارى غدت سوداء : تنساب في اضطراب السيل وتدفعه .. كنت أبعد — وقد تبدتني نفسي وخلقتني مسترخية ، بلا حول ولا قوة — وكأننا ألقى في حوض نهر جاف ، ثم سمعت فيضاً ينساب منحدرًا من جبال بعيدة ، وأحسست بسهولة تقرب مني ، دون أن أجِد من نفسي رغبة في النهوض ، أو قدرة على الثرار ، فرقدت خائرة القوى أثلف على الموت . ولا تراودني سوى فكرة واحدة .. ذكرى الله : تبدت في صلاة صامعة راحت كلما تسبح في خاطري كشيء يجب أن أحسن به دون أن أقوى على التطق به : « اللهم لا تبعد عني لأن العناء قريب ولا أحد في عوئي ! » . كان السيل قريباً .. ولكنني لم أجأر بالدعاء للسماء كي تقنيه ، ولم أضم يدي أو أثني ركبتي أو تحرك شفتي .. ثم اقرب السيل ودهني بكل قوته واندفاعه ، فإذا كل إحساسى المضضع بالحياة . وحبي المضيع ، وآمالي الخائبة ، وإيماني المصعوق .. إذا بها جميعاً تنصب على رأسي كتلة واحدة .. وكانت ساعة مريرة رهيبة بصعب وصفها .. والواقع أن الماء دهم نفسي ، فإذا بي أغرق في حمأة عميقة ، دون أن أجِد أرضاً أضع عليها قدمي ، وما لبثت أن بلغت الماء العميق ثم جرفتني السيول !



الفصل السابع والعشرون

■ ورفعت رأسي - في الأصل - وتلفت حولي قرأت الشمس الغاربة
ترسم على الجدار صورة غروبها ، ورحلت أسأله : « ماذا أعمل ؟ »
فجاءني الرد من نفسي : « غادرتي ثور نفيلد في الحان ! .. وكان رداً
سريعاً مروعاً جعلني أصم أذني . وأعترف بأنني لم أكن أطيع إذ ذلك
سماع مثل هذه الكلمات .. ورحلت أجادل نفسي : « ليس أسوأ مما في
الأمر أنني لم أعد زوجة إدوارد وروشستر ، ولكن استيقاظي من أحلام
الرائعة لأجدها كلها زائفة كاذبة . هو الأمر الرهيب الذي لا أقوى
على احتماله والتغلب عليه : كما لا يمكن أن أحتمل أو أن أقدم على مغادرة
سيدي في إصرار ، وفي الحان ، وإلى الأبد ! » .

ولكن صوتاً من أعماقي أهاب في أن ذلك في وسعي . وأن من واجبي
أن أفعله . ورحلت أناضل هذا القرار وأعني أن أكون من الضعفاء بحيث
أنعاش الطريق المؤلم الذي يقضي إلى عذاب آخر رأيت به سوطاً أدامي ..
وعندئذ ثار « الضمير » وتحول إلى طاعة أمسك بخناق « الهوى » ثم قال
بؤنه : إنه قد دس قدمه الرشيق في حاة موحلة ، وأقسم أن يلقيه بلذراع
جليدية في أعماق الآلام والأوجاع .. وعندئذ صرخت : « سأعزق
إرباً إذن ! .. أما من معين ؟ » .. وأجاب الهاتف : « كلا بل إنك
ستمزقين نفسك دون أن يساعدك أحد ! .. سوف تنقذين عينك إنجي
وتفعلين بنفسك يدك إنجي ، وسيكون قلبك الضحية وستكونين أنت
الكاهن الذي يذبح هذا الثيران ! » .

وإذ ذاك نهضت فجأة وقد استبدني الرعب لوجدت القاسية مع هذا
التقاضى الذي لا يرحم ، ومع هذا الصمت الذي غشي حواسه مثل هذا
الصوت الرهيب ! .. وإذ انتصبت واقفة ، سيج رأسي . وأدركني غثيان
فطنت إلى أنه ناشئ عن ثورتي وخلو معدني لأنني لم أذق طعاماً ولا شرباً
في ذلك اليوم .. حتى التطور لم أجد وقتاً للتناول . وفطنت - وقبلي ينطق
بألم عجيب - إلى أنني إذا ظلمت في معزلي هذا فلن يسأل عني أحد
أو يدعوني إنسان للنزول .. حتى أدبل الصغيرة لن تطرق بابي .. بل إن
مزرع فيرفاكس لن تبحث عني ! .. ثم غمغمت وأنا أرفع المزلاج :
« إن الأصدقاء ينسون دائماً من يتخلى عنهم الحفظ ! » . وخرجت لأتأمل
بشيء في طريقي ، وكنت ما أزال غائمة العينين وأهنة الأطراف لا أقوى
على استجماع قواي الخائرة . فسقطت .. لا على الأرض . وإنما لتلففتني
ذراع مملودة ، فوفعت عيني لأجدني مستندة إلى ستر ووشستر وقد
جلس على مقعد عند عتبة عرقي . ثم قال :

- ها قد خرجت أخيراً ! .. لقد انتظرتك طويلاً ، وأرغفت السمع
دون أن تنتهي إلى أذني حركة أو نشيج واحد ، ولو أن هذا السكون المطبق
الشبيه بسكون الموت استمر خمس دقائق أخرى ، لفتحت الباب عنوة
كلص .. هل تجفلين مني ؟ .. لماذا تغلقين عليك الباب وتسلمين وحدك
للأحزان ؟ .. إنني أؤثر أن تأتي وتعطيني في قسوة ! .. إنك شديدة الانفعال
سريعة التأثر ولذلك كنت أتوقع منك مثل هذا المشهد فأعددت نفسي
لوابلي من الدموع الحارة والعبرات . وما كنت أرجو سوى أن تذرفها
على صدري بدل أن تلقاها الأرض التي لا تحب ولا تفصح . أو يتلقفها

منديك الصغير المثلل . بل أحسبني مخطئاً فإنى أرى وجنتك شاحية وعينك ذابلة دون أثر فيها للدموع ، فأغلب الظن إذن أن قلبك كان يوكى دماً ! .. حسناً يا جين ! أما من كلمة تقريع ؟ .. أما من شيء أشد مرارة وأنكى ونزراً ؟ أما من شيء يظلم الشعور أو يلدغ العاطفة ؟ .. إنك تجلسين هادئة حيث وضعتك وتطلعين إلى بنظرة واهنة سلبية ! .. ما أردت يا جين أن أصيبك بهذا الجرح .. إن المرء الذى لم يؤت سوى شاة صغيرة يعتز بها كما لو كانت ابنته ، ويدعها تأكل من خبزها وتشرّب من كأسه ، وترقد فى حجره ، قد يضطر لخطأ ما إلى ذبحها .. ولكنه لن يعانى إذ ذاك من الندم على غلطته الدامية . ما أعانى من الحسرة على غلطتى .. فهلا صفحت ؟



● ولقد صفحت عنه أيها القارئ فى الحال ، وعلى الفور ، بعد أن تبتدى فى عينيه ما تم عن ذلك الندم العميق ، وما تجلى فى لمجته من هذا الأسى الحقيقى ، وما ظهر على طلعه من رجولة صادقة . هذا ، فضلاً عما كان فى كلى شكله وهيبته من حب لا يتبدل ولا يتغير .. أجل ، لقد غفرت له كل شيء .. غفرت فى صميم قوادى . وإن لم أعبر عن ذلك بقول أو تظاهر . وكأنما رابه إخلادى الطويل إلى الصمت والاستكانة اللذين كانا نتيجة ضعف أكثر مما كانا نتيجة تعمد وقصد . فلما لبث أن سألتى : « أتدركين أننى وغد يا جين ؟ » .

— نعم ياسيدى :

— إذن قولى ذلك فى عتف وحدة ولا تأخذك فى رحمة !

— لا أستطيع .. لأننى متعبة ومريضة ، وفى حاجة إلى بعض الماء . فتبتد تنهدة راعدة ، ثم حلتى بين ذراعيه إلى الطابق الأسفل . ولم أدر فى أول الأمر إلى أية حجرة حلتى ، لأن كل شيء كان غامضاً فى ناظرى . ثم سرعان ما استشعرت دفء النيران المنعش بعد أن كنت محوطة فى حجرى ببرودة جليدية برغم أننا كنا فى الصيف ! .. ثم سكبت خراً بين شفتى فتذوقتها وانتعشت . وما لبثت أن تناولت طعاماً قدمه إلى فاستردت قواى وتبينت أننى فى حجرة المكتبة ، أجلس على مقعد السيد ، بينما جلس هو على مقربة منى . وحدثت نفسى قائلة : « لبتى أغادر الحياة الآن دون ألم شديد ، فإن هذا خير لى ، إذ يكفىنى مثونة بذل الجهد فى انتزاع نياط قلبى وأنا أفصله عن قلب مستر روشستر الذى يبدو ألا مفر من فراقه ، وإن كنت لا أحب أن أتركه ولا أستطيع مغادرته ! » .. وسألنى إذ ذاك : « كيف حالك يا جين ؟ » .

— أحسن كثيراً ياسيدى ، ولما لبث أن أصبح بخير .

— تنلقى النيب مرة أخرى يا جين .

فأطعته ، وعندئذ وضع الكأس على المنضدة ثم وقف أمامى يتفرس فى متبعتها .. وفجأة .. ابتعد وقد نادت عنه صيحة مدغمة زاحرة بالانفعال ثم أسرع ليعبر الحجرة ليعود من فوره فينحنى على وكأنه يهم بتقبيل ، ولكنى تذكرت أن الغزل قد بات معظوراً علينا . فأشحت بوجهى عنه ، ودفعت وجهه بعيداً . فصاح على التو : « ماذا ؟ ! .. كيف هذا ؟ أوام ، لقد عرفت ! .. إنك لا تريدن تقبيل زوج برنهامسون وتعتبرين ذراعى مليونيين ، وصدرى ملكاً لغيرك .. أليس كذلك ؟ » .

— على كل ، ليس لي مكان أو حق في ذلك ياسيدى .
 — لماذا يا جين ؟ سأكتفيك مشقة الحديث الطويل وأتولى عنك
 الجواب ، لأننى متزوج فعلا . أليس هذا ردك كما أتوقعه ؟
 — نعم .
 — إذا كان هذا ما تظنينه ، فإذن رأيك في يجب أن يكون عجيباً ..
 ولا بد أنك تعدينى متحكماً خليعاً يتأمر عليك . ووغداً وضيعاً دينياً نظام
 لك بحسب كاذب زائف ليجتذلك إلى فمغ يحبوك الأطراف عن قصد وعدم
 فيجرك من الشرف ويسليك كرامتك واعتزازك بنفسك .. ماقولك في
 هذا ؟ أراك لا تقوين على قول شيء : أولاً لأنك مازلت ضعيقة واهنة
 ولا تكادين تقوين على اجتذاب أنفاسك ، وثانياً لأنك لا تستطيعين بعد
 أن تعودى نفسك على اتهاى واتهاى .. فوق ذلك هاق قد تشمت عيون
 الدموع ، وسوف تنفجر إذا ما أكثرت من الكلام .. لا رغبة لديك
 في الاعتراض والتعنيف وإشهاد الناس علينا ، ولكنك تفكرين فيما يجب
 عمله ، وترين في الكلام أمراً لا يجدى ولا ينفع .. إننى أعرفك وأخذ
 منك حلىرى !
 — لا رغبة لدى في أن أعمل ضدك ياسيدى .

* * *

● ونبنى صوتى المرتجف إلى ضرورة الإيجاز والاقتضاب : فلم أزد
 ولكنه أجاب قائلاً : « إنك لا ترغين في العمل ضدى بالمعنى الذى
 تفهمينه ، ولكنك ترسمين خطك للقضاء على بالمعنى الذى أقوم به . فقد
 صدقت في قولك إننى رجل متزوج فيجب أن تتجبنين وأن تبعدى

عن طريق يمثل ما رفضت منذ لحظة أن تقبلى لأنك اعترفت أن تجعل
 نفسك إنسانة غريبة عني تماماً . وألا تعيشى تحت هذا السقف
 إلا كمعلمة لأدبل ، وإذا وجهت إليك كلمة ود أو اجتذبتك نحوى
 بشعور الصداقة ، فسوف تقولين : « لقد كاد هذا الرجل أن يتخذ
 منى خلية له ، فيجب أن أكون في علاقتى به كالكليج والحجارة » .
 وإنى لأدرك أن بوسعك أن تصبحى كذلك فعلاً !

فجلوت صوتى وثبت نبراته لأرد قائلة : « لقد تغير كل شيء »
 حولى ياسيدى . فيجب أن أغير بدورى . هذا أمر لا شك فيه ..
 ولكى أتأشى كل تحول في مشاعرى وكل صراع مع ذكرياتى وصلاتى
 لا أجد أمامى سوى طريق واحد . هو ضرورة البحث لأدبل عن معلمة
 أخرى !

— أوه ..! إن أدبل سوف تذهب إلى المدرسة ، فقد قررت ذلك
 منذ قليل ، كما أننى لا أريد أن أعذبك بذكرياتك البغيضة وصلاتك
 القديمة بثور نفيلد هول .. هذا المكان اللعين .. هذا القبر العانى الذى
 يعكس على ضياء السماء القسيحة شحوب الموت .. هذا الجحيم الحجري
 الضيق ، وشيطاناته الخفية التى تجعله أسوأ من كل ما نتصور ..
 سوف لا تقيمين هنا يا جين ، ولا أنا ..! فقد أخطأت في أن جئت بك
 إلى ثور نفيلد هول برغم ما أعلمه عن هذا المكان الذى تسكنه العفاريت .
 ولقد أمرتهم بأن يخفوا عنك لعنة هذا المكان قبل أن تقع عليك عيناى ،
 لأننى خشيت ألا أحصل على معلمة لأدبل إذا علمت أنه مرشحة
 بالشيطانة التى ستضطر إلى الإقامة معها ..

المجنونة إلى مكان آخر ، مع أنني أملك داراً قديمة في ضيعة (فوندين) أكثر عزلة من هذا القصر . وكان في مقدوري أن أنقلها إلى هناك في سلام وطمأنينة ، لولا أن خطر لي خاطر عن الظروف الصحية في قلب الغاية ، فأثار ضميري... كان من المحتمل أن تعجل الجدران الرطبة بخلاصي منها . ولكن لكل وغد عيباً ، وعيبي أنني لا أميل إلى القتل غير المباشر ، ولو لأكثر الناس نصيباً من بغضائي !..

ولقد أخفيت عنك مكان المجنونة القريب . فكنت في ذلك كن يغطي طفلاً بعباءة ثم يرقده بالقرب من شجرة (الأوبا) - السامة - فإن العيش بجوار هذه المجنونة سام !.. لسوف أغلق (ثورنفيلد هول) وأسر بابي الخارجي ، وأسند نوافذ الطابق الأرضي بالألواح الخشبية ، وأعطى مسر بول مائتي جنيه في السنة لتعيش هنا مع زوجتي . كما تسمين هذه الشوواء الرهيبة .. و (جريس بول) لا تتردد في عمل الكثير من أجل النقود ، وسوف تستعين بابنها - الذي يشغل كحارس في جريسمبي ريثريت - ليحتمل رفقتها ويبادر إلى مساعدتها في نوبات الهياج ، عندما تحاول زوجتي - كعادتها - حرق الناس في مضاجعهم بالليل ، أو طعنهم وفصل لحومهم عن عظامهم بأسنانها ، وما إلى ذلك..

فقاطعت قائلة : « إنك شديد القسوة على تلك السيدة التعمة يا سيدي .. إنك تتحدث عنها بغمت .. بخقد ونقمة . وهذه قسوة منك » إذ لا حيلة لها في جنونها .

— يا جين .. يا حبيبتي الصغيرة — هكذا سأناديك وهكذا أنت

بالنسبة لي — إنك لا تدريين ماذا تقولين . إنك تسيئين الحكم على مرة أخرى .. إنني لا أكرهها لأنها مجنونة . هل تظننني أكرهك إذا مسك خبل ؟ — أظن ذلك يا سيدي .

— إذن فأنت مخطئة ، ولا تعرفين شيئاً عني أو عن مدى الحب الذي يمكن أن يترسخ به قلبي .. إن كل ذرة من بدنك عزيزة لدى كأنها من لحى ، سواء كانت سليمة أو علية . وعقلك كترى الغالى ومهما احتيل فيسطل كترى كذلك .. وإذا أنت هديت فسوف تكون ذراعاي مأواك ، وليس ذلك القميص الضيق ، وإذا امتنعت فإن قبضتك تغدو كوقع السحر عندي ، وإذا هاجتني بوحشية — كما فعلت تلك المرأة صباح اليوم — تلقيتك على صدرى لأضملك وأقيدك إليّ ، دون أن أجفل منك كما جفلت منها متقرزاً .. أما في لحظات الهدوء فلن يحرسك أو يحرضك سوى ، وفي وسعي أن أأزملك بخنان لا يدركه تعب رغم أنك لن تكافئيني على ذلك بابتسامة .. لن أمل من التطلع إلى عينيك وإن لم يعد ينبعث منهما شعاع ينم عن أنك تعرفيني .. ولكن لماذا أتبع مثل هذه الأفكار المتلاحقة ؟.. كنت أتحدث معك عن نقلك من (ثورنفيلد) .. إن كل شيء معد كما تعلمين وستافرين غداً . فقط أطلب إليك يا جين أن تحتملي المبيت ليلة أخرى تحت سقف هذا القصر ، ثم تودعيته وتودعين ألامه وأهواله إلى الأبد .. ولدى مكان يمكن أن تحتمي فيه من الذكريات البغيضة والتطفل الكريه ، ومن الزيف والقيمة !..

فقاطعتها قائلة : « خذ أدبل معك يا سيدى - وسوف نأنتك ! » .
 — ماذا تعنين يا جين ؟ .. لقد قلت لك إننى سأرسلها إلى المدرسة .
 ثم ما حاجتى إلى طفلة ترافقنى .. طفلة ليست من صلبى . وإنما ولدتها
 رافضة فرنسية فاجرة ؟ لماذا كل هذه الحاجة بشأنها .. لماذا تترصنها
 على كرفيفة ؟

.. لقد حدثتني عن رغبتك في التقاعد والاعتزال يا سيدى ..
 وهما من بواعث الهم ولا كتاب .. لا سيما بالنسبة ليلث .

فقال ثائراً : « الاعتزال ! الوحدة ! .. أرى من واجبي أن أبسط
 لك الأمر ، ولا أدري أى غموض هذا الذى يرتسم على أساوريك
 وينعكس أشبه بأبى الحول ! إنك أنت التى يجب أن تشاطرينى وحدتى .
 أفهمت ؟ » .. فهزئت رأسى .. كنت فى حاجة إلى شيء من الشجاعة
 أمام ثورته حتى أستطيع أن أجازف بالتعبير -- ولو فى صمت -- عن
 رفضى . وكان يدرخ الحجره بسرعة . فتوقفت فجأة وكأن قدميه
 سمرا إلى بقعة واحدة ، ثم تفرس فى وجهى طويلا وبقوة ، فحولت
 عنه عيني لأتجنبها فى نيران المدفأة محاولة أن أهدر أمامه هادئة رابطة
 الجأش . وأخيراً قال فى هدوء لم أتوقعه من نظرتة : « ها هنا البقرة
 فى أخلاق جين .. ! إن بكرة الخطيط الحريرى قد انسابت حتى الآن
 ناعمة ماساء ولكنى لم أشك أبداً فى أن تأتى عقدة تعرفلى سيرها وتخبر
 العقل ، وهما هى ذى قد أنت لتبعث السكر والحلق والمتاعب التى
 لا تنتهى يا إلهى ! كم أتمنى أن تكون لى قوة ششون فأحطم كل قيد
 وكأنى أحطم حبلا من الكتان ! » .. وعاد يدرخ الحجره من جديد ،

ثم ما ليث أن توقف مرة أخرى أمامى مباشرة . وانحنى مقرباً بشفتيه
 من أذنى وقال :

— هلا أصغيت يا جين إلى صوت العقل ؟ .. إذا لم تفعل فسوف
 ألتجئ إلى العنف ؟

وكان صوته مبهوحاً . ونظرته كمنظرة من يوشك أن يحطم قيداً
 لا يحتمل ثم يتدفع فى ثورة هائجة . وأدركت أننى إذا مكثت لحظة
 أخرى سادرة فى يرودى فلن أتمكن من الوصول إلى شيء معه .. كان
 الحائس كل ما يجب أن أسك بعنانه وأكبحه فى نفسى ، وكل حركة
 ناعرة أو جافة أو خائفة كفيلة بأن تقرر مصيرى ومصيره ، ولكننى
 لم أكن خائفة بحال من الأحوال . بل إننى استشعرت قوة داخلية كامنة
 وإحساساً من النفوذ عليه يساندنى . وكانت الأزمة خطيرة . وإن لم
 تحل من السحر الذى يحسه الهندى وهو يتزلزل فى قاربه على الجنادل :
 شددت يدي وأمسكت بيده المشنجة . وإذا ذاك استرخت أصابعه
 الملتوية ، فقلت له فى رفق : « اجلس . سأحدثك طويلا كما تريد ،
 وسأصغى إلى كل ما تريد قوله ، سواء كان معقولاً أو غير معقول ! » .

■ وجلس . ولكننى لم أذن له فى الحديث على الفور . لأننى كنت
 أصارع دموعى ، وعانيت كثيراً من الآلام فى حبسها لأننى كنت أعلم
 أنه يود أن يرانى باكياً ، ولكننى عدت فآثرت أن أطلق لها العنان كما
 تشاء ، ولو أغضبه ذلك ! وهكذا بكيت بحرقة ، وإذا بى أسمعته يتضرع
 لى أن أهدي من جاشى . فقلت له إن حبلاً لم يكن فى وسعى ما ظل هو

شارلوت برونتى

— كلا يا سيدى . هذا ما لا أشك فيه .. إن ثمة طريقة واحدة ،
ولكنك قد تحتاج إذا ذكرتها لك .

— أوه . اذكرها ! وإذا عصفت في الغضب فلديك فن البكاء !

— يجب يا ماستر وروشمير .. أن أغادرك !

— إلى متى يا جين ؟ .. لبضع دقائق حتى تسوى شعرك الذى
تشعب قليلا ، وحتى تغسل وجهك شبه المحموم ؟

— يجب أن أغادر أدبل وثورنفلدك .. يجب أن أقاركم مدى
الحياة ! .. يجب أن أبدأ حياة جديدة بين وجوه غريبة ومشاهد غريبة !

— طبعاً ، وقد أخبرتك بأن هذا ضرورى . ولسوف أستبعد أنك
ترومين فراقى ، لأفهم قولك على أنك تعنين — ولابد — أن تصبحى

جزءاً منى . أما عن الحياة الجديدة ، فلا ضير هناك .. إنك على كل
حال ستصبحين زوجتى ، لأننى لست متزوجاً ! .. ستكونين مسر

روشمير تماماً وفعلاً ، وسألازمك ما دمت حياً .. وسوف نتقلبن إلى
قصر أمثلك في جنوب فرنسا .. فيلا بيضاء على شواطئ البحر الأبيض

المتوسط : حيث تنعمين بالسعادة و أمان وتعين حياة صافية ولا تخشين
أن أغريك بارتكاب إحدى المعاصى وأن أتخذك خليلية . لماذا تهزين

رأسك ؟ يجب أن تكونى عاقلة يا جين وإلا هاجت نائرتى مرة أخرى .
وكان صوته وبده يبتزان ، وخياشيمه الكبيرة تنسع ، كما تألفت

عيناه ، ولكنى جرؤت على الكلام فقلت : « إن زوجتك ما تزال حية
يا سيدى وهذه حقيقة اعترفت بها بنفسك في هذا الصباح » فإذا أنا

ثائراً مهتاجاً . وإذ ذاك قال : « ولكنى لست غاضباً يا جين ، وإنما
أنا أحبك فحسب ، وقد رأيت على وجهك الصغير الشاحب دلائل
الجمود والبرود والإصرار فلم أطلق رؤيتك على هذه الحال . كفى الآن
وكفى دموعك ! »

وكشف صوته الناعم عن هدوئه فهدأت بدورى . وحاول إذ ذاك
أن يعتمد برأسه على كتفى ، ولكنى لم أدعه .. ثم أراد أن يبتدئ إلى
فأبيت ، وعندئذ قال في لهجة بالغة الحزن والمرارة إلى درجة هزت
أعصابى : « جين ! جين ! إنك لا تعبينى . إنك لم تقدرى فقط سوى
مركزى والمركز التى تبؤه من تكون زوجتى ، فلما رأيت الآن أننى
لا أستأهل أن أكون زوجاً لك ، كذبت منى وأجفلت من لسى
وكاننى ضفدع أو قرد !

أثرت في نفسى هذه الكلمات ولكن ما الذى كان فى وسعى أن
أفعل أو أقول ؟ .. ولعله كان من الواجب أن أقبل أو أن أقول شيئاً ،
ولكنى كنت أتغلب بالندم لإبدائى مشاعره . ولم يسعنى أن أقاوم
رغبى فى وضع بلسم شاف على الجرح الذى أدميته فقلت : « إننى
أحبك أكثر من أى وقت مضى ولكن .. لا ينبغي أن أظهر هذا الشعور
أو أطلق له العنان .. بل يجب أن تكون هذه آخر مرة أعرب لك فيها
عن شعورى » .

— آخر مرة يا جين ! ماذا ؟ أحسين أنك تستطيعين العيش معى
ورؤيتى فى كل يوم ثم تحصين فى برودك ونأيك عنى وأنت ما زلت

تخبينى ؟

عشت معك كما تهوى صرت لك خلية .. أما القول بغير ذلك ففسطة وزيف ! » .

— أنا لست من رقبتي الطبع يا جين فلا تنسى ذلك ، كما أنني لست ممن يقوون على الاحتمال الطويل .. لست بارداً أو هادئاً ، ولذلك أرجو إشفافاً على — وعلى نفسك — أن تضعي إصبعك على نبضي » وتبينني وجيبه ثم حاذري !

وكشف عن رسمه وقدمها إلى . ووجدت الدماء تهرب من وجنتيه وشفتيه ، وقد استحال لونهما إلى الرقة: فشم كل نفس ، لأن إثارتها إلى هذا الحد المفضي .. الذي كان يكرهه — ضرب من القسوة .. وكان خضوعى في الوقت ذاته — أمراً مستحيلاً . ففعلت ما يفعله غيرى من البشر بغيريته عندما يساق إلى نهاية الشوط : تطلعت إلى غياث من قوة تسمو على الإنسان « وصحت على غير إرادتي : « أمدني بالعون يا رباه ! » :

■ وفجأة صاح مستر روشستر : « ما أحقني ! لقد ظلمت أحدهما بأنني لست متزوجاً دون أن أبسط لها الأسياب فقد نسيت أنها لا تعلم شيئاً عن أخلاق تلك المرأة وعن الظروف التي لا بدت زواجي البغيض بها .. وأنني لوائق من أن جين سوف تتفق معي في الرأي عندما تعرف كل ما أعرفه ! .. فقط ضعي يدك في يدي يا جانيت لكي أرى نغاسي اللامس والبصر أنك قريبة مني ، وأبسط لك في إنجاز حقيقة الأمر ، فهل تستطيعين الإصغاء إلى ؟ » .

— نعم يا سيدى .. ساعات إذا شئت !

— كلا فليست أسألك سوى بضع دقائق يا جين .. هل سمعت أنني لم أكن أكبر أخوتي في القصر وأنه كان لي أخ يكبرني ؟
— أذكر أن مسز فيرفاكس أخبرتني بذلك .
— وحل سمعت أن أبي كان رجلاً شجاعاً جداً لئلا ؟
— فهمت شيئاً من هذا القبيل .

— حسناً يا جين . لما كانت هذه طابع أبي فإنه لم يكن يطبق مجرد التفكير في تقسيم ممتلكاته ليرثك نصيباً عادلاً ، ومن ثم استقر رأيه على أن يرث أختي (رولاند) كل شيء ، ولكنه لم يرتض في حياة الفقر قضى يبحث في عن زوجة غنية . وكان صديقه القديم مستر ميسون مزارعاً من سراق جزر الهند الغربية وتاجراً كبيراً ، عرف أبي أنه أنجب ابناً وابنة ، وأنه أثر الأخيرة بثلاثين ألف جنيه ، وما أن غادرت الكلية ، حتى أوفدني أبي إلى (جايبكا) لأخطب الفتاة ، دون أن يشير إلى ثروتها ، بيد أنه قال إنها فتنة المدينة . ولم يكن كاذباً في ذلك ، إذ وجدت بها حيلة من طراز بلانش انجرام : هيفاء سمراء ملتفة القوام ، أرادت أسرته أن تستحوذ على نظراً لكرم عتدي ، ونجحت في ذلك .. كانوا يبرزونها لي في المجتمعات في أبيي فتنها ، فيحيط بها الرجال معجبين وهم يعطونني عليها . ووجدتني مبهور العواطف ، منساقاً للإغراء ، لا أدري حقيقة أسمى . فقد كنت غراً قليل التجربة ، ولم أفرد بها أو أطل معها الحديث على حدة ، فغلب لي أنني أحببتها .. وليست هناك حاقة تلعب اللب وتعجل بخسار الإنسان كالتنافس الأبله

في المجتمعات ، وكالات دفاع وراء العاطفة ، وتهور الشباب وعدم بصيرته . وهكذا شجعتني أهل القنطرة ودفعني تراحم المتنافسين عليها ، وبهرتني هي بسحرها ، قمت الزواج قبل أن أدرك أين أنا !.. آه ، كم أحترق نفسي عندما أفكر في هذه التمثيلية !.. وكما أنألم في قراراتي للزواج التي تسببت في ، فإنني لم أحبها ولم أحترمها قط ، بل إنني لم أكن أكاد أعرفها ، أو أطمئن إلى وجود فضيلة واحدة في طبيعتها ، أو ألمس في عقلها أو خلقها شيئاً من الخير أو الأريحية أو الصراحة أو التبذير .. ونزوجتها مع ذلك ، فكم كنت أبله حقيراً قصير النظر ! أما أمها فإنني لم أرها ، وفهمت أنها كانت ميتة ، فلما انقضى شهر العسل أدركت خطئي ، إذ علمت أن الأم مجنونة في مستشفى المجاذيب ، وأن لزوجتي كذلك أنما يصغرها أبله تماماً ، أما أخوها الأكبر - الذي رأيته - فسوف يلقي على الأرجح نفس المصير يوماً ما . ولكني لا أستطيع أن أكرهه - وإن أبغضت كل أقاربه - بسبب ما كان يظهر لأخته من حب يتبدى في اهتمامه بهذه البائسة المنكودة . وبسبب أنه كان يلزمني كثيراً ملازمة الكلب لصاحبه . وكان أبي وأخى (رولاند) يعرفان ذلك كله . ولكن تفكيرهما كان مقصوراً على الثلاثين ألف جنيه ، فاشتركا في المؤامرة التي دبرت ضدي !

واستطرد قائلاً : « هكذا انكشفت لي الحيلة الخبيثة الدنيئة .. ولولا إخفاؤها عني ما جعلتها موضوعاً لتأنيب زوجتي وتقريرها ، حتى بعد أن وجدت طباعها تنافى مع طباعي ، وميوها تنابى مع ميولي ، وعقلها منحطاً ضيق الأفق يستحيل التسامى به أو الامتداد به إلى ما هو

أفسح من رقعته المحدودة . ووجدت أنني لا أستطيع أن أقضي معها أسية واحدة - بل ساعة واحدة من النهار - في راحة وسلام ، وأنه لا سبيل إلى أن تبادل الحديث معاً « لأنني كنت إذا بدأت الكلام في موضوع ما « تلقت هي حديثي بفضاظة وخشونة وغباء ، ووجدت ألا سبيلاً لي في متزلي إلى هلع أو استقرار - بل إن خادماً واحداً لم يقو على احتمال ثوراتها العنيفة اللدائبة وطباعها البلهاء وأوامرها السخيفة المتناقضة التي كانت تقرضها قرصاً ، وحاولت أن أسمع عواطف ، وأن أنجب التقرير والتوبيخ « فأوجزت في احتجاجاتي ، وحاولت أن أطوى صدرى على ما كان يتأنيب من ندم وتقزز ، وكنت ما كنت أحس به من كراهية وبغضاء »

« ولست أريد يا جين أن أثقل عليك بالتفاصيل المقيمة ، بل تكني يضع كلمات قوية للتعبير عما أريد قوله ، فقد عشت مع المرأة التي بالطابق العلوي أربع سنوات دقت منها خلالها الأمرين ، إذ تبدت طباعها بسرعة عجيبة خفيفة ، وتحملت رذائلها بقوة لا يتجدي معها غير القسوة التي لم أشأ أن أعمد إليها . كانت قزعة في عقليتها ، عملاقة في نزواتها ونزعاتها الشريرة التي جرت على أشنع اللعنات .. أجل ، إن برتا ميسون كانت ابنة صادقة لأم مجنونة متبدلة ، وقد جلبت على كل ألوان العذاب المقيم المهيمن الذي يلاحق أي رجل ارتبط بزوجته مختبلة للعقل ، غير عفيفة !

« وفي تلك الأثناء توفي أخي الأكبر ، وفي نهاية السنين الأربع مات والدي كذلك ، فأصبحت غنياً . ولكن ما كان أشد قسوى - في

الحقيقة والواقع - تعاشره هذه مخلوقة البغضة التي باتت شريكى
فى الحياة ، والتي يعتبرها القانون والناس جزءاً منى ، والتي لم يعدنى
وسعى أن أتخلص منها بأية وسيلة شرعية ، إذ كان الأطباء قد اكتشفوا
إذ ذاك أنها مجنونة!.. إنك لا تميلين إلى قصتى يا جين ، إذ أرى على
وجهك دلائل الاء تعاض . فهل تحبين أن أوجل البقية إلى يوم آخر ؟
.. كلا يا سيدى ، أتعلمها الآن .. لئلى أرى لك .. أو لى لك حقاً!
.. إن الرءاء من بعض الناس يا جين عاطفة مهينة مزوية ، يخلق
بالمرء أن يرميها فى وجوه من يقدمونها ، إذ أنها تكون وكيدة قلوب مليئة
بالحقد والأناية ، وإنه لما يدعو إلى الألم - القائم على الأثرة - أن يسمع
الإنسان كيف تقابل ويلات الناس ونكباتهم بالأز دراء ينصب على
رعوس من احتملوا وفاسوا!.. أما رثاؤك لى يا جين فمن نوع آخسر
أراه يرسم على وجهك ويلتصع فى عيذك ويبيض به قلبك ، وترتعد له
يدك وهي فى يدى ... إن رثاءك يا حبيبى منبعث من قلب طاهر كقلب
الأم المضناة . فلا يسمنى سوى أن أتقبله يا جين ، وأفتح صدرى !
.. استمر يا سيدى . ماذا فعلت عندما وجدت أنها مجنونة ؟

.. كنت على شفا هوة اليأس والفتور يا جين . ولم يحل بينى وبينها
سوى بقية من احترام النفس . نعم ، كنت ملطخ الشرف فى أعين الناس
ولكنى أصبرت على أن أكون نقياً فى عيى نفسى . وأن أنأى عن دنس
جرائم هذه المرأة وأن أبعد عن عيوبها ونقائصها العقلية .. وبرغم ذلك
ظل المجتمع يقرن اسمها باسمى ، وظللت أراها وأسمع صوتها وأنتفس
أهواء المشبع بأنفاسها - والعباد بالله - كما أننى لم أنس أننى كنت يوماً

زوجها . وإن كانت هذه الذكرى - وما تزال - بشعة مقبنة إلى درجة
لأتوصف!.. وفضلاً عن هذا فإننى كنت أدرك أن ليس بوسعى أن
أكون زوجاً لزوجة تفضلها ، مادامت هى على قيد الحياة . ومع أنها
تكبرنى بخمس سنوات - فقد كذبت أسرتهما وأبوها حتى فيما يخص
بسها - إلا أنه من المحتمل أن تعيش قدر ما أعيش ، لأنها أوتيت من قوة
البنية بقدر مالديها من خيل . وهكذا وجدتنى فى السادسة والعشرين من
عمرى بلا أمل فى الحياة !



● ومضى يقول : « وحدث ذات ليلة أن استيقظت على صرخاتها ،
إذ كنا قد حبسناها بطبيعة الحال . مذ قطع الأطباء مجنونها .. وكانت
النائلة من ليالى جزر الهند الغربية النارية . كما يصفون الطقس الذى يسبق
العواصف هناك!.. . وإذ عز على أن أعود للعاس ، غادرت فراشى
وفتحت النافذة . ولكن الهواء كان أشبه بعيون كبريئة ، فلم أجد فيها
كان حولى ما ينمش النفس . وأقبل البعوض يطن فى عناد ويحوم فى
الحجرة . وتناهى إلى سمى هدير البحر مكتوماً ، وقد انعقدت السحب
القائمة ، وانحدر القمر إلى المغرب فى أطواء الأمواج ، فبدأ عريضاً محمراً
كقنبلة انطلقت من مدفع .. وراح برونو بنظرة دموية أخيرة للعالم الذى
كان يرتجف أمام العاصفة المقبلة!.. وأثر الجو والمنظر فى نفسى ، كما
امتثلت أذنأى بانثثام التى كانت المجنونة ما تزال تصرخ بها « والتي
كانت تخطئها من أن لآخر باسمى فى طمجة حاقدة بشعة - وفى تعبيرات
وفجة لاتقوه بها عاهرة!.. وكانت كل أنامة تنهى عن النوم وإن

فصلتني عنها جبرتان . إذ أن الجدران في بيوت الهند الغربية رقيقة ،
لا تحجب مثل تلك الصرخات الشبيهة ببكاء الذئب . وأخيراً قلت :

— إن هذه الحياة جحيم .. فهذا هواء جهنم ، وهذه هي الأصوات
التي تنبئ من جوها الذي لاقرار له ! .. إن من حق أن أعطش منها إذا
استطعت ، فإن آلام هذه الحال القاتلة خليقة بأن تخنق روحى .. إننى
لا أختشى الجحيم المقيم الذي يؤمن به المتعصبون « فليس من مصير أسوأ
من حياتي الراهنة .. لأخلص من هذه الحال ، ولأطلق روحى لبارئها ! » .
« قلت ذلك وأنا أجثو على ركبتى يموار حقيبة مفتوحة مليئة بمسدسات
محشوة بالرصاص . وكنت قد عزمت على الانتحار ، ولكن هذه الفكرة
لم تملككن سوى لحظة واحدة عاد بعدها صواي ليتغلب على رغبتى في
القضاء على نفسى .. وإذا ذلك هبت رياح منشفة من ناحية أوروبا ،
ثم انسابت من المحيط إلى الحديقة . وثار العاصفة وأرعدت وتوهجت »
ثم صفا الهواء ، وعندئذ رحمت خطرة وعولت على قرار .. فبينما كنت
أعشى تحت أشجار البرتقال في الحديقة المبللة ، وبين أشجار الرمان
والأناناس « والفجر من حولي بضئ الأقاليم الاستوائية ، فكرت يا جين
فأصغى لما ساورنى « لأن هذه هي الحكمة التي وجدت فيها عزاء في تلك
الساعة وهي التي هدتني الطريق الصحيح الذي يجب أن أسلكه .

« وكانت الرياح المنعشة القادمة من أوروبا ما تزال تهمس بين أوراق
الشجر التي انتعشت ، وكان المحيط الأطلسي يهدر في انطلاق بديع .
وما لبث قلبي الذي طال جفافه واحترقه أن تحرك لتلك الأنغام ، وامتلاً
بدم حي ، كما تاق كياني للتجديد وتعطش روحى إلى هواء نقي ، ورأيت

الأمل ينبعث ، وشعرت بأن تجدد القلب سهل ميسور ، فرحت — من
خيلة مزهرة في نهاية الحديقة — أطلع إلى البحر الذي كان يفوق السحاب
زرقاء . قرأت العالم القديم بعيداً وقد فتحت أمامي الأمان هكذا :

« حدثني الأمل قائلا : « اذهب وعش في أوروبا ، حيث لا يعرف
أحد أى اسم ملطخ بحمله ، وأى عبء قدر جثم على كاهلك . وفي وسعك
أن تأخذ المحبوبة معك إلى إنجلترا حيث تحبسها في (ثورنفيلد) وسط
رعاية واحتياطات شديدة ، ثم ارجل حيث شئت واتخذ لنفسك الحياة
التي تروق لك والعلاقات التي تحبها « لأن المرأة التي دنست اسمك ولطخت
شرفك وقضت على زهرة شبابك ليست زوجتك ، ولست أنت زوجها .
واطمئن إلى أنها تلقى من العناية ما يتطلبه حالها : وأنتك فعلت كل ما يتطلبه
منك الله والإنسانية . أما حقيقتها وعلاقتها بك فأمران يجب أن يطوي في
صبرات النسيان ، فلا ترو لأحد قصتهما .. ولتدعها في أمان وسكينة
وتستر على هوانها . ثم غادرها إلى الأبد ! » .

« وعلت بهذا الاقتراح بكل دقة . ولم يكن أبى وأخى قد أذاعا خبر
زواجي بين معارفهما « لأننى ألححت عليهما — في أول خطاب أرسلته
بعد زواجي — أن يكتبوا خبر هذه الرابطة بعد أن بدأت أستشعر التفزز
البالغ من عواقبها . وبعد أن رأيت على ضوء الأسرة التي صاهرتها وحالها
وطباعها أى مستقبل بغض كان ينسط أمامي . ولم يلبث نيا المرأة الخبولة
المتبذلة التي اختارها لي أبى زوجة أن تنأى إلي ، فأصبح وجهه يتضرع
بدماء الخجل لتنسأ إلي ، وأصبح أكثر منى رغبة في كتمان أمرها !
« نقلتها إذن إلى إنجلترا ، وما كان أقطع الرجل مع هذه الوحشة

في سفينة واحدة ..! وكما انتهجت نفسي عندما بلغت بها (نورفيلد) ، فوضعتها في الغرفة الخفية التي بالطابق الثالث ، والتي اتخذتها هذه (الحيوانة) الكاسرة عربناً لها عشر سنوات طوال ، تحت رعاية جريس بول وإشرافها .. فإن هذه المرأة والجراح الدكتور كارتر - الذي ضمد جراح ميسون - هما الوحيدان اللذان أطلعتهما على هذا السر الرهيب . ولعل مسز فيرفاكس قد استرابت في الأمر ، ولكنها لا تدري شيئاً عن الحقيقة . وعلى الرغم من أن جريس قامت بمهمتها في الحراسة على أكمل وجه ، إلا أنه حدث بسبب غلظة ارتكبتها - ويبدو ألا شفاء لها منها وإن نهضت عليها صفو مهنتها - أن ينظفها تراخت أكثر من مرة ، فإن المجنونة ماكرة بقادر ما هي شريرة مؤذية ، فلذلك لم يفتأ أن تتهز غفلة من حارسها ، فحصلت على ذلك الخنجر الذي طعنت به أخاها . كما سرقت المفتاح مرتين في أثناء الليل ، وحاولت أن تحرقني في فراشي في المرة الأولى ، ثم زارتك في المرة الثانية ، تلك الزيارة الرهيبة . وإني لأشكر للعناية الإلهية أن صانئك فاقصرت المجنونة على أن تصب جام غضبها على بخار زفافك .. إذ أنه لا بد قد أعاد إليها ذكريات غامضة عن أيام حرسها ، ولست أحتمل مجرد تصور ما كان يحتمل أن يحدث ..! إن الدم ليجمد في عروقي حين أفكر في ذلك الوحش الذي انتقض في هذا الصباح على عنقي ، وخيم بظلمته القرمزية القائمة على عرش حيي .

* * *

■ وعندما توقف سألته : « وماذا فعلت يا سيدي بعد أن جثت بها إلى إلى هنا ؟ إلى أين ذهبت ؟ » .

وعندما توقف سألته :

« وماذا فعلت يا سيدي بعد أن جثت بها إلى هنا ؟ إلى أين ذهبت ؟ »

-- ماذا فعلت يا جين ؟ تحولت إلى طيف .. إلى سراب ! وإلى أين ذهبت ؟ رحت أتجول كالأرواح الماثمة .. سعبت إلى أوروبا ورحلت أضرب في مناكيبها ، وأطوف ببلدانها ، وقد وضعت نصب عيني أن أبحث عن امرأة طيبة ذكية أستطيع أن أدمج بها حياً ، وأن تكون على نقیض تلك الشيطانة التي تركتها في نورفيلد .

-- ولكنك لم تكن تملك أن تتزوج ياسيدي .

-- كنت قد قررت ذلك وأقنعت نفسي بأن في وسعي أن أتزوج .. بل وبأن من الواجب أن أتزوج . ولم يكن في نيتي أن أئخذ أحداً كما خدعتك ، بل كنت أعتزم بسط قصتي في بساطة وعرض مقترحاتي في صراحة . وبدأ لي أن من المقول جيداً أن يعتبرني الناس حراً في أن أحب وأن أحفظ بالحب . ولم أشك في وجود امرأة تستطيع فهم قضيتي . فتقبلني زوجاً على الرغم من اللمعة التي تشغل عاتقي .

-- وبعد ياسيدي ؟

-- إن فضولك يا جين يعطيني على الابتسام . إذ تفتحين عينيك كطائر متلهف : وتند منك بين الحين والآخر حركة تليق عن قلق . وكأن المعلومات التي يزخر بها حديثي لاتوافيك بسرعة . فأنت تودين أن تستشفي قرارة قلبي .. ولكن قبل أن أسترسل في الحديث - خبريني : ما الذي تعنيه بعبارة «وبعد ياسيدي ؟» .. إنها عبارة صغيرة عادية منك - ولكنك طالما استدرجتني إلى حديث لا يبقى - ولا أدري السبب في ذلك .

-- إنما أعني : ماذا بعد ذلك ؟.. كيف سرت في طريقك . وماذا

نجم عن مثل هذا الحادث ؟

-- تماماً !.. وماذا ترغبين في معرفته الآن ؟

-- هل وجدت من أحببتها ، وهل طلبت إليها أن تزوجك ، وماذا قالت ؟

-- في وسعي أن أجيب عن : هل وجدت من أحببتها ، وهل طلبت إليها أن تزوجني .. أما مآلته فسيكون في سبيل القدر . فلقد قضيت عشر سنوات أعم هنا وهناك ، أعيش فترة في عاصمة ، ثم أغادرها إلى غيرها .. فأنا حيناً في سانت بطرسبرج ، وحيناً في باريس ، وأحياناً كثيرة في روما وناپولي والبندقية . وبفضل ما كنت مزوداً به من مال ، ومن جواز سفر يحمل اسماً قديماً ، فقد كان بوسعي أن أختار الوسط الذي آتس إليه ، إذ لم يكن أي وسط يغلق أبوابه في وجهي . فرحت أبحث عن زوجة غوزجية بين السيدات الإنجليزيات و « الكونتات » الفرنسيات و « السنيورات » الإيطاليات و « الجرايفينات » الألمانيات ، دون أن أعتدى إلى ضالتي . وكان يغيل لي أحياناً - لفترة عابرة - أنني لمت نظرة وسمعت صوتاً ورأيت قواماً يحقق حلمي ، ولكنني كنت لا ألبث أن أتوب إلى رشدي !.. لا تحصى أنني كنت أنشد الكمال سواء في العقل أو الجلال ، ولكنني كنت أتلقي فقط على من تلائمني على نقیض هذه الخلاسية . وعيناً حاولت ، إذ لم أجد بينهم من يمكن أن أسأله أن تزوجني لو أتيحت لي الحرية ، بعد كل ما عانيت من المخاطر والأهوال والخوف من الأوصار التي لاتتلاءم معي . وجعل اليأس مني شخصاً مستهتراً فحاولت الانغماس في المذلات :: وليس في الفسق ، فإني كنت أكرهه وما زلت أكرهه !.. وكانت كل منة في حالي متوجهة نحو من المرأة

التي كنت أهرب منها ، ومن ثم كنت أسارع إلى تجنبها ! .. ومع ذلك فإني لم أستطع العيش بمفردي فجريت معاشرة الخليلات ، ووقع اختياري أولاً على (سيلين فارنس) - وهذه إحدى الخطوات التي تجعل المرء يحتقر نفسه كلما تذكرها - وأنت تعرفين ماذا كانت وكيف انتهت صلتى بها ، وأعقبها اثنتان : إحداهما إيطالية تدعى (جياشيتا) ، والأخرى ألمانية تدعى (كلارا) . وكانت كل منهما آية في الجمال . ولكن ما الذي صار إليه بهما في عيني بعد بضعة أسابيع ؟ .. كانت (جياشيتا) امرأة عفيفة ، وضعية الأخلاق والمبادئ فستهما بعد ثلاثة أشهر ، بينما كانت (كلارا) أمينة وهادئة ، ولكنها كانت ثقيلة بلا عقل ولا عاطفة . كما أنها كانت لا تثير شعرة في جسدي ، فاغتبطت بأن أمنحها مبلغاً كبيراً يكفل لها العيش الرغد ، وهكذا تخلصت منها برفق ! ولكني أرى من سيئاتك يا جين أنك لاتأخذين عني الآن فكرة طيبة . فهل تمسينني وغداً مستهتراً لا يشعر ولا يتقيد بمبدأ ؟ !

.. إنني لا أحببك بمثل ما أحببتك في بعض الأحيان .. هذا هو الواقع يا سيدى . أفلا ترى أنه من الخطأ على الأقل أن نحيا بهذه الطريقة : نعاشر هذه العشيقة ثم تلك ؟ .. أراك تتحدث عن هذه الأمور ، كما لو كانت طبيعية !!

.. هكذا كنت أحياناً ولكني لم أحب هذه الطريقة . ولكنها كانت مجرد وسيلة هائلة للبقاء في الحياة ولا أحب أن أعود إليها بحال ، فإن استنجار محظية هو في عيني بمثابة استرقاق جارية ، كلاهما دنى بطبيعته

وبوضعه . وفي العيش مع الأذنياء تدهور والخطاط ، ولذلك فإني أكره التفكير في الفترة التي قضيتها مع سيلين وجياشيتا وكلارا !

● وشعرت بصدق هذه الكلمات . واستخلصت منها النهاية الأكيدة . فلو أنني نسيت نفسي والتعاليم التي غرست في أحمائي ، فقلدت خليفة هذه الفتيات النعسان . - مبررة فعلياً بأى مبرر : أو بأية حجة ، أو بنساقة لأى إغراء - لينظر إلى على نفس الضوء الذي يشع الآن في ذهنه على ذكرهن :: ولم أبح بهذا الاقتناع ، مكثفة بأن أشعر به ، فكتمته في فؤادي عسى أن يمكث فيه ليكون في عوفي في وقت الضيق !

— والآن يا جين ، لماذا لاتقولين : « وبعد ياسيدى ؟ » .. إنك تبدين مهمومة وأراك مازلت تستنكفين ما فعلت . ولكن دعينا نصل إلى ما أرى إليه : فقد تخلصت في يناير الماضي من كل خليلاتي . إذ تولاني تفكير فاس مريـر : نتيجة الحياة غير المحببة . الهائجة ، الموحشة ، التي تخزها القنوط والخيبة ، فإذا بي أشعر بكراهية بغضبة لكل الناس ، لاسمها النساء منهم « لأنني بدأت أعنتق الرأي القائل عن عقل وإخلاص : إن المرأة المحبة لاتعدو حلماً من الأحلام ! .. وكانت شؤني قد أرجعني إلى إنجلترا . وفيها كنت راكباً جوادي بعد ظهر يوم شديد البرد من أيام الشتاء . وقد أشرقت على (ثورنيلد هول) - هذا المكان البغيض الذي لم أكن أتوقع فيه سلاماً ولا هناءً - شاهدت في طريق (هاى) شبحاً صغيراً يجلس وحيداً في هدوء ، فواصلت السير دون اكتراث ماراً بشجر الصنم صاف القلبية في الاتجاه الآخر دون أن ألاحظ ما سيكون لهذا الشبح

بخطوات بطيئة . وكنت بين التينة والأخرى تطاير - كلما مررت بالنافذة - على الجليد الكثيف المقاطع وتصعين إلى تحييب الرياح . ثم تعودين إلى ذراع الدهليز وأنت سادرة في أحلامك ! وأغلب الظن أن أحلام الطفلة تلك لم تكن قاعمة ، لأن عينيك كانتا تشعان في سرور واعتباط ، وكانت انفعالاتك تتجلى على أساريرك ناعمة ، لا تدل على شعور بمرارة أو اكتئاب أو وسوسة .. كانت نظرتك تشي بأفكار الشباب الحلوة التي تخلف مع الروح على أجنحة الأمل إلى سماء المثل العالية . وأخيراً ، أفقت من أحلامك على صوت مسز فيرفاكس تنادى إحدى الخادمات . وبلا ابتسامة التي ابتسمها ياجانيت إذ ذاك لفحك .. كانت ابتسامة تزخر بالمعانى .. ابتسامة أربية تلقى ضوءاً على شroud أفكارك . وكأنها تقول : « إن أحلامي للبدنة للغاية ، ولكن يجب ألا أنسى أنها مجرد أوهام خيالية .. إن في رأسي جنة نظيرة الأزهار وسماء ودية نلون . ولكن عند قديم طريقتاً وعراً ، وحول تنجوع العواصف الموداء .. ثم أسرعرت تهبطين الدرج إلى الطابق السفلى . وطلبت إلى مسز فيرفاكس نوعاً من العمل لعله الحساب الأسبوعي لنفقات القصر نو شيء من هذا القبيل . فاستأنت أنا لاختفائك عن عيني !

وترقبت وفود المساء في صبر نافذ ، لأدعوك إلى حضرتي . فقد شككت في أن تكون لك طباع غير عادية ولا قبل لي بها . فأردت أن أسبر غورها وأتعرف عليها جيداً . ورأيتك تدخين الحنجرة بمظهر يجتمع بين الحياء واستغلال الشخصية ، كما أنك كنت في شباب محبة كما أنت الآن .. واستدر جنتك إلى الكلام ، فسرعان ما وجدتيك مشغولة بمناقضات

من شأن في حياتي ، ودون أن ينهي شيء في قرارة نفسي إلى أن المرأة التي سيكون لها الحكم الفاصل في حياتي ، وإلى أن الجنية التي ستودني إلى الخير أو إلى الشر ، كانت تنتظري متكررة في شخصية متواضعة . أجل ، لم أفطن إلى ذلك ، حتى عندما تقدمت جادة تعرض مساعدتها لإنهاضي من عثرتي عندما كيا في جوادى « مسرور » ..

كم كانت مخلوقة ناعمة أشبه بالأطفال .. لقد خيل لي أنها عصفور وثب عند قدمي وعرض علي أن يعملني على جناحه الصغير ! .. وكنت فظلاً ، ولكن هذه المخلوقة لم تنصرف بل وقفت أمامي في إلحاح عجيب . وجعلت تتطلع إلي وتحدثني فيما يشبه الأمر بأنني يجب علي أن أقبل العود من يدها بالذات .. وفعلاً عاونتي .. وما أن ضغظت على كفها الهزيلة حتى تسرب إلى جسدي إحساس جديد .. ثم طبت نفساً عندما علمت أن هذه (القزمية) لن تلبث أن تعود لي ، إنها على صلة بمنزلي .. وتولوا ذلك ما تركتها تخشى في سبيلها وتخفي وراء السياج القائم دون ندم غير عادى ! . ثم سمعتك تعودين إلى المنزل في تلك الليلة ياجين . وإن لم يخطر ببالك أنني كنت أفكر فيك أو أرتقب عودتك . وفي اليوم التالي ، لاحظت أنك خفية نحو نصف ساعة وأنت تلعبين مع أدبل في الدهليز ، إذ كان اليوم قر والجليد ينساقط ، فلم يكن في وسعكما الخروج .. ولقد شغلت أدبل اهتمامك برهة ، ومع ذلك فقد خيل لي أن أفكارك كانت مبهمة في مكان آخر . ولكنت كنت بالغة الصبر في معاملتك لأدبل يا صغيرتي جين ، فظلتك تحذيتها وتسليتها طويلاً .. حتى إذا غادرتك الطفلة في النهاية ، غرقت على الفور في لجة عميقة من أحلام اليقظة : ورحت تلرعين الدهليز

العجيبة : فقد كانت ثيابك وطابعك تخضع لقيود شديدة ، وكان مظهر
 ينم في أغلب الأحيان عن خضر وحياة ، ولكنه في مجموعه كان يدل على
 أنك مثقفة ، وغير مختلطة بالمجتمع .. كنت شديدة الخوف من التعرض
 بلا داع إلى المراء والأخطاء ، ولكنك — إذا ما وجه إليك حديث —
 كنت ترفعين إلى وجه محدثك عيناً حادة جريئة متألفة ، وظهر في كل
 لحظة من لحظاتك أنك ذات سلطان ينفذ إلى أعماق محدثك ، فإذا ضيق عليك
 الأسئلة جاءت ردودك حاضرة سديدة .. وسرعان ما ألفتني وأعتقد أنك
 شعرت بالتجاوب بينك وبين خدمتك المتجهم العبوس ياجين ، لأن
 ثورتك كانت تغبو لأقل تهدة من ناحيتي ، ولأنك لم تعجبي لما أنصف
 به من عبوس وفظاظة . ولم تخافي ولم تجزعي ولم تستأني لشراسي ، بل
 كنت ترمقيني وتبتسمين إلي من حين إلى آخر ببساطة تجل عن الوصف :
 ففقت بما رأيت ورضيت بما شاهدت وتمنيت المزيد ، ولكنني ظلت
 لمدة طويلة أحاملك معاملة ترمي إلى إقصائك ، فلم أسع للاختلاط بك
 إلا فيما ندر « لأنني أردت أن أطيل حبل القصة من جهة ، ولأنني
 خشيت من جهة أخرى أن تنبل الزهرة إذا كثرت من تداولها ، فتضيع
 رائحتها الساحرة .. وما كنت أعرف وقد ذاك أن ازدهارها ليس زائلاً ،
 وإنما هو إشراق دائم كتناق الجوهرة لا يتلاشى ولا ينمحي . هذا إلى
 أنني أردت أن أعرف ما إذا كنت تشدين رؤيتي إذا تجنبتك ، ولكنك
 لم تخفي بي ياجين وظلت تلازمين حجرتك « فإذا التقيت في عرضاً
 و اتفاقاً ، لم تظهر لي نحوي إلا ما يفرضه عليك واجب الاحترام :

وكانت أسرارك العادية في تلك الأيام ياجين تم عن التفكير العميق .

ولم تكن شاحبة . لأنك لم تكوني تعانين إذ ذاك همّاً ولا قنوطاً .. وكذلك
 لم تكن مثقلة ، إذ كانت آمالك قليلة بسيطة ولم تكن في حياتك غبطة
 حقيقية .. ولقد ساءلت نفسي عما جال بخاطرك عني ، وما إذا كنت
 قد فكرت لحظة في .. ولمسكي أتبين ذلك ظلت أراقبك ، فإذا نظرتك
 شيء من الفرح ، وفي تصرفاتك ما ينم عن سراحة ، وفي حديثك — إذا
 تكلمت — ما يكشف عن قلب ودود . وما كان حزنك سوى ضجر
 تولد عن حجرة الدراسة الساكنة ، وعن الحياة الرتيبة « الجامدة ! :
 وتركت نفسي تنعم بمعاملتك بالحنى . وسرعان ما تحركت عواطفك
 بهذه الشفقة ولابت أساريرك ونبراتك .. وأصبحت أحب سماع أصي
 تنطق به شفتاك بلهجة تشف عن الامتنان والسعادة ، كما اعتدت أن
 أنحين الفرص لثغراتك في تلك الأيام ياجين . ورأيتك في حيرة . وشاهدت
 قلقاً في نظراتك ، إذ لم تكوني تدريين هل سأمثل معك دور السيد فأعاملك
 بشدة وحزم ، أو أنني سأأخذ دور الصديق فأبدى لك الود والعطف ..
 ولكنني كنت قد أصبحت متيمناً في هوالك إلى درجة حالت دون أن أقوم
 بإزاءك بالدور الأول ، فكنت إذا مددت إليك يدي في ود : تهلب وجهك
 الصغير وتوردت أساريرك المشنقة حتى أصبحت أجد عناء كثيراً في
 منع نفسي من أن أضملك إلى صدري .

■ فقاطعه وأنا أكفكف دموعي خلسة : « لا تعذبني مرة أخرى عن
 تلك الأيام ياسيدي ! » .. فلقد كانت كتابته تعذبني ، لأنني كنت قد
 عرفت ما يجب أن أفعله .. وأن أفعله بهر عزمي .. فقد كانت تلك

الذكريات والاعتراقات العاطفية تزيد في صعوبة مهنتي . وأجابني قائلاً : « كلا يا جين .. لا ضرورة تدعو إلى التحدث عن الماضي إذا كان الحاضر أكثر منه أمناً ، والمستقبل أكثر إشراقاً وتألقاً ! » .

وارتجفت لهذا التأكيد الذي يدل على أنه رجل ملووب القلب . ولكنه استرسل يقول : « هأنذا قد رأيت قضيتي .. أليس كذلك ؟ فبعد شباب ورجولة انقضيا في يؤس لا يوصف ووحدة موحشة . عثرت على ضالتي المنشودة ، والتفتيت بن استطيع أن أحبها حباً صادقاً .. عثرت عليك أنت .. أنت عاطفتي وذاتي الفضلى وملاكي الكريم ! .. وإلى لم تربط بك برابط قوى ، وأراك فتاة طيبة موهوبة مليحة . وأحل لك في قلبي حباً عانياً يهفو إليك ويتذنبك إلى سويداتي وإلى منبع حياتي ، ويدفع وجودي إلى أن يلف حولك ، وإلى أن يشتعل في حب صاف مشبوب بصبرك وإيائي في كيان واحد ! .. كان شعوري هذا ومعرفتي هذه سر إصراري على أن أزوجك . وإذا قلت لك الآن أن لي زوجة فإن هذا القول يعد بترية فارغة . لأنت تعلمين أنها شيطانة مريدة ! .. لقد أخطأت فعلاً في إخفاء هذه الحقيقة عنك ، وعلمت أنني كنت أتحشى ما أعهدده من عنساد في أخلاقك .. إنه جين مفي بلا ريب . فقد كان خليقاً لي أن أبسط لك قضيتي كما بسطتها الآن . ثم أتوسل إلى نفسك النبيلة وإلى كرم أخلاقك أولاً ، ثم أكشف لك بصراحة عن تاريخ حياتي المعذبة وأصف لك مدى جوعى وتعطشى إلى حياة أسى وأفضل .. حتى إذا ما أبديت لك عزمي الذي لا يثنى على أن أحب وأخلص حباً أبدياً

الحب والإخلاص : كان لي أن أسألك أن تبادليني العهد على الوفاء .. فهلاً عاهدتني يا جين ؟ » .

ورأى السكون بيننا لحظة قال بعدها : « لماذا تسكتين يا جين ؟ » . وكنت أعاني غذاءاً مضنياً ، وكأنما راحت تعصر أحشائي قبضة من حديد ملتهب .. كانت لحظة عصبية زحزحت بالصراع والظلام والاحتراق ! .. ما كان في الدنيا إنسان يهفو إلى أن يلقي من الحب ما كنت ألقى .. وكنت أعبد هذا الذي يعني عبادة مطلقة ، ولكن واجبي كان يعم على أن أنبذ هذا الحب وهذا المعبود ! .. كان كل واجبي ينحصر في كلمة واحدة ، بغية .. الرحيل ! » .

وعاد يسألني : « أنضمين يا جين ما أريده منك ؟ .. لا أريد سوى هذا الوعد : سأكون لك يا ماستر رومستر ! » .

.. هل إنني لن أكون لك يا ماستر رومستر !

ورأى سكون مطبق آخر ، قبل أن يستأنف السيد حديثه بصوت رقيق انفطر له قلبي ، وأحالتني كالخمر البارد لفرط الإشفاق والهم . فقد بدا كصوت أسد يلهث وهو يقول : « أتعين يا جين أن تتخذى لك في هذا العالم طريقاً غير طريقي ؟ » .

— نعم أعني ذلك .

فأعنتني على وضعي إلى صدره ، ثم عاد يقول : « وهل مازلت نعتينه الآن ؟ » .

— نعم أعنيه .

فطرح قبلة رقيقة على وجنتي وجنتي ثم غاب : « والآن .. » .

فبادرت إلى انتزاع نفسي تماماً من أحضانه وقلت : « نعم أعنيه ! »
 — أواه يا جيمى .. هذه قسوة ! .. هذا شر ! هل من الشر أن تحبيني ؟
 — بلى من الشر أن أطيعك :

فارتفع حاجباه عن نظرات شرسة توجهت على أسارىره . ثم نهض من مكانه . ولكنه لم يخلد بيننا اتكأت بيدي على ظهري أحد المقاعد خشبة السقوط ، وقد ارتجف جسمي واستبدني الخوف . ولكنني ظلمت مصرة على ما اعتزمت ، فقال : « لحظة واحدة يا جيمى .. ألقى نظرة واحدة على حياتي البائسة قبل أن تذهبي . إنك تتزعجن معك كل سعادتي . فإذا بقيت لي بعدها ؟ .. ليس لي إلا الزوجة المحبونة بالطابق العلوي كأنها إحدى الجثث المدفونة في فناء الكنيسة . فإذا أفعل يا جيمى ؟ وأين أنشد الرقيق ؟ وأي أمل يبقى لي في الحياة ؟ »

— افعل مثلي : ثق في الله ، وفي نفسك . وآمن بالسما . وتمسك بالأمل في أن نلتقي فيها !
 — إذن قلن ترضخني ؟
 .. كلا .

فقال بصوت مرتفع : « إذن فأنت تقضين عليّ بأن أعيش شقياً وأن أموت ملعوناً ؟ »
 — بلى أنصحك بأن تعيش بلا خطيئة . وأنتمنى لك أن تموت في هدوء وسلام !

— إذن فأنت تتزعجن مني الحب والبراءة ، وتردفتني إلى الشهوات

والزينة ؟

— أنا لا أحملك على مثل هذه الحياة يا ماستر روشستر ، اللهم إلا إذا كنت أرضيها لنفسى .. إنما ولدنا لكي نناضل ونحتمل .. هذا مصيرك ومصيرى ، وسوف تفساني قبل أن أنساك !

— إنك بهذه الكلمات تصميقتي بالكذب والرياء ، وتستهينين بشرفي . لقد صارحتك بأنني لن أجدي رفيقاً غيرك ، ولكنك تواجهيني بأنني لن ألبث أن أتغير فأناك .. ألا ما أقسى حُكلك ، وما أبعد آراءك عن الحقيقة ! .. هل من الخير أن تلقى مخلوقاً في غياب اليأس بدلا من أن تتجاوزى عن قانون بشري لن يفسير أينما إذا نقضه ؟ .. إنك بلا أقارب أو معارف تخشين غضبيهم إذا ما عشت معي !

* * *

■ كان هذا صيحاً .. وكان ضميري وعقلي قد تألبا ضدي — أثناء الحديث — واتهاماني بأنني أجرم في حقّه إذ أقاومه . وصاح شعوري عالياً بدورى : « أواه ! .. اخضعي ! .. فكري في شقائه .. فكري في الخطر الذي يهدده . فكري في حاله عندما تغادرينه وحيداً .. تذكرى اندفاعه وتهوره في حبك وفكري فيما قد يجرحه عليه اليأس .. هيا خفي عنه وانقذيه وأحييه .. أخبريه بأنك تحبينه وأنك ستكونين له .. من ذا الذي يعنى بك في العالم غيره » ومن الذي يضيره ماتعلمين ؟ :

ورغم ذلك ، فقد ظل الجواب الذي لا يغلب ولا يقهر : « سأعنى بنفسى .. وكلما بقيت في عزلة وبلا صديق أو عائل » زدت احتراما لنفسى وتمسكاً بالشرائع التي استباحها الله وأقرها البشر : نعم ، سأتمسك بالمبادئ التي اعتنقتها وأنا في سلامتي العقلية والاعيانولة بانتعاشي

كما أنا الآن ، فإن قيمة الشرائع والمبادئ ليست في الأوقات التي تخفى من الإغراء .. وإنما هي في مثل هذه اللحظات التي يتم فيها الجسم والروح على صرامة تلك المبادئ والشرائع . فهي صارمة حقاً ، ولكنها مستظل مصونة حصينة . وإذا كان في وسعي أن انتهكها لمصلحتي الخاصة ، فأية قيمة لها إذن ؟ إن لها قيمتها كما كنت أعتقد دائماً . فإذا كنت قد كففت عن الاعتقاد الآن ، فما ذلك إلا لأنني مجنونة .. مجنونة وأى جنون بسبب النار التي تسرى في شراييني .. وبسبب نبضات قلبي التي لم أعد أقوى على ملاحظتها وإحصائها .. لم يبق لي الآن سوى الوقوف بجانب الآراء القديمة والإرادة السابقة ، وسوف أؤسّر إليها لا أرى ولا أتحرك ؟ » .

وقد فعلت ذلك ! .. ورأى مستر روشستر مما ارتسم على أسارير وجهي أنني اعترفت بذلك .. وكان غضبه قد بلغ الذروة فعوّل على أن يهدئ من سورهتهما حدث : ولذلك عبر الحجرة وأمسك بذراعي ثم أمسك بخصرى وراح يصليتي بنظراته الملتببة ، فشعرت في تلك اللحظة بعجزى الجماني . ولكن بقيت محتفظة بقواي العقلية . وأحسست بأنني لذلك في مأمن تام وسلامة كاملة .. ومن حسن الحظ أن العين تترجم ما يدور بالنفس ترجمة أمينة دون أن تدرى ، وكنت قد رفعت عيني إلى عينه . وفيما كنت أتفرس في وجهه الثائر ، نادت عن صدرى زفرة — برغمى — إذ كان يشد بقوة على خصرى . ووجدت قواي تخور فقال وهو يصرف على أسنانه : « ما رأيت في حياتي قط مخلوقة كهذه .. غاية في الضعف ، وغاية في الصلابة ! .. إنها لتبدو في بدى كتفصبة من البوص ! .. » وهزني بقوة وهو يقول : « إنني أكاد ألويها بين أصبعي

ولها يدي . ولكن أى نفع أجنيتها إذا أنا لويتها أو حطمتها أو سحقتها ؟ .. انظر إلى هذه العين ! .. تأمل النظرة العنيدة : النافرة ، المنطلقة : إنها تتحداني بشيء يفوق الشجاعة .. بشعور بالنصر المؤزر ! .. كأي هذا الجسد المشقوق تقصص روحها .. ولكني لن أستطيع — مهما أقفل بهذا التقصص — أن أصل إلى هذه المخلوقة المتوحشة الجميلة ! .. لو أنني مزقت أو حشمت هذا النفس الضئيل . فلن يؤدي هياجي إلا إلى انطلاق الطائر الأسير .. إنني قد أفتح هذا المأوى ، ولكن ساكنته ستمر إلى السماء قبل أن تصل إليها يداي . إنك أنت أيتها الروح بما أوتيت من قوة وغضبة وطهارة . هي كل ما أشتد ، فلا حاجة لي بهيكلك المش .. إن في وسعك أن تأتيني طواعية وأن تحطى على صدرى كعصفور ، أما إذا أمسكت بك رغم أنفك فسوف تروغين من قبضتي مثل الأثير ، وسوف تختفين قبل أن أتبل من عبرك ؟ أو اه .. تعالى يا جين .. تعالى ! »

ثم أطلقتني من قبضته وراح يتألمني بنظرة أشد إيلاماً للنفس من قبضته ولكني وجدت من الحق والبقاء أن أسلم الآن بعد أن جررت وقاومت ثورته في عنفوانها . فتراجعت إلى الباب ولكنه صاح : « أذاهبة أنت يا جين ؟ » .

— أجل . أنا ذاهبة ياسيدي .

— وهل تركيني ؟

.. نعم .

— ألا تعودين ؟ .. هلا تكونين لي الأنيسة المنقلة ؟ .. ألا قيمة

لديك لحبي العميق وحزني الشديد وضراعتي الحائرة ؟

وكان في صوته شجن مكبوت ، ولذلك كان شاقاً على أن أقول في عزم وإصرار : « إنني ذاهبة .. فهتف : « جين ! » .. قلت : « مستر روشستر ! » .

— اهذي إذن .. لقد رضيت ، ولكن تذكرى أنك تركيتني هنا لأعاني آلاماً مبرحة . اصعدى إلى غرفتك وفكرى في كل ما قلته لك ، ثم ألقى نظرة على شجوني وفكرى في !

واستدار وانكفاً فوق الأريكة « ثم غغم بين شفتي في ألم : « أواه يا جين ! يا أمل وحبي وحياتي ! » . ونهه باكياً .. وكنت قد بلغت الباب إذ ذاك ، ولكنني عدت إليها القارئ .. عدت بالعزم الذي انسحبت به ، فركعت بيجواره ، وحولت وجهه عن الوسادة نحو « وقبلت وجهه ، ومسحت بيدي على شعره ، ثم قلت : « باركك الله ياسيدي العزيز ، وحفظك من كل شر ، وعصمتك من الخطأ وسدد خطاك ، ومنحك السلوان ، وجزاك خير الجزاء على ما أسلفت علي من عطف وحنان ! » .. فأجابني : « إن حب جين الصغيرة هو خير ما أطمع فيه من جزاء : وبدونه يتحطم قلبي . إلا أن جين ستمحنني حباً .. نعم ستمحنني في نيل وكرم ! » .. ثم اندفعت الدماء حارة إلى وجنتي والتهبت عيناه فوثب واقفاً على قدميه ، ومد ذراعيه ، ولكنني أفلتت من بينهما وغادرت الحجر على الفور ، بينما كان قلبي يصيح وأنا أتركه : « وداعاً ! » .. وأضاف « اليأس » إلى ذلك قوله : « وداعاً .. إلى الأبد ! » .

● لم يطف بخاطري في تلك الليلة أنني بحاجة إلى النوم ، ولكنني لم أكد

أستلقي على فراشي حتى أخذتني سمة من النوم ، فانتقلت إلى الرؤيا إلى أيام طفولتي ، وحلمت بأنني واقدة بالغرفة الحمراء في (جينسميد) في ليلة حالكة الظلام ، وقد استبدت بعقلي مخاوف عجيبة . وانبعث في المنام ضوء الصباح الذي لاح لي عندما كنت حبيسة تلك الغرفة — منذ أمد بعيد — فأذكي خوفي وجعلني أفتقد الرشد .. تراءى لي ذلك الضوء وهو يتزلق على الجدران ، ويظل يرتعش ويهتز حتى تركز على السقف المغمم . وتبعته بصري فإذا بي أرى السقف يتحول إلى سحب عالية داكنة وقد بدا فيها ذلك النور أشبه بالضياء الذي يخلعه القمر على السحب عندما يهيم بنمزيق شملها .. ورحلت أقرب ظهور القمر .. رحلت أترقبه في لفحة عجيبة وكأن مصيري سينطبع على قرصه . وسرعان ما برز بمثل ما لم يبرز قمر من قبل من بين السحب : فقد شقت يد طيات الغيوم السوداء وأزاحتها بعيداً ، وبدلاً من أن يظهر القمر ، بدا شبح آدمي أبيض يلتصق في اللون اللازوردى ، فأطل على الأرض بطلعة بهية ، وراح يحدق في ويطيل التحديق ، ثم خاطب روجي بصوت جد بعيد ، ولكنه مع ذلك كان جد قريب : فكأنما كان يهمس في قلبي وهو يقول : « اهربي يا ابنتي من الإغراء ! » .. فهتفت : « سأفعل يا أماء ! » .

وكررت هذه الإجابة وأنا أفيق من حلمي الذي كان أشبه باستغرافة روحية . وكان الليل لايزال مرخياً أستاره ، ولكن ليالي شهر يولية قصيرة لا تكاد تنتصف حتى يدهمها الفجر : فقلت لنفسى : « ليس الوقت مبكراً ، فلا نهض لأشرع في المهمة التي يجب أن أؤديها ! » . ومن ثم نهضت ، ولم أكن قد خلعت من ثيابي غير حذائي : وكان من

قد رحلت .. وسوف يبحث عني سدى ، ثم يشعر بأثني هجرته وينذرت حبه ، فيتعذب ويتملكه اليأس .. فكرت في هذا كله أيضاً ، ثم امتدت يدي إلى قفل باب السلم ففتحته ، ثم تسللت .. وهبطت الدرج في اكتئاب . وكنت أدرك ما ينبغي عمله ، ومن ثم رحت أنصرف بطريقة آلية ، فبحثت عن مفتاح الباب الجانبي في المطبخ ، كما بحثت عن قارورة زيت وريشة فذهنت المفتاح والقفل بالزيت ، وتناولت بعض الماء واتخذت خشية أن يطول بي المسير وتبدأ غلور القوى الذي أصبح ينتابني كثيراً في الفترة الأخيرة . ثم فتحت الباب وخرجت وأغلقت خلفي . ولاحظت إذ ذاك تباشير الفجر معتمة في الفضاء . وكانت الأبواب الخارجية مغلقة بانفراج ، ولكن كوة في أحدها كانت موصدة بالمتزلاج فقط ، فتسللت خلالها ، ثم أغلقتها خلفي هي الأخرى .. وغدوت خارج (ثورنفلد) !

وكان ثمة طريق .. علي بعد ميل من الحقول - يمتد في الاتجاه المضاد لميلكوت .. طريق لم أكن قد سلكته من قبل ، ولكنني شاهدته مراراً دون أن أعرف إلى أين كان يقضي ، فبسمت شطره ، وانطلقت فيه ، لا أنظر إلى ما خلفي ولا إلى ما أمامي ، ولا أتجه بخراطري نحو الماضي ولا نحو المستقبل : فقد كان الأول صفحة سماوية البهاء ولكنها مخوفة بالأمسى . يكنى أن أطالع سطرأ واحداً من سطورها لتذوب شجاعتي وتتهار عزيمتي .. ولأن الثاني كان صفحة مروعة أشبه بالدنيا التي أغرقها الظرفان وأزانا من الوجود !

وسرت في محاذاة الحقول وأسوار المزارع والطرق الضيقة إلى ما بعد طلوع الشمس . وأغلب الظن أنه كان صباحاً جليلاً من أيام الصيف

اليسير على أن أخرج من أدراسي بعض الثياب . ورصيتي وخاتمي : وغدا كنت أجمع هذه الأشياء عثرت على عقد من اللؤلؤ كان مسر روشترو قد أكرهني على قبوله منذ بضعة أيام ، فتركته لأنه لم يكن ملكاً لي وإن كان ملكاً للعروس التي ذابت وتبددت في الهواء ! .. أما أمتعتي الأخرى فقد حزمها ، ووضعت كيس نقود في جيبي - ولم يكن به سوى عشرين شلناً هي كل ما كنت أملك - ثم ارتديت قلنسوتي القش وثبتت شالي بالدبابيس إلى شعري ، وحملت حزمة الأمتعة و (شيشي) الذي لم ألبسه من قبل ، ثم تسلك من الحجر .

وهمست وأنا أمر بباب غرفة مدبرة القصر : « وداعاً يا سرفاكس الرحيمة ! .. وداعاً يا حبيبتي أدبل ! .. واكتفيت بالتطلع إلى حجرة الطائفة دون أن أجسر على الدخول لأقبل أدبل . وكان بودي أن أمضي في طريق دون توقف - عندما ررت بحجرة مسر روشترو - ولكن قلبي كف عن النبض لحظة عندما بلغت عتبة بابها ، كما سمعت قدماي في مكانيهما .. لم يكن النوم يعمر تلك الغرفة ، إذ كان ساكنها يلزمها في قلق وانفعال . من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر . وهو يتنهد بين آونة وأخرى . وأرهفت السمع .. كانت هذه الغرفة خليقة بأن تتنهد جنتي لفترة من الزمن إذا شئت .. كل ما كان عليّ ، هو أن ألجها وأقول : « لسوف أحبك يا مسر روشترو ، وسوف أحياء معك حتى المات ! » ثم يفيض علي شفتي الفرح : .. هكذا خيل إلي !

لقد كان هذا السيد الرحيم - الذي لم يقو على النوم - ينتظر مطلع النهار بصبر نافذ ، كمن يرسل في طلبه إذا ما أقبل الصباح . ولكني سأكون

وكنت أدرك أن الندى لن يلبث أن يبلل حذاءي اللذين لبستهما عندما غادرت القصر .. ولم أنطلق إلى الشمس المشرقة أو إلى الساء الباسمة أو إلى الطبيعة المستيقظة ، فلن من يقاد إلى المتصلة عبر منظر جميل لا يفكر في الزهور التي تبسم في طريقه ، وإنما يتركز تفكيره في النطع وحافة البلطة وتزيق العظام والشرابين وفي القبر الذي يستقبله في النهاية ! .. وكذلك كنت أنا الأخرى أفكر في هروبي البغيض ، وفيما كنت مقبلة عليه من تشرد .. كما فكرت فيه .. في مستر روشتر ! .. وتصورته في غرفته يرقب مطلق الشمس ويعلل النفس بالأمال ، متوقفاً أن أعود إليه لأخبره بأنني سوف أحيا معه وأكون له .. آه ، كم كنت أثلهف على أن أكون له ، وأتفرق على أن أعود إليه ! .. إن الفرصة لم تكن قد ضاعت بعد وكان في وسعي أن أكفيه مرارة الحزن والووعة ! .. وإذ كنت واثقة من أن أحداً لم يفتن إلى قرارى ، فقد كان من الميسور أن أرتد لأكون له الأنيسة ، ولا أكون المرأة التي يفخر بها ، ولا نقذه من البؤس والنشواء ، وربما من الهلاك !

وكان هجره لنفسه أنكى من هجرى له . فكيف أغرقتى نفسى بذلك الذى إذا فكرت فيه شعرت بهمهم شائك فى صبرى يمزق قلبى كلما حاولت انتزاعه ، ويزيدنى ضعفاً ومرصاً كلما ساقته الذكريات إلى أبعد من ذلك .. وكانت الطيور قد بدأت تغرد على الأيكات والأجساد ، فخيّل لى أنها مخلصه ، كل ألف لأليفه ، بل إنها رموز الحب ، أما أنا فماذا كنت ؟ .. لقد أبغضت نفسى وسط الآلام التى كانت تتجتاح قلبى ، والمبادئ والمثل التى كنت أجاهد من أجلها :: لم يكن ثمة

عزاء لى بعد أن جرححت سدى وآذنته ثم هجرته .. بل لى غدوت بغضه فى عبنى نفسى ! ولكنى لم أكن أقوى على التكوّص والرجوع إلى الخلف خطوة واحدة ، بل كان لابد من أن أسير قدماً فى الطريق الذى رسمه لى الله .. أما إرادتى وضميرى فلن الحزن الدافق داس الأول وكبت الثانى . ثم أخذت دموى تنهر بشدة وأنا أسير فى الطريق الموحش بسرعة مطردة كمن اختل عقابها أو مسها الذهول « لى أن غشيتى ضعف لم يلبث أن امتد إلى أطرافى واستبد بى فسقطت .. وظللت مستلقية على الأرض بضع دقائق وأنا أضغط وجهى فى الحشائش المبتلة . وبى خشية أو رغبة فى الموت فى ذلك المكان . ولكنى لم ألبث أن نهضت وزحفت على يدى وركبتى ، ثم استويت على قدسى وقد عزمت فى إصرار أن أصل إلى الطريق الذى كنت أجتاز الحقول سعياً إليه .

وعندما بلغت ، اضطررت إلى الجلوس لأستريح تحت سياج نباتى . على أننى لم ألبث أن سمعت وقع عجالات . ثم رأيت عربة قادمة ، فوقفت ورفعت يدى فتوقفت العربة عن السير . وسألت لى أين هى ذاهبة ، فذكر لى الحوذى مكاناً بعيداً حدثت أن ليس لمستر روشتر علاقة به . وإذ سألت الحوذى عن الأجر الذى يريده ليقبلى لى هناك ، قال إنه ثلاثون شلناً .. فقلت لى لى لم أكن أملك سوى عشرين شلناً ، وإذ ذاك قال إنه يكفى بها ، وسمح لى بدخول العربة التى كانت خطاية . ثم أغلق بابها ، ومضى فى طريقه .

أيها القارئ ، ادع الله أن ينجيك ما كتبت أشعر به . وأن لا تنزف عينك قط ما ذرفت عيناى من دموع ملوثة . لأدعيه ينجى القلب ،

وَأَنْ لَّنَلْتَجَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي صَلَوَاتِكَ وَأَنْتَ تَعَالَى مَا كُنْتُ أَعَانِي إِذْ ذَاكَ مِنْ بَأْسٍ، وَأَنْ لَا تَكُونَ مِثْلَ أَدَاةِ نَقْمَةٍ وَشَرِّ لِمَنْ تَحِبُّ بِكُلِّ رَوْحِكَ!.

الفصل الثامن والعشرون

■ القضي يومان - وحلت أُمسية من أُمسيات الصيف .. وكان الخوذي قد أُنزلني في مكان يدعى (هويتكروس) . لأنه لم يشأ أن يقطن بالمبلغ الذي دفعته إلى أبعد من ذلك . ولم أكن أمتلك من دنياي شيئاً واحداً فوق ذلك المبلغ .. وكانت العربية قد ابتعدت ميلاً وخلقتني وحيدة ، عندما اكتشفت أنني نسيت أن أتناول من جيب العربية الحزمة التي أودعتها كل حاجاتي . والتي كنت قد وضعتها في الجيب بغية الاطمئنان على سلامتها ! .. لقد بقيت حيث أودعتها . وكان لابد من أن تبقى لأصبح معدمة مجردة من كل شيء !

وليس (هويتكروس) بمدينة - بل ولا هي بقرية ، وإنما هي مجرد عمود حجري أقيم عند ملتقى أربع طرق . وقد طلى باللون الأبيض لئيدو بوضوح على بعد ، وفي الظلام ، على ما اعتقد ! .. وتعتمد من قبة العمود أربع أذرع تشير إلى أقرب المواقع على الطرق الأربع .. وكانت أقرب بلدة تشير إليها - كما فهمت مما كتب عليها - تبعد نحو اثني عشرة أميال ، في حين أن أبعد ما كانت على بعد يزيد على عشرين ميلاً . ومن أسماء هذه المدن - وكانت مشهورة - عرفت المقاطعة التي هيطلتها . وكانت من مقاطعات الشمال الأوسط ، تسود أرضها المستنقعات ، ويقوم على حافتيها جبل كان من السهل أن أراه .. وكانت المستنقعات اللواسعة تمتد من خلفي وعلى جانبي :: أما فيها أمامي ، فقد كان ثمة واد منخفض ،

بدت خلفه سلسلة من الجبال ! .. ولابد أن سكان الإقليم كانوا قلة ، فلم يلح لي أي عابر في الطرق التي كانت تمتد - شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً - يضاء ، واسعة ، مقفرة ، وقد شقت جيداً وسط المستنقعات . ونمت الأعشاب وأعواد القاب كثيفة . طويلة ، على جانبيها .

ومع ذلك فقد كان من المحتمل أن تسوق المصادفة عابر سبيل . ولم تكن لي رغبة في أن ترائي عين ، خشية أن يعجب الأعراب بما حدا بي إلى التسكع هكذا عند دليل الطرقات بلا هدف أو غرض . وقد يئسني أحد فلا أستطيع أن أجيب إلا بالاضطراب يثير الريب والشكوك ، بعد أن أصبحت ولا شيء . يربطني بالجميع الإنساني .. إذ لم يعد ثمة سحر أو رجا يدفعني إلى حيث يقف البشر . وما كان من المحتمل أن تساور أي امرئ إرائي فكرة كريمة أو شعور يبعثه برجولي خيراً . وإذ لم يكن لي من أهل سوى الطبيعة - أم الكون - فقد عولت على أن أجد إلى صدرها أنشد فوقه الراحة !

ورحت أضرب في تلك الأبحاث (أراضي المستنقعات) ثم بحثت شطر حفرة رأيتها تشق جانباً دكاناً . ومضيت أخوض حتى ركبتي في حشائشها الخالكة ، وأدور مع منرجاتها . حتى عثرت في ركن خفي على صخرة شائخة من الجرانيت يعلوها طحلب أسود ، فجلست تحفها ومن حولي أجسام عالية . بينما كانت الصخرة تحمي رأسي . والسماء من فوقها .. وانقضت فترة قبل أن أشعر بالهدوء حتى في ذلك المكان . فقد كان يساورني خوف غامض من أن تكون لي جوارى دابة برية ، أو أن يكتشف وجودي صياد .. وكنت أراهم رأسي كليل هبت الريح ،

إذ أخل هوبها ثوراً مندفعاً نحوى ، وكلما صاح طائر توحته رجلاً ، حتى إذا أيقنت أن عناويني لا أساس لها ، وحتى إذا هدأ جأشي بفضل السكون العميق الذي ساد عندما أخذ الليل في المهبوط ، اطمأنت نفسي . وكنت إلى تلك اللحظة لا أفكر في شيء . وإنما اكتفيت بأن أصغى وأرقب وانخوف يساورني . أما عندما اطمأنت فقد عاودتني القدرة على التفكير والتأمل فتساءلت : « ما العمل ؟ وإلى أين أذهب ؟ » .

أواه ! .. ما كان أقصى هذين السؤالين ، في وقت لم أكن أستطيع فيه أن أعمل شيئاً أو أذهب إلى مكان ما .. في وقت كان لابد لي فيه من أن أقطع مسافة طويلة على قدمي الكليلين المرتعشتين قبل أن أصل إلى مكان أهل بالبشر .. في وقت كان يجب أن أضرع فيه وألحف في طلب الإحسان حتى أحظى بماؤى .. لم يكن ثمة شك في أنني سأحتاج إلى العجاجة والإلحاح لاكتساب عطف المستريين قبل أن نجد قصتي من يستمع إليها . وقبل أن تلقى حاجتي من يخف لقضاءها !



■ وتحسست الحشائش فوجدتها جافة ولكنها دافئة بحرارة الصيف : وتطلعت إلى السماء فوجدتها صافية الأديم وقد اتسع نجم جان فوق حافة الهوة ، وتساقط الندى في نومة لطيفة .. ولم تكن هناك نسمة واحدة : فخيل لي أن الطبيعة رحيمة طيبة القلب ، وحسبها قد أشفقت على : لأنها تحبني وتهواني — أنا المتبوذة المشردة التي لا تتوقع من الإنسان سوى الشك والنبذ والإهانة — فتعلقت بالطبيعة تعلق الطفلة بأُمها الرعوم ، وعولت على أن أنزل عليها ضيفة في هذه الليلة على الأقل « كما لو كنت

ابتتها — فإن الأم خليفة بأن ترحب بابتها — ومن ثم فلن تطالبني بأجر الإيواء : ولم يكن قد تبقى معي سوى كسرة من الخبز .. فضلة من رغيف كنت قد اشتريته من مدينة مرت بها في الظهر بأخر بنس كان معي ، ولكنني شاهدت ثمراً ناشجاً كالكرز لا يلتصع هنا وهناك خلال الأجسام كأنه حبات المسابح ، فجمعت منه حفنة أكلتها بالخبز ، وبذلك خفت حدة جوعى وإن لم يتم إشباعه . ثم أدبت صلاة المساء « وأخذت أبحث عن مكان آخر أرقده فيه .. وكانت الأعشاب كثيفة بجانب الصخرة قدفت فيها قدمي عندما رقدت ، وحال ارتفاع عيدانها على الجانبين دون أن يغزوني هواء الليل ، ثم ألقيت شاملي مزدوجاً على جسمي واتخذت منه غطاء « كما جمعت بعض العشب فتوسدته . وهكذا رقدت دون أن أشعر في البداية — على الأقل — بأي برد !

وكان من الممكن أن تكون راحتي تامة ناعمة ، لولا أن الآلام كانت تهرأ قلبي الدامى الذي ظل ينتفض إشفافاً على سيدي وعلى ما أصابه من مصير ، وينتحب من أجله في رحمة ورواء ، ويتلهف عليه مثل طائر مكسور الجناح يحاول عثاً أن يتهدى إلى عشه . وإذا مضتني هذه الأفكار المضنية « جثوت على ركبتي وقد بلغ الليل عنفوانه وارتفعت الكواكب في كبد السماء .. كانت الليلة تمتاز بسكون ساج : صاف ، لا يخالج معه نخوف ! .. ونحن نعلم أن الله في كل مكان ، ولكن وجوده — سبحانه — يتجلى على صورة أتم عندما تقبدي آياته الجليلة لأعيننا .. وفي تلك الليلة الصحوه ، التي كانت عجلة الكون تواصل فيها دوراتها في صمت هادئ ، تجلّت لي لانهاية الله سبحانه ، وعذوبة الشامة ، ووجوده في

كل مكان : ومن ثم رحلت أصلي من أجل مستر روشستر وأنا جاثية على ركبتي ، ورفعت عيني المفروورتين بالدموع . فرأيت البياض المضيء المتألق الذي يسميه الفلكيون (النجم) . وإذ تذكرت أوصافه وعدد الأجرام التي تشق الفضاء في ميض خاطف . أيقنت بعظمة الله وقدرته على حفظ مخلوقاته ، وازداد اقتناعي بأن لا هلاك للأرض ، ولا لروح من الأرواح التي تعمرها ، إلا بإرادته سبحانه ، ومن ثم حولت صلاتي إلى شكر له .. فإن منبع الحياة هو أيضاً بنفس الأرواح ومنفذها .. وأوحى لي هذه الفكرة بضمائنية إلى أن مستر روشستر كان في أمان ، لأنه من مخلوقات الله . فلا بد من أن يعرسه الله .

وعدت أرقد في حضن الصخرة ، فما لبث النوم أن أنساني حموى وأحزاني . ولكن العوز والحاجة والمستبة عاودتي في اليوم التالي .. وكانت العاصفير قد غادرت أعشاشها . وخرج النحل يسعى في صابر النهار البديع ليجمع الرحيق قبل أن يخف الندى . والعصباح قد دجع ظلاله فلا ضياء الشمس الأرض والنساء . عندما نهضت ورحلت أتأمل ما حولي .. وكما كان اليوم دافئاً بادئاً !! وما كان أجل الآجام المترامية ، إذ بدت - تحت الشمس السابغة - كصحراء ذهبية . فنهضت نصفي إلى العيش فيها وعائياً .. ورأيت سحابة تجرى على صخرة - ونحلة منهكة بين المركز اللذيذ . فتمنيت لو كنت سحابة أو نحلة لأضمن الغذاء الطيب والمأوى الدائم في ذلك المكان !! ولكنني كنت من البشر ، وفي حاجة البشر ومطالبهم ، ومن ثم لم يكن من سبيل لي أن يطول مكثي في مكان لا قضاء فيه لتلك الحاجات والمطالب . ونظرت خلق إلى الفراش الذي

غادرته .. وكنت يائسة من المستقبل ، فتمنيت لو أن الله كان قد استل حياتي أثناء نومي فخلص جسدي المضني : الواهن ، من الصراع الذي كان يرتقبه مع القدر ، وتركه يتحلل في سكونية ويمتزج في سلام بترية هذه القلابة . ولكن الحياة كانت تدب في كفاي بمطالبها وآلامها وتبعاتها . فلم يكن بد من أن أقضي تلك المطالب ، وأحتمل تلك الآلام ، وأؤدي تلك التبعات .. ومن ثم سرت في طريق ، فبلغت (هورتكروس) .. وواصلت السير في الطريق الممتدة نحو الشمس المشرقة : الحامية التي كانت تترقب السماء . وسرت طويلاً على غير هدى حتى إذا حسبتني قد قطعت مافيها الكثابة ، ونال مني التعب وأمضيت ، آثرت أن أستريح ، فجلست على حجر رأيته على مقربة ، ورفضت بلا مقاومة إلى الجمود الذي أربك قلبي وشل أطرافي . وإذا بي أسمع جرساً يداق .. جرس كنيسة !

واستدرت إلى ناحية الصوت ، فإذا بين التلال الرائعة - التي كففت عن ملاحظة صورها ومشاهدتها المتعددة منذ ساعة - كوخ ومنارة تشبه المسلة . وإلى يميني ، كان الوادي كله ملبثاً بالمرامح وحقول القمح والغابات ، وقد انسحب مجرى مؤنق متعرج خلال ظلال هذه الخضرة السابغة في ضياء الشمس . وذكري ضجيج عجلات بالطريق الذي أمامي ، فشاهدت عربة قطار مثقلة تصعد التل في جهد شديد ، وعلى مقربة منها ، رأيت بقرتين وراعيهما ، فأدركت أنني قريبة من الحياة البشرية والعمل البشري ، وأني يجب أن أناضل وأكافح في سبيل العيش كغيري من البشر !

● ودخلت القرية حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، فرأيت في نهاية شارعها الوحيد حانوتاً صغيراً عرض في واجهته بعض الخبز ، فتهافتت شوقاً إلى رغيف منه أستعيد به بعض نشاطي وقوتي . فقد بات من المتعذر أن أمضى في سبيل دون قوت . وعادتنى الرغبة في قسط من القوة والحياة بمجرد أن وجدتنى بين مخلوقات بشرية مثل . ورأيت أن من المهانة أن رغبى على وأنا في طريقى إلى الكوخ : ولو أننى كنت أمتلك شيئاً لما ترددت في أن آخذ بشمه رغيفاً من هذه الأرغفة . وكان معى منديل من الحرير - ألغته حول عنق - ثم قفازى . ولم أكن أدرى ماذا يصنع الناس في وقت الضيق والعوز . وأى هذين الشئتين يقلبهما صاحب الحانوت .. بل لعله يرفض الاثنين .. ولكنى قررت أن أجرب في النهاية ! .. ومن ثم دخلت الحانوت فوجدت به امرأة ظنتنى - لثاني - إنسانة متممة ، فتقدمت تستقبلنى بخفاوة . واستبد في الخجل . وانعقد لسألى فلم أستطع النطق بما أعددته من رجاء : ولم أجرو على أن أقدم لها القفاز البالى أو المنديل المتغصن حتى لا تستخفى ، فاكثفت بأن رجوتها أن تأذن لى بالجلوس لحظة لأتخفف من تعبى : ولذا خاب أملها في أن أتناخ منها شيئاً . قبلت طابى ببرود وأشارت إلى مقعد غصت فيه ، وكدت أبكى لولا أننى استنكرت هذه الظاهرة في غير أوانها ، فحبست دموعى . وما لبثت أن سألتها عما إذا كان في القرية حائكة أو امرأة تشغل بالنطريز ، فقالت :

.. نعم . توجد اثنتان أو ثلاث : هن كل ما تتطلبه الحاجة !
وفكرت هنية .. كنت مسوقة إلى عمل : فقد وجدتنى أمام الحاجة

وجهاً لوجه . وأصبحت في موقف من لا مورد لها ولا صديق ولا تقود ! .
كان لا بد لى من أن أعمل ، ولكن .. أى عمل ؟ .. يجب أن أبحث ، ولكن .. أين ؟ .. وسألت السيدة :
.. هل تعرفين مكاناً قريباً يحتاجون فيه إلى خادمة ؟
.. كلا . لا أستطيع الجزم .
.. ما هي أهم المهن في هذا المكان ؟ .. ماذا يعمل معظم الناس ؟
.. بعضهم مزارعون - وكثير يعملون في مصنع مستر أوليفر لإنتاج الإبر . وفي المسبك .
.. وهل يستخدم مستر أوليفر نساء ؟
.. كلا .. إنه يستخدم الرجال .
.. وبماذا تشتغل النساء !

وأجابت بأنها لم تكن تدرى .. وبدا أنها سمعت أسئلتى .. وأى حق كان لى - في الواقع - في هذا الإلحاف ؟ .. وما لبث أن أقبل رجل أو اثنان من الجيران . فأصبح مقعدى مطلوباً . ومن ثم استأذنت في الانصراف . وسرت في الطريق أنظر بمنة ويسرة إلى المنازل . ولكنى لم أستطع أن أكتشف حجة أو حقاً يحول لى دخول منزل منها ، فواصلت السير أتلکأ حول القرية .. أبتعد عنها قليلاً لأعود إليها : وهكذا - نحو ساعة أو أكثر - حتى نال منى الإرهاق وأمضى الجوع ، فأتجهت إلى حارة جانبية ، وجلست تحت سياج من النباتات . وقبل أن تنفضى بضعة دقائق ، انتصبت على قدمي مرة أخرى ، لأبحث عن شيء .. عن معين أو على الأقل عن يرشدنى إلى من يعينى !

متزلاً صغيراً جيلاً ، أمامه حديقة نظيفة مزهرة ، فتقدمت ووقفت عند
أتساع : ما الذى يبيع لي أن أقرب من بابه الأبيض وأمس مقبضه
اللامع ؟ .. وكيف يتلقى سكانه مقدي ؟ .. وبرغم ذلك اقتربت وطرقت
الباب ، ففتحته شابة مليحة الوجه والهندام . وسألها بصوت ينبعث من
قلب يائس وجسم أنهكه الآلام حتى كاد يغمى عليه : « هل تريدون
خادمة ؟ » فأجابت : « كلا .. لسنا نستعين بخدم » .

— هل يوسعك أن ترشدني إلى مكان أجده فيه عملاً ؟ .. إنني غريبة
بلا معارف هنا ، وفي حاجة إلى أى عمل .

ولكنها لم تكن ميالة إلى أن تفكر من أجل أو تبحث لي عن مكان .
وكان من الطبيعي أن تبدو لها شخصيتي ووضعى محولين بالشك . لذلك
هزت رأسها محربة عن أسفها لأنها لا تملك أن تمدني بمعلومات في هذا
الصدد . ثم أغلقت الباب الأبيض في رفق بالغ وتأدب ، فكأنما أغلقت
بذلك باب الدنيا في عيني .. ولو أنها أبقت الباب مفتوحاً ليضع لحظات
أخرى ، لاستجديتها كسرة من الخبز ، إذ كانت كبريائي قد تهاوت
من عليانها .. ولم أكن أطيق أن أعود إلى القرية الجاحدة . حيث لم
يلح لي رجاء في مساعدة ، فأثرت أن أمضي إلى غابة غير بعيدة ، جليني
إليها ظلها الوارف . ولكني كنت غاية في الضعف والوهن ، كما أن
غريزي كانت تردني إلى التجوال حول البقعة المعمورة - حيث يحتمل
أن تسنح فرصة الحصول على طعام ، فما كان ليهدأ لي بال أو يقر لي
قرار مادام الجوع — ذلك النسر الكاسر — يغرس منقاره وخالبه في
أحشائي ! .. لذلك اقتربت من المساكن ، ثم باعدت بيني وبينها ، لأرند



وسألها بصوت ينبعث من قلب يائس وجسم أنهكه الآلام
حتى كاد يغمى عليه : « هل تريدون خادمة ؟ »

إليها مرة أخرى ، ثم همت على وجهي مبتعدة ، وفي أعماق شعور يتهللي
قائلاً أن لا حق لي في أن أطالب بشيء ، أو أتوقع أى إشقاق في هذه
المنطقة المنزلة . وكان المساء يقترب — في تلك الأثناء — وأنا أهيئ ككباب
ضال برج به الجوع ١ .. وفيما كنت أجتاز أحد الحقول ، شاهدت برج
كنيسة أمامي ، فأسرعت نحوه . ووجدت بالقرب من فناء الكنيسة
— ووسط حديقة — منزلاً صغيراً ولكنه حسن البناء ، فأدركت أنه
مسكن القس . وتذكرت أن الأغراب الذين يملكون في مكان لا معارف
لهم فيه لينشدوا عملاً ، يلجأون أحياناً إلى القس ليوصي بهم ويساعدهم .
وإذ كانت مهمة القس أن يساعد — ولو بالنصح — فقد رأيت من حق
أن أنشد هذا النصيح ، ومن ثم استجمعت شتات قواي الخائرة . وسبيت
إلى المنزل فطرق باب مطبخه .. وفتحت الباب امرأة عجوز سالها
عما إذا كان ذلك بيت القس ، فقالت : « نعم » .

— وهل القس هنا ؟

وإذ أجابت بالنفي ، عدت أسأها : « وهل سيعود قريباً ؟ » ،
فقالت : « كلا ، لقد رحل » ، فسألتها : « إلى بعيد ؟ » .

— ليس بعيداً جداً .. لعله على مسيرة أميال ثلاثة ، فقد استدعى
لوفاة والده في (مارش أند) ، حيث يحتمل أن يبقى أسبوعين آخرين !
— هل توجد ربة لبيت ؟

— كلا .. لا يوجد غيري .. مديرة المنزل .

ولم أطق — أيها القسارى — أن أسأها أن تتشأني من الضيق الذي
كنت غارقة في لجته ، ولم أشأ أن أستجدي ، فعدت أزحف من حيث

أثبتت ، وأخرجت منديل من جديدي .. ومرة أخرى فكرت في أرغفة
الحب في ذلك الحانوت الصغير .. آه ، أنى لي ولو ببعض الفئات ! ..
ولو بقلعة تهدي من آلام هذا الجوع ١ .. ولم أثبت أن يمت بغريزي
شطر القرية « حيث وجدت الحانوت مرة أخرى فدخلته ، ووجدت
أشخاصاً مع المرأة ، ولكني تجرأت وتوسلت إليها قائلة : « هل تعطيني
رغيفاً في مقابل هذا المنديل ؟ » .

ف نظرت إلى في شك ياد ، ثم قالت : « كلا فاست أشتري الأشياء
بهذه الطريقة قط ! .. وكدت أياأس ، فطلبت منها نصف رغيف :
ولكنها رفضت مرة أخرى قائلة : « كيف لي أن أعلم من أين حصلت
على هذا المنديل ؟ » .. فسألها صارعة : « هل تأخذين قفازي ؟ » ،
ولكنها قالت : « كلا . ماذا أصنع بهما ؟ » :

وليس من دواعي السرور — أيها القارئ — أن أورد هذه التفاصيل
وقد يرى بعض الناس أن هناك متعة في ذكر المحن المؤلمة التي تقضت ،
ولكني لا أحتمل اليوم أن أستعيد ذكرى الأوقات التي ألمح إليها ،
فإن ما فيها من هوان يمتزج بالعناء الجفائي فتتألف منها ذكريات آيلة
لا أحب التفكير فيها . ولم أنح باللائمة على أحد من هؤلاء الذين نهروني
بل خيل لي أن هذا هو عين ما كان يجب أن أتوقع دون أن يكون لي
في الأمر حيلة ، فإن المتسول العادي يكون دوماً عرضة للشكوك مهما
يكن هتداه حسناً : والواقع أنني لم أكن أسأل إحساناً ، وإنما كنت
أنشد عملاً . ولكن : من الذي يعني بأن يقدم لي عملاً ؟ .. ما كان لي
— بطبيعة الأمر — أن أرجو ذلك من كانوا يروني لأول مرة . فليسوا

يعرفون عن أخلاقى شيئاً . ولقد كانت المرأة على حق في رفضها أن تتقبل منديلى في مقابل خبزها « فربما رابها أمرى ، أو لعلها رأت المقايضة غير مريحة .. ومن ثم أوجز الآن في الحديث لأننى سنت الموضوع :

● وقبل الغروب ، مررت بمنزل في مزرعة ، وقد جلس في بابه المفتوح فلاح يتناول عشاء من الخبز والخبز ، فتوقفت أمامه وقلت : « هل لك أن تعطينى كسرة من الخبز لأننى جائعة جداً ؟ » .. فرميتي الرجل في دهشة ، ولكنه قطع شريحة كبيرة من رغيفه أعطانها دون أن ينطق بكلمة . وأغلب الظن أنه لم يتصورنى متسولة ، وإنما حسبنى سيدة غريبة الأطوار ، استهواها رغيفه الأسمر ! .. وما أن ابتعدت عن منزله ، حتى جلست ألهم الشريحة :

ولم يكن يساورنى أى رجاء فى الحصول على مأوى تحت أحد السقوف ، فالتجأت إلى الغابة التى أشرت لىها من قبل . ولكن ليلتى كانت شقاء ، وراحتى لم تتوفر ، إذ كانت الأرض مبللة والهواء بارداً ، فضلاً عن مرور المتطفلين في أكثر من مرة ، مما كان يضطرنى إلى تغيير مرقدى .. وون أن يلازمى شعور بالسلامة والطمأنينة . وأمطرت السماء قبيل الصباح ، واستمر المطر يعطل طوال النهار التالى . ولا تسألنى أيها القارئ أن أسرد عليك تفاصيل ذلك اليوم بدقة ، فقد بحثت عن عمل كما حدث في اليوم الذى سبقه « وقوبلت بالهفاء والنخور .. ومن جديد ، حتى أشرفت على الموت جوعاً ، إذ أننى لم أذق طعاماً في

ذلك اليوم إلا مرة واحدة . فقد مررت بفتاة عند باب كوخ ، تهم بإلقاء بقية من ثريد بارد أمام خنزير فسألتها : « هل لك أن تعطينى هذا ؟ » .. فحملت في وجهي وصاحت : « أماه ! توجد امرأة تريد أن أعطيا هذا الثريد ! » .. فأجابها صوت من الداخل : « حسناً يا صبية .. اعطياها إياه إذا كانت متسولة ، لأن الخنزير لا يريد » . ومن ثم أغرقت الفتاة ذلك العفن المتيسب في راحتي ، فسرعان ما التهمت في نهم .

وعندما اعتكر ضياء الفسق « توقفت عن السير في طريق راكبي الخيل منعزل ، كنت أتعبه منذ أكثر من ساعة ، ثم قلت أناجي نفسي : « إن قواى تتخلى عني ، وأشعر بأن ليس في وسمى المضي إلى أبعد من ذلك ، فهل سأبذل هذه الليلة أيضاً ؟ .. وهل لابد من أن أتوسد الأرض الباردة المبللة ، بينما تنهمر الأمطار بهذا الشكل ؟ » .. ما أرى أمامى سوى هذا ، إذ من يقبل لإروانى ؟ .. ولكنه أمر مروع نظراً لجوعى وضعفى وبرودتى وعزلى ، وهذا الأمل المتقوض ، فليس يستبعد أن ألقظ آخر أنفاسى قبل أن يطلع الصباح .. ولكن لماذا لا أوطن النفس على الموت ؟ .. ولماذا أفاضل للاحتفاظ بحياتي النافهة؟ الواقع أننى كنت أشعر - بل أوقن - بأن مستر روشستر جى يرزق ، وإذن فالموت من الإملاق والبرد مصير لا تقبله الطبيعة باستكانة واستسلام . أواه ، أيها العناية الإلهية أمدينى بقوتك .. عاونينى واهدينى سواء السبيل !

وراحت عيناى المحملتان تجوبان في السهول الممتدة التي

تعلوها السحب ، ووجدتني قد نأيت عن القرية بحيث غابت عني معالمها ، ولم يعد بيني وبين التل غير بضعة حقول قليلة ، فأثرت الموت هنالك على الموت في شارع تطرقه المارة .. بل أثرت أن تنهش الغربان لحسني .. إذا وجدت غربان في تلك الأنحاء — على أن أجن في كفن وأدفن في مقابر المتولين !

وما لبثت أن عمت شطر التل حتى بلغتني ، وبقي فقط أن أبحث عن حفرة أرقد فيها وأشعر بأنني محتبة فيها عن الأنظار : إن لم أكن في أمان وسلام . ولكن الأرض كلها كانت مستوية . ولا تختلف بقاعها إلا في اللون ، فهي خضراء — بسبب الطحلب والحشائش النامية . في البطاح والمستنقعات ، أو سوداء حيث لا تحمل التربة الجافة سوى الجذيب والموت . واشتدت الظلمة شيئاً فشيئاً ، ولكنني كنت ما أزال أتبين ذلك الاختلاف في اللون ، وإن بدا كنتعاقب الظلال والأضواء . لأن اللون الحقيقي انمحي مع نور النهار .

وظلت عيناى تحومان فوق المرتفعات الكنيبة وحافة الآجام ، ثم تبهم نظراتهما وسط ذلك المنظر الموحش ، إلى أن ظهر ضياء فجأة . كنقطة بعيدة بين البطاح والحواف « ففكرت أول ما فكرت في أن ذلك نوع من السراب ، وتوقعت أن يتلاشى على الفور . ولكنه ظل متقدماً في ثبات واستقرار ، دون أن يتضاءل أو يتزايد ، فتساءلت : « أهي نار أشعلت على التو ؟ » .. وترقبت لأتبين ما إذا كانت ستشتد . ولكنها لم تقو ، كما أنها لم تتضاءل ، فحدست أنها ربما كانت مصباحاً في منزل : ولكن ، فيم يعني أمرها وليس في وسعي أن أصل إليها

-- إذا صح حدسي -- لأنها كانت جد بعيدة ؟ .. بل ما نفعها إذا كانت على ياردة واحدة من مكاني ، ما دمت أنف أن أطرق بابها حتى لا يعلق في وجهي ؟ .. وتهالكت في البقعة التي كنت أقف عليها ، وأخفيت وجهي في الأرض : ورقدت فترة في هدوء وسكون .. وكانت الرياح تهب فوق التل وفوق : ثم يتلاشى أنينها بعيداً . وأخذت الأمطار تهطل بسرعة فتبليتني من جلدي وتنفذ إلى جلدي ، فلم يسعني سوى أن أجد في ذلك الصقيع الذي خلت أنه برودة الموت تسري في جسدي : وما كان ينبغي أن أتأذى منها . ولكن الجسد الحلي ما لبث أن راح يرتعش تحت ونزها ، فلما لبثت أن نهضت .

■ وكان الضوء لا يزال يشع هناك وباستمرار « خلال المطر ، فحاولت السير مرة أخرى . ورحلت أجز قدسي العليتين في هطء نحوه ، فإذا بي أتجه إلى أعلى التل خلال مستنقع واسع كان الخوض فيه مستحيلاً في الشتاء « بل في هذه الآونة ، إذ كنا في منتصف الصيف ! .. وسقطت مرتين . ولكنني نهضت واستجمعت قواي ، لأن هذا الضوء كان الأمل الذي أستقبل في سبيله ولا بد من أن أبلغه ! .. فلما عبرت المستنقع شاهدت أثراً لياض فوق الآجام . فسرت إليه . وإذا به طريق يصعد إلى النور الذي كان يضيء من خلال ثغرة وسط مجموعة من أشجار الشربين على ما لاح لي وسط الظلام ، واختفى (نجى) عندما اقتربت منه . لأن عتبة حائلي بيني وبينه فحجبته عن عيني . ولكنني استطعت يدي ألتمس طريق في الظلمة التي كانت أمامي ، إلى أن وصلت إلى

كلب كبير - من كلاب الصيد - برأسه انضخم على ركة إحدى الفتيات : بينما استكانت في حجر الأخرى قطعة سوداء !

ما كان أغربه من مكان هذا المطبخ المتواضع ، إذا قبس بظهر ساكاته !... ترى من تكون الشابتان ؟ ما كان من المحتمل أن تكونا ابنتى هذه المرأة الجليلة بجانب المائدة ، لأنها كانت خشنة جافة . في حين أنهما كانتا رقيقتين مهذبتين . والحق أنني لم أر مثل وجهيهما من قبل . ولست أملك أن أصفهما بالجمال الفائق لأنهما كانتا شليديتى الامتقاع والوزادة .. وعندما كانت الواحدة منهما تنحني على كتابها ، كانت آيات التفكير العميق الحاد تنجلي على أساريرها . وكان يدهما قائم يحمل شعبة أخرى . ومجلدين ضخمين طالما رجعتا إليهما ، وكانهما تقارنان بينهما وبين الكتارين الصغيرين اللذين كانا في أيديهما كما يرجع الناس عادة إلى القاموس ليعاونهم على مهمة الترجمة . وكان مشهداً ساكناً . فبدا الأشخاص كالأشباح . وبدت الحجرة الساخنة في أضواء الموقد أشبه بالصورة الرائعة .. أجل . كانت الحجرة في صمت شامل حتى أنني سمعت تساقط الرماد خلال شبكة المدفأة . ودقات الساعة في الركن المظلم . بل لقد خيل لي أنني سمعت ارتطام الإبر في يدي المرأة العجوز !.. وأخيراً . هناك حجاب الصمت صوت بتأهلي لأذن . إذ قالت إحدى الفتيات المبهكتين لرفيقتها : « اسمي ياديانا .. إن فرانز ودنيال الشيخ يقضيان الليل معاً ، فيروى فرانز حلاًماً استيقظ منه مضطرباً .. اصغى ! » ثم قرأت شيئاً بصوت خافت لم أدرك منه

سور من أحجار خشنة ، فواصلت تلمسي إلى أن رأيت مرة أخرى شيئاً أبيض يلتمع أمام عيني .. وكان هذا الشيء باباً لمسته فتحرك على مفاصله ، فإذا خلفه - على كل من الجانبين - أبكة قائمة اللون من أشجار السمر .. ونفذت خلال ذلك الباب وسرت بين الحشائش : فرأيت شبح منزل أسود منخفض : طويل ، ولكني لم أر أثراً للنور الهادئ حول « بل كان الظلام مسيطراً . ترى هل هجع سكان الدار ؟ .. ووجف قلبي لهذه الفكرة . وفيما كنت أبحث عن باب المبنى ، انفتحت حول زاوية ، فسطع أمامي الضوء الصديق مرة أخرى خلال زجاج نافذة صغيرة ترتفع قدماً عن الأرض وتبدو أصغر من حجمها الحقيقي ، إذ كانت تحيط بها النباتات الزانقة كالطبق وغيره : وكان الداخل محجوباً ، فأزحت ستار النباتات المتسلقة عن النافذة وإذا ذلك تجلي المشهد أمامي ، فرأيت حجرة فرشت أرضها بالرمال ، وبها منضدة وبعض مقاعد . وكان المصباح الذي أرسدني يسطع فوق المنضدة ، فشاهدت على ضوءه امرأة طاعنة في السن ، خشنة المظهر ، ولكنها غاية في النظافة ككل شيء حولها ، وقد جلست ترفو جوروباً : وكانت النظرة التي ألقيتها على هذه الأشياء سطحية ، إذ لم يكن بينها شاذ أو غير عادي . ولكن منظر آخر استرعى انتباهي .. كانت ثمة شابتان بجانب المدفأة « وسط السكينة الوردية والدفء الغامر .. وكانتا سيدتين في كل شيء ، وقد جلست إحداهما على مقعد متأرجح خفيض والأخرى على مقعد أكثر انحناءً ، ودون مساند .. وكانتا في ثياب الحداد التي زاد سوادها من تألّق وجهيهما وتخريهما ، وقد اعتمد

كلمة واحدة لأنه كان بلغة يونانية أو ألمانية حتى إذا فرغت من قراءتها قالت : « هذا أسلوب قوى لا أستطيعه ! »

وكانت الفتاة الأخرى قد رفعت رأسها لتصفى إلى أختها ، فكررت سطرًا مما قرأت وهي تحملي في نار المدفأة . ولقد عرفت فيما بعد تلك اللغة وذلك الكتاب ، ومع ذلك فإني لم أفهم معنى ذلك السطر الذي هبط على رأسي أشبه بطريقة على نحاس رنان .. أجل ، كان كالرنين الأجوف الذي لا معنى له : ثم هفت الفتاة وعيناها السوداوان العميقتان تألقان : حسن ! .. حسن ! .. إنني أستطيعه ! .. وراى عليهما الصمت مرة أخرى إلى أن قطعته العجوز وقد رفعت عينيها عن شغل الإبرة :

— هل توجد بلاد يتحدثون فيها بمثل هذه اللغة ؟

— نعم يا حنة : بلاد أكبر بكثير من إنجلترا ، لا يتكلمون فيها غير هذه اللغة .

— الواقع أنني لا أدري كيف يفهم بعضهم بعضاً . فهل إذا ذهبت إحداكما إلى تلك البلاد استطاعت أن تدرك ما يقولون ؟

— لعلنا نعرف بعض ما يقولون ولبس كله : لأننا لا نتكلم الألمانية ولا نستطيع أن نقرأها بغير الاستعانة بقاموس !

— وأية فائدة ترجوا منها ؟

— نرجو أن نتولى تدريسها .. أو أن نعلم على الأقل مبادئها — كما يقولون — وعندئذ نحصل على أكثر مما نرجمه الآن !

— حسناً . كفى درساً هذه الليلة !

— أظننا كذلك .. إنني — من ناحيتي — متعبة ، وأنت يا ماري ؟

— كل التعب . فإنه من الصعب أن نرهن أنفسنا في لغة لا تقدر عليها غير المعاجم !

— هو ذلك ، لا سيما إذا كانت كهذه اللغة الألمانية المعقدة ، وإن كانت رائعة . ترى متى سيحود سانت جون ؟

فقالت وهي تتطلع إلى ساعة ذهبية صغيرة أخرجتها من حزامها : « سيحود بعد قليل ونحن الآن في تمام العاشرة ، والمطر ينهمر غزيراً سريعاً يا حنة . هل لك أن تظمتني إلى اشتعال النار في غرفة الجلوس ؟ » . فقبضت المرأة وفتحت باباً رأيت من خلاله ممراً ، ثم ما لبثت أن جمعتها تقلب ناراً في غرفة داخلية وتعود على النور لتقول : « أواه يا صغيرتي ! .. لكم يمضئ أن أذهب الآن إلى تلك الغرفة التي تبدو موحشة بالمقعد الخاوي المودع في أحد الأركان ! » .. ومسحت عينيها بمرولتها . كما تبدى الحزن على الفاتنين الرزيتين ، واستطردت حنة تقول :

— ولكنه انتقل إلى مكان أفضل ، ولست أترجو له أن يعود إلى هنا . فما أظن أحداً حظى بأهدأ من مبعته !

فسألتها إحدى السيدتين : « تقولين إنه لم يذكرنا ؟ »

— لم يكن لديه متسع من الوقت لذلك ، فإن المنيه عاجلته .. كان يعاني بعض التوعك الذي أصابه في الليلة السابقة دون أن ننتبه كثيراً بالأمر . ولما سأله أخوكما مستر (سانت جون) عما إذا كنا نرسل في طلب إحداكما ، اكتفى بأن اضحك . ثم أصيب في اليوم التالي بقل في رأسه .. كان ذلك منذ أسبوعين بمبادي .. ثم مضى لينام

فلم يستيقظ إلى الأبد ! .. وعندما دخل عليه أخوكما وجده جثة هامدة .
أواه يا طفلي ! .. هكذا انتهى الرجل الكهل بثل ما ذهبت أمكنا من
قبل . إنك صورة طبق الأصل منها يا ماري .. أما أنت يا ديانا
فتسبين والدك !

ولكنني كنت أراهما جد متشابهين . فلم أدر من أين جاءت
الخدمة العجوز بهذا الفارق بينهما . في حين أن كلا منهما كانت جميلة
الحيا « تحفة التوام » ترتسم على وجهها آيات الفطنة والذكاء . وإن
كان شعر إحداهن أحلك قليلا من شعر الأخرى ويختلف في طريقة
تصفيفه : فمأري ذات خصلات سوداء مفروقة معقوفة . بينما كانت
جداثل ديانا - الأحلك لوناً - تسدل حموة على عنقها !

■ ودقت الساعة العاشرة : فقالت حنة : « أعتقد أنكما ترغبان في
تناول العشاء . وكذلك » يفعل مستر سانت جون بمجرد عودته ! ..
ثم تقدمت لتعد العشاء ، فنهضت السيدتان : ولاح أنهما تهما بالانتقال
إلى حجرة الجلوس . وكنت إلى تلك اللحظة أرقبهما في اهتمام وقد
استهواني منظرهما وحديثهما . حتى كدت أنسى موقفي النعس . ولكن
سرعان ما عاودتني الآلام ورأيت كيف تناقض حالي البائسة اليائسة
حالتهم ، وأدركت كيف يستحيل أن أجعل سبيلك هذا المنزل بيتان
بأمرى وأحدهما على تصديق حاجتي وويلاتي وأغريهما بأن تريخاني
من عناء التشرد . وعندما تحصست طريق إلى الباب وطرقته في تردد ،
شعرت بأن الأمل الأخير لا يعدو أن يكون وهماً باطلا . وفتحت حنة

الباب - فلما رأيته على ضوء الشمعة التي تحملها ، سألتني في صوت
مشنوه : « ماذا تريدين ؟ » فأجبتها : « هل أستطيع التحدث إلى
سيدتيك ؟ »

— يحسن أن تخبريني بما تريدينه منها . من أين جئت ؟
قلت : « إنني غريبة ! » .

فأجابت متسائلة : « وماذا تريدين في مثل هذه الساعة ؟ »
— أريد أن أبيت ليلتي في حجرة خارجية أو في أي مكان وأريد
كسرة من الخبز :

وبدأ الإحساس بالثك - الذي كنت أخشاه - يظهر على وجه
حنة . فقالت بعد صمت قصير : « سأعطيك كسرة من الخبز ولكننا
لا نستطيع أن نؤوى غريبة » .

فنهضت ضارعة : « ألا دعيني ألتحدث إلى سيدتيك ! »

.. كلا .. فما الذي تصنعه لك ؟ .. ما كان يجمل أن تنجولي
الآن على هذه الصورة التي لا تليق إطلاقاً .

— ولكن أين أذهب إذا طردتني ؟ ماذا أصنع ؟

— إنك أدري بلا شك بالمكان الذي تذهبن إليه . وبما تصنعيه ! .

إنما حذار من الإقدام على أي شر . خذي هذا البنس وادهي !

— إن البنس لا يستطيع أن يطعمني ، ولا قوة لي على السير أكثر
من هذا . لا تغلق الباب .. أواه لا تغلقه بالله عليك !

— بل يجب أن أفعل لأن المطر ينهر .

— أخبري السيدتين . دعيني ألقاهن !

— كلا لن أفعل . لأنك لست أهلاً للقائهما . وإلا ما أحدثت هذه الجلبة : اذهبي من هنا !
— ولكني أموت إذا طردتني :
— لا ضير عليك !.. أنشئي أن تكون لك أغراض شريفة .
هي التي تجعلك تحومين حول بيوت الناس في مثل هذا الوقت من الليل فإذا كان ثمة رفاق لك من اللصوص أو من اليهم يترصدون على مقربة ، فخير لك أن تخبرهم بأننا لسنا وحيدات في البيت : بل إن معنا سيديا ، ولدنا كلاب وبنادق ؟
وهنا أوصدت الخادم الأمانة — التي لم يلن لي قلبها — باب المنزل وأحكمت الرتاج . وكانت هذه هي المطامة الكبرى . فجاش الألم في قلبي ومزقه بعد أن استبد في اليأس والقنوط . وبلغ في الإعياء أن غدوت لا أقوى على التحرك خطوة واحدة . قهالكت على عتبة الباب المبجلة : « أخرج وأعتصر يدي وأبكي في ألم محض . أواه .. هذا شبح الموت !.. أواه . هذه ساعتني الأخيرة قدتو رهبة مروعة !.. وأأسفاه على هذه العزلة : وهذا البعد عن أبناء جنسي !.. ولم تزايلني فقط (مرسة) الأمل . وإنما تلاشت كذلك (قاعدة) الجلد والنيات . لحظة على الأقل ، سارعت بعدها أحاول استعادة آخر بارقة من الرجاء وصحت : « لا معدى من الموت ! إنني أومن بالله فلا أنتظر إرادته في سكون وهدوء ! »

ولم تمر هذه الكلمات بخاطري فحسب . ولكنني نطقت بها ، ثم كتبت شغائى في قلبي . وحاولت إكراهه على البقاء هناك في صمت

وسكون : وارتفع إذ ذاك صوت قريب يقول : « لا بد للناس جميعاً من الموت . ولكنهم جميعاً ليسوا مسوقين لأن يلقوا مثل هذا المصير البغيء السابق للأوان . والذي يمكن أن تلقيه أنت إذا هلكت هنا من الإملاق ! »

فارتجفت للصوت الذي لم أكن أتوقعه . وسألت : « من أو ماذا يتكلم ؟ » .. وكنت عاجزة عن توقع أى أمل في مساعدة ، ولكنني رأيت شبهاً أسود كظلام الليل « وعجز نظري — الذي ضعف — عن تمييزه : ثم طرق الوافد الجديد الباب طرْقاً عالياً طويلاً ، فصاحت حنة : « أهذا أنت يا ماستر سانت جون ؟ »

— نعم . نعم . افتحي بسرعة !

— لا شك أنك تقاسي الليل والبرودة في مثل هذه الليلة الموحشة . ادخل فإن أختيك في غاية من القلق عليك .. وأعتقد أن في هذه البقعة قوماً من الأشرار ، فقد جاءت متسولة .. إنها لم تذهب بعد ، فيها هي ذى ترقد هنا ! قومي ! يا للعار !.. اذهبي من هنا !

— صه يا حنة ، فلدي ما أقوله لهذه المرأة . لقد قتت بواجبك بطردها ، فدعيني أقوم بواجبي بإدخالها ، فقد كنت على مقربة وسمعت كل ما دار بينكما من حديث ، وأعتقد أن هذه حادثة غير عادية تحتاج إلى أن أدرسها . انفضي يا شابة وتقدميني إلى المنزل !

فأطعته في عناء . وما لبثت أن وجدتني داخل المطبخ التنظيف المشرق أر تجف : وقد أخذ رأسي بالورق ومن حولي مشهد في الخارج

غاية في الوحشة وقد عصفت به الطبيعة « بينا كانت السيدتان وأخوهما يحلقون في .. ثم سمعت من يسأله : « من هذه الفتاة يا سانت جون ؟ »

— لا أدري . لقد وجدتها عند الباب !

وقالت حنة : « إنها تبدو شاحبة . »

— شاحبة كالصلصال أو كالموت ، وتكاد تهوى من الإعياء

فدعها تجلس :

● والواقع أن رأسي كان يسبح ، وسقطت ليلتفتني أحد المقاعد . وكنت ما أزال مستجمعة حواسي ، وإن عجزت عن الكلام إذ ذاك :

فقال الشاب : « لعل جرعة من الماء تعيد إليهما قواهما يا حنة . فالتبها ببعض المياه . ولكنها منهوكة غابة الإنهاك وغاية في الهزال والامتناع ! »

— إنها مجرد شبح !

.. هل هي مريضة أو هو الجوع يرح بها فعجب !

.. أظنها تنضور جوعاً : هل هذا لبن يا حنة ؟ .. هاتيه وهاتي

كسرة من الخبز .

أما ديانا — التي عرفتها بجذائلها الطويلة التي حجبت عني المدفأة — عندما انحنت علي — فقد قطعت شريحة من الخبز نعمتها في اللين

ووضعها في فمي : وكان وجهها قريباً مني فشاهدت عليه آيات الرثاء كما لمست حنانها في أنفاسها الراكضة . وقالت لي بكلمات بسيطة تشف

عن نفس العواطف : « حاولي أن تأكلي ! » .. ورددت ماري الرجاء في رفق قائلة : « أجل ، حاولي ! » .. ثم رفعت قلنسوتي المبللة كما

رفعت رأسي : فتناولت ما قدم إلي في ضعف ثم في لفة . وقال أخوها : « لا تعطيا كثيراً في البداية ، فقد تناولت ما فيه الكفاية ! » .. ثم

سحب فتجان اللبن وطبق الخبز ، ولكنها قالت : « بل أعطيها مزيداً يا سانت جون . انظر إلى الشراهة المتجلية في عينيها ! » .. فقال :

« يكفي الآن ما تناولته يا أختاه . جربي ما إذا كانت تقوى على الكلام ، أسألها عن اسمها .. »

وشعرت بأنني أستطيع الكلام فقلت : « إن اسمي : جين اليوت ! » . فقد انتحلت هذا الاسم حرصاً مني على ألا يكشف أحد

حقيقتي .

.. وأين تقيمين ؟ .. أين أصدقاؤك ؟

ووزمت الصمت ، فعاد يسألني : « هل في الوسم أن نرسل في طلب واحد من معارفك ؟ » .. ولكنني هزئت رأسي ، فسال :

« ماذا لديك من القول عن نفسك ؟ » ..

وشعرت بأنني وقد عبرت عتبة هذه الدار ، وأصبحت مع أصحابها وجهاً لوجه . لم أعد المنبوذة الشريفة التي تنكرت لها الدنيا .

ولذلك جرؤت فخلعت عني ثوب المتسولة المستجدية ، واستمدت أطوارى وأخلاقي الطبيعية . وبدأت أعرف نفسي مرة أخرى . فلما

سألني ماستر (سانت جون) أن أروي قصتي — التي كان ضغني إذ ذاك يحول دون روايتها — أجبته بعد فترة وجيزة : « لست أقوى

الليلة على ذكر التفاصيل يا سيدي .. » فقال : « وما الذي تتوقعين من أن عمله من أجلك ؟ » . فأجبت : « لا »

وكانت قوتي لا تكفي لغير الإجابات المتقطعة ، فقالت ديانا :
 « أتعتين أننا قدمنا لك كل ما كنت تحتاجين إليه من معونة ، وأن في
 وسعنا أن نبعث بك الآن إلى الآجام والليل المطير ؟ » .. فطلعت إليها ،
 وإذا هي - كما بدت لي - ذات عجا عجيبة يتميز بالقوة والقطيعة :
 فتشجعت فجأة ، وأجبت عن نظرتها الحنون بإتسامة ، شفعتها بقوتي :
 « سأضح فيك ثقتي .. لو أنني كنت كلبة ضالة بلا صاحب ، ما طردتني
 من منزلك الليلة ! .. لست خائفة ، فافعل ما شئت في ولأجلى .
 ولكني أسألك الصفح إذا عجزت عن الكلام الطويل ، إذ أن أنفاسي
 قصيرة وأشعر عند الحديث بتشنج يضايقني » .

وراء السكون على الثلاثة .. وأخيراً قال مستر سانت جيون :
 « دعينا يا حنة تجلس هنالك الآن ولا تلقى عليها أسئلة ، وبعد عشر دقائق
 أعطيها بقية الخبز واللين . هيا بنا يا ماري وأنت يا ديانا إلى غرفة
 الجلوس لتتحدث في الأمر » .. ثم انسحبا ، وسرعان ما عادت
 إحدى السيدتين - ولم أدر أيتهما ، إذ كنت في شبه غيبوبة لذيذة -
 وأنا جالسة بجوار النار البيجة - فألقت على حنة بعض تعليقاتها بصوت
 خافت : وما لبثت أن أرقت الدرج بمعاونة الخادمة إلى حيث خلعت
 ثيابا المبللة .. وتلقفت قراش دائي جاف ، فشكرت الله وقد تحررتني
 .. وسط الإنهاك الشديد - ضياء الفرحة الشاكرة - ثم تمت !

الفصل التاسع والعشرون

● إن ذكرى حوالى ثلاثة أيام وليالي - بعد ذلك - تقبع مبهمة في
 ذهني .. وبوسعي أن أذكر بعض الأحاسيس التي خامرتني في تلك
 الفترة ، ولكنني لا أذكر من الأفكار الواضحة المعالم إلا قليلا .. كما
 أنني لم أقم بعمل ما .. وكنت أدرك أنني في حجرة صغيرة وسرير
 ضيق .. ونحيل إلى أنني كنت أكبر من ذلك السرير ، وقد رقدت
 عليه دون ما حراك ، وكأنني تحولت إلى صخر : وكان انزعاجي منه يعني
 قتلى . ولم أقفل إلى مرور الزمن .. لم أكن أعي تطور الصباح إلى
 ظهيرة . ولا تحول الظهر إلى مساء ، ولكنني كنت أشعر بأهل الدار
 عندما كانوا يدخلون الغرفة أو يغادرونها . بل كان في وسعي أن أميز
 شخصياتهم : وأن أفهم ما كانوا يقولون إذا وقف المتكلم على مقربة
 مني ، ولكنني لم أكن أستطيع أن أجيب .. كان انفراج شفتي أو تحريك
 طرفي ضرباً من المستحيل ، وكانت (حنة) - الخادم - أكثر أهل
 البيت تردداً على عرقي ، فكان مقدمها يزعجني ، إذ كنت أشعر
 بأنها راغبة في إقصائي ، وأنها لم تفهمني . ولا قدرت ظروفني ، ومن ثم
 كانت متحاملة علي . أما ديانا وماري فكانتا تأثيانا إلى حجرتي مرة
 أو اثنتين في كل يوم ، فنتهاهسان بجانب فراشي ، بمثل مايلي من
 عبارات :

« لقد أحسنا كثيراً بلبواثنا ! » .. « نعم وإلا عثر علينا في الصباح
 جثة هامدة بجوار الباب ، لو أننا تركت في الخارج طلوال الليل : ترى

أى عناء قاسته لا .. « لابد أنها قاست متاعب عجيبة فيما اعتقد - قبالاً من مشردة بائسة هزيلة شاحبة ! » .. « أغلب الظن أنها متعلمة كما يبدو من تصرفاتها وحديثها : فإن لمحبها جلد مهذبة ، وملابسها التي خلعتها جميلة ، وليست بالية تماماً » وإن كانت ملوثة بالطين ومبللة .. « إن لوجهها طابعاً فذاً ، رغم أنه هزيل منهوك ، وبوسعى أن أتصورها ذات سحنة مقبولة بمجرد أن تسترد صحتها وتنتعش » .

ولم المس قط في حديثهما المتبادل ما يدل على ما أعدها وأخوها على من كرم الوفاة : أو ما يوحي بالشك أو النفور مني . مما أثلج صدرى .. أما مستر (سانت جون) : فلم يزرني سوى مرة واحدة نظر فيها إلى ، ثم قال : إن سباتي العميق كان نتيجة رد فعل لتعب شديد طال أمده . وأن لا حاجة تدعو إلى دعوة طبيب ، لأنه كان واثقاً من أن الطبيعة سوف تتكفل بي على أكل وجه إذا تركت لحالي . وأكد أن كل أعصابي قد أرهقت بحيث أصبح جميع جهازى العصبى فى حاجة إلى الاستجمام بعض الوقت ، وأنتى لست مريضة على الإطلاق وقال إنه يعتقد أنتى إذا ما بدأت أسترد قوتى ، فلن ألبث أن أستكمل شفائى سريعاً . وعبر عن آرائه هذه فى كلمات قلائل . وبصوت خافت ، ثم توقف لحظة وعاد يقول بلهجة الرجل الذى لم يعتد كثيراً أن يطيل التعليق : « إن لوجهها سحنة لا تكاد تكون عادية . ولكنها ليست بكل تأكيد على شئ » من الابتذال أو الخلة » .

فأجابته ديانا : « حقاً .. ولا أتمك أن قلبى يخنو على هذه الصغيرة البائسة ، وبودى لو تقوى على مساعدتها مساعدة دائمة » .

وكان رده : « ليس ذلك محتملاً ، وسوف تجدان أنها سيدة شابة وقيم بينها وبين أهلها سوء تفاهم ، فغادرتهم فى تور ، وقد توفى فى آن نعيدها إليهم ما لم تكن عنيدة ، ولكنى أقرأ على وجهها سطوراً تدل على القوة مما يجعلنى أوقن من دماثة أخلاقها » .. ثم استرسل يقول : « إنها تبدو عاقلة ولكنها ليست جميلة ! » .. « إنها غاية فى المرض ياسانت جون .

— مريضة أو غير مريضة فستظل امرأة غير جميلة ، إذ ينقص أسرارها التناسق :

■ وفى اليوم الثالث تحسنت حالتي ، وفى الرابع استطعت الكلام والتحرك فى فراشي « والجلوس فيه ، والتقلب فى أرجائه . وجاءتني حنة ببعض الحساء والخبز المحمص لغدائي فيما اعتقد ، فأكلت بشهية . وكان طعاماً جيداً خالياً من ذلك الطعم المغموم الذى كان يسم ما كنت أبتلع من قبل . وعندما غادرتني ، أحسست بقوة ونشاط نسبين ، ثم لم ألبث بعد قليل أن شعرت بميل إلى التحرك ومغادرة الفراش ، ولكن ماذا أرتدى ؟ .. لم يكن لدى سوى ملابس الميالة القذرة ، فشعرت بانزعاج من أن أظهر أمام من أحسنوا إلى بهذه الثياب . ولكنهم وفروا على هذا الشعور المهين ، إذ وجدت ثيابي كلها نظيفة وجافة على مقعد بجوار الفراش ، بينما كان فستانى الحريري الأسود معلقاً إلى الجدار وقد أزيلت عنه أقذار المستنقع ، وسويت التفضينات التي كانت به قبلاً لطيفاً كل اللطف .. حتى حدثني وجوري نظمت بحسب أصبحت

لائقة - وكذلك أعدت في حجرتي وسائل الاغتسال ، وزودت بمشط وفرشاة الشعر ، فإلبست بعد عشاء والتاس الراحة في كل خمس دقائق ، أن تمكنت من ارتداء ملابسني التي تبدلت على كفي بسبب ما أصابني من هزال ، ولكني سترت هذا العيب بشالي ، وهكذا استعدت مظهري النظيف المحترم ، وتخلصت من الأقدار التي عانت بي ، ومن القوضى التي أكرهها بطبيعتي وأشعر بأنها تحط من قدرى ، ثم هيجلت الدرج الحجرى زاحنة ، وأنا أستعين بالدرايزين حتى بلغت ردهة ضيقة خفيضة السقف ، وسرعان ما وجدت طريقى إلى المطبخ ، فإذا به يعين بعير الخبز الطازج ، وقد أفعم بدفء نار مستعرة :

وكانت حنة تحبز . ومن المعروف أن النشور والشحامل يصعب اقتلاعهما من القلب الذى لم ينحصب التعليم تربته ، إذ أن جذورهما تنغلغل هنالك قوية كالأعشاب التي تنمو بين الأحجار . وقد كانت حنة باردة جافة معى في أول الأمر ولكنها بدأت أخيراً ترق بعض الشيء ، فلما رأتني أدخل عليها في ثياب نظيفة مهندمة ، ابتسمت وقالت : « ماذا ؟ .. هل نهضت من فراشك ؟ .. إذن فأنت أحسن حالا : وفي وسعك إذا أردت أن تجلسي في مقعدى بجانب المدفأة » .. وأشارت إلى المقعد المتأرجح ، فجلست فيه ، بينما انهمكت هى في عملها ، وهى ترمقنى من طرف خفى بين وقت وآخر ، ثم تناولت بعض أرغفة من للفرن واستدارت إلى تسألنى في جفوة وغلظة : « هل كنت تتسولين قبل أن تأتى إلى هنا ؟ .. فتولأى النخط بخطه . ولكنى سرعان



وجاءتنى (حنة) ببعض الحساء والخبز المحمص
لفذائى فيما اعتقيد « فالتت بشهية

ما تذكرت أن الغضب لا يجدي ، وأنتي فعلا كنت أبغى كالمسولة ..
فأجبتها في هدوء لا يخلو من بعض الحزم :

« إنك تخطئين إذا حسبتني مسولة ، فأنا أبعد عن التسول بعدك
وبعد سيدتيك عنه .

فمكنت لحظة ثم قالت : « لست أفهم .. ألسنت بلا دار
ولا نحاس ؟ »

« إن الحاجة إلى الدار والنحاس .. وأظنك تعنين به المسال ..
لا تكفي لأن تجعل الإنسان متسولا كما تعني كلماتك .

فسألني على الفور : « أمتعلمة أنت ؟ » .

فأجبت : « أجل ، وإلى درجة كبيرة » .

« هل دخلت مدرسة داخلية ؟ »

« نعم ، وقضيت بها ثماني سنوات .

فاستعت عنها وقالت : « إذن فلماذا لا تستطيعين إعالة نفسك ؟ »

« لقد كنت أعول نفسي وسأعوها مرة أخرى .

ولما أخرجت سلة من الكرز قلت : « ما الذي تعزمين صتعه بهذه

الفاكهة ؟ » ، فأجابت : « فطائر ! » .. فقلت : « هاتيها لأعني

بإقصاء الثمار غير الطيبة » . وإذا أجابت : « كلا .. لا أريد أن تعمل

شيئا » ، قلت لها : « بل يجب أن أقوم بعمل ما ، هاتي الفاكهة ! » :

وقبلت ، فجاءتني بمنشفة نظيفة نشرتها على ثوبي حتى لا يتسخ ،

وهي تقول : « أرى من يدبك أنك لم تمارسي أعمال الخدم من قبل :

فهل كنت تما سين الحياكة ؟ »

« كلا .. لقد أخطأت الخدم ، لا أهتمي بما كتبه ، ولا تشغلي
بالك في ولكن ما اسم المنزل الذي نحن به ؟ »

« بعضهم يسميه (مارش آند) والبعض الآخر يسميه (مور
هاوس) .

« والسيد الذي يقيم هنا .. أيدعي مستر سانت جون ؟ »

« لا ، إنه لا يقيم هنا . ولكنه جاء لبعض الوقت . أما مقامه ففي
أبروشته بمودتون .

« تلك القرية التي تبعد بضعة أميال عن هنا ؟ »

« وإذا قالت : « نعم » ، عدت أسأله : « وماذا يعمل ؟ » .

فأجابت : « إنه قس .. وتذكرت رد مديرة المنزل العجوز في بيت

راعي الكنيسة ، عندما طلبت إليها أن أقابل التيسيس ، فقلت : « إذن

فهذا بيت أبيه ؟ »

« نعم كان مستر ريفرز الشيخ يقيم هنا ، ومن قبله والده وجده

وجده الأكبر .

« إذن فاسم هذا السيد هو مستر سانت جون ريفرز ؟ »

« نعم . ويبدو أن (سانت جون) اسمه عند التعميد .

« وهل تدعي شقيقته ديانا وماري ريفرز ؟ »

« وأجابت : « هو ذلك » . فعدت أسأله : « وهل توفي أبوه ؟ »

فقلت : « منذ ثلاثة أسابيع » . وإذا ذاك سألتها : « أو ليست لهم أم ؟ »

فأجابت : « لقد توفيت منذ سنوات »

« وهل قضيت مع الأسرة طويلا ؟ »

— قضيت هنا ثلاثين عاماً ربيت خلالها الإخوة الثلاثة !

— هذا يدل على أنك خادِم أُمينة مخلصة ، وسأفوض إليك بالكثير

وإن بلغت بك السجاجة أن دعوتني متسولة !

فحملت في وجهي مرة أخرى وهي مشدوهة ثم قالت : «أعتقد أنني كنت مخطئة فيما خطر لي عنك ولكن المظاهر خداعة فاعذريني !» ولكنني استأنفت حديثي بشيء من الحدة والصرامة : « ومع ذلك فقد شئت أن تعارِفيني عن بابك في ليلة ما كان ينبغي أن تعارِدي فيها كلباً من الكلاب » .

— كانت قسوة مني ، ولكن أتي حيلة للإنسان في ذلك وقد كان تفكيرى في الفتاتين أكثر منه في نفسي ، إذ ليس هناك من يهم بهاتين المخلوقتين المسكينتين غيرى ، ولذلك أبدو على شيء من الحدة ! وأخذت لحظة إلى صحت متجههم فقالت : « أرجو ألا تقضى في الحكم على » !

— بل إنني أقسو ، لا لأنك أبيت إيوائى ، أو ظننتي عسالة ! وإنما لأنك عبرتني منذ قليل بأننى لا أملك داراً ولا مالاً ، مع أن العالم زاحر بالفقراء والمعوزين ممن هم على شاكلي . ولو أنك كنت تقية لما اعتبرت الفقير جرمًا !

— لن أفعل ذلك بعد الآن . وهكذا حدثني مستر سانت جون ، ولذلك أدركت غلطتى . وقد غيرت الآن فكري .. إنى لأراك مخلوقة لطيفة مستقيمة .

— حسناً . لقد صفحت عنك فصافحني :

فوضعت يدها الخشنة المكسوة بالدقيق في يدى ، وأشرق وجهها الجلف بإبتسامة طيبة ، وصرنا بعد ذلك صديقتين .

■ وكان من الجلى أن حنة مغرمة بالكلام والثروة ، فلما أخذت أفرز الثمار واتهمكت بدورها في إعداد العجين للبطائر ، راحت تقصص على التفصيل كل شيء عن المرحومين سيدها وسيدتها ، وعن الفتاتين ، فقالت : إن مستر ريفرز الشيخ كان رجلاً بسيطاً ، ولكنه سيد من أعرق العائلات ، وأن ضبعة (مارش آند) ملك لهم منذ كانت منزلاً عتيقاً شيدته العائلة منذ مائتي سنة ، ولا يقارن بالبهو الكبير في قصر مستر (أوليفر) في (مورتون) . ومع ذلك فقد كان والد (بيل أوليفر) صانع إير متجول « في حين كان آل ريفرز من السادة ملاك الأراضي منذ عهد الملك هنرى . كما يستطيع كل امرئ أن يرى بنفسه في سجلات كنيسة (مورتون) . على أن السيد لم يكن يمتاز بغير ولعه الجنونى بالصيد والزراعة وما إليهما ، أما زوجته فكانت على النقيض ، تشغف بالقراءة والاطلاع ، وقد أخذ أولادها عنها ذلك الشغف ، فلم يكن في تلك الأصقاع — ولن يأتي — من يفوق ثلاثتهم علماً ، إذ كانوا يدرسون منذ نعومة أظفارهم ، وقد اختار كل منهم مستقبله . فلما كبر مستر سانت جون ، تعلم وأصبح كاهناً . أما الفتاتان ، فقد اختارتا عندهما أتمتا الدراسة ، أن تصبحا مربيتين ، إذ أخبرتاها بأن أباهما فقد شطراً كبيراً من ثروته منذ سنوات — إثر إفلاس رجل كان قد التزمه على ماله — ومن ثم لم يعد في وسعه أن يخلّف لها ثروة ، فكان عليهما

أن تكسبا عيشهما .. ولم تكونا تقيان في الدار إلا لفترات قليلة — منذ زمن — وما جاءنا أخيراً إلا لتكننا بضعة أسابيع : بعد موت أبيهما ، ولكنهما كانتا تحبان (مارش آند) و (مورتون) والمستنقعات والتلال المحيطة بهما .. وقد زارتا لندن وغيرها من المدن الكبيرة وإن ظلتا تؤكدان أن لا شيء يعدل عندهما مسقط رأسيهما . وهما متحاضنان « فلم يقع بينهما خلاف قط ، ولا تكاد توجد للأمرأة شبيهة في التضامن ! وإذا انتهت من مهمتي في تنقية الكرز ، سألتها عن السيدتين وأخيهما ، فقالت : « لقد ذهبوا يتششون إلى قرية (مورتون) وسبعودون قبل نصف ساعة لتناول الشاي .. » والواقع أنهم حضروا قبل الموعد الذي قدرته حنة ، فدخلوا المنزل من باب المطبخ . ولما رأي مستر سانت جون اكتنى بأن حتى رأسه ثم واصل السير . أما السيدتان فقد توقفتا ، وأعربت لي ماري عن ابتهاجها لرؤيتي بخير وقادرة على التزول بيذا تناولت ديانا يدي ثم هزت رأسها وقالت : « كان ينبغي أن نتظري حتى أسمح لك بالتزول ، فإنك ما زلت شاحبة نحلة يا مسكينة ! »

وكان لها صوت جميل الوقع في أذني ، فكأنه هديل الحمام ، ونظرة أحسست بهجة كلما التفت بنظرتي ، ووجه مليء بالسحر في عيني : وكذلك كانت أسارير ماري تتم عن نفس اللكاه والجلال ، ولكنها كانت تبدو أكثر تحفظاً . كما كان حديثها يتسم بنخب السيطرة والسلطان ، وبدل على مضاء العزيمة . وكنت أجد بطيئتي راحة في الخضوع لثل هذا النفوذ ، وفي أن أنفي للإرادة الماضية ، فيما يسمح به ضميري وترضى عنه كرامتي .

واسترسلت ديانا تقول : « وماذا تفعلين هنا ؟ ليس هذا مكانك .. إني وماري نجلس في المطبخ أحياناً ، لأننا نحب ونحن في المنزل أن نتحرر وألا تنقيد بشيء ، ولكنك زائرة ، فيجب أن تذهبي إلى غرفة الجلوس » . فقلت : « بل إني معتبلة هنا » ، ولكنها قالت : « لا غبطة على الإطلاق مع صحب حنة وديققها الذي يتناثر عليك ! » . وتدخلت ماري في الحديث قائلة : « ثم إن الزيران هنا أشد من أن تحتملها » ، فأردفت أختها تخاطبني : « بالتأكيد « هيا ، وكوفي مطيعة ! » .

وأتهضتي وهي ما زالت ممسكة بيدي ، فقادتني إلى الغرفة الداخلية حيث أجلسني على أريكة وقالت : « امكثي هنا ربمما نخلع ثيابنا ونعد الشاي فإنه ليحلو لنا ونحن في دارنا هذه أن نمشي وجباتنا بأنفسنا عندما نحب ، أو عندما تكون حنة مشغولة بالخبز أو بصنع الجمعة أو الغسيل أو الكي ! .. » ثم أغلقت الباب لتتركني وحيدة مع مستر سانت جون الذي كان يجلس في مواجهة منصرفاً إلى كتاب أو صحيفة كانت في يده ، فرحت في أول الأمر أنأمل الحجرة ثم أخذت أتأمل شاغلها : كانت حجرة الجلوس صغيرة بسيطة الرياش ، ولكنها نظيفة أنيقة بمقاعدها القديمة اللامعة ، ومنضدة من خشب الجوز أشبه بالمرآة المصقولة « ووضع صور عجيبة عتيقة لرجال ونساء من الزمن السالف وصوان ذي أبواب زجاجية يخنوي على بعض الكتب وطاغم قديم من الخزف . ولم أر في الحجرة زينة لا داعي لها ، ولا شيئاً من الرياش الحديث سوى صندوقين ومكتب نسوي من خشب الورد ، قام بجانب منضدة بمحار الحائط . وهكذا كان كل شيء في الغرفة — بما في ذلك

اليساط والسائر - يتم لأول وهلة عن حسن التنسيق والاختيار :
 وكان مستر سانت جون ساكناً في جلسته سكون الصور المعلقة إلى
 الجدران ، وقد تسمرت عيناه على الصفحة التي كان يطلعها ، وأطبقت
 شفاته ، مما مكّني من تفحصه بسهولة . ولو أنه كان تمثالا وليس
 إنساناً لكانت مهمتي أسهل وأيسر : كان شاباً بين الثامنة والعشرين
 والثلاثين ، طويل القامة - نحيل الجسم - يجذب وجهه النظر لأنه كان
 يشبه الوجه الإغريقي في نقائه وصفائه وأفضه المستقيم . كما كان له فم
 وذقن من أثينا . والواقع أنه قل أن تجد وجهاً إنجليزياً أقرب من وجهه
 إلى التماذج القديمة . ومن ثم فقد كان على حق حين صدم لعدم تناسب
 أساريرى وهو على هذه الملاحظة . إذ كانت عيناه واسعتين زرقاوين ،
 وكانت أهدابه سوداء ، وكان جبينه كالعاج تتدلى عليه خصلات من
 شعره الجميل في إحمال .. أليس هذا رسماً دقيقاً لمعلمه « أيها القارئ ؟ »
 ولكن ، من الذى لا يؤثر - بأوصاف كهذه - في نفس أوثيت مثلى
 طبيعة رقيقة طيبة سهلة القيادة على جانب كبير من الوداعة ؟! وبالرغم
 من هدوئه في جلسته ، فقد كان ثمة شيء حول خياشيمه وقفه وجبينه
 يدل - فيما بدا لي - على معالم توحى بالقلق : أو ضبط النفس والتلف .
 ولكنه لم يوجهه إلى كلمة أو نظرة واحدة : حتى عادت شقيقته :
 وجاءتني ديانا بكعكة صغيرة خبزت على ظهر الفرن ، وهي تقول :
 - كلى هذه الآن لأنك جائعة بلا شك ، فقد أخبرتني حنة أنك
 لم تتناول شيئاً بعد الإفطار سوى بعض التريد .
 ولم أرفض ، لأن معلتي كانت قد تيفظت وناقت إلى الطعام :

وعندئذ أغلق مستر ريفرز كتابه واقترب مني ثم راح - وهو يتخذ
 لنفسه مجساً - يتفرس في بعينه الزرقاوين الجميلتين . وقد ارتسمت
 فيهما استقامة غير متكلفة وعزم نافذ راسخ ، مما دلني على أنه لم يكن
 يتحاشى النظر إلى الغريبة عن الدار تيمياً وإنما عن قصد وعمد : وما لبث
 أن قال : « إنك جد جوعانة ! » . فأجبت : « نعم ياسيدى .. إن من
 عادتي .. وكانت دائماً عادتي بالسليقة - أن أقابل القلة بالانقصاص ،
 والوفرة بالإقبال ! » .

كان خيراً لك أن تضطري بسبب الجسم البسيطة إلى الامتناع
 عن الأكل ثلاثة أيام . إذ كان هناك خطر من تلبية نداءات الجوع في
 بادئ الأمر . أما الآن في وسعك أن تأكلى ، ولكن في اعتدال !
 - ثم أننى لن أتناول الطعام طويلاً على نفقتك ياسيدى :

وكان رداً نابياً غاية في السجاعة . ولكنه أجباني في برود : « كلا
 فسوف نكتب إلى أصدقائك متى دلتنا على مكانهم ، وسعودين إلى
 منزلك » .

.. يجب أن أصرحك بأننى لا أملك هذا ، لأننى بلا صديق
 وبلا منزل !

● وتطاع الثلاثة إلى غير مصدقين .. ولم ألس شكاً في نظراتهم ،
 وإنما مجرد دهشة وعجب .. وأنا بهذا أعنى الفتاتين بصنعة خاصة ، لأن
 عيني سانت جون كانتا - رغم صفائهما - مما يصعب الفوص فيهما ،
 وكأنما كان لا يستخلفهما إلا في سحر أعوار الآخرين وليس في

الكشف عن أفكاره هو .. وكان في نظراته خليط من الحدة والتحفظ مما يبعث على الارتباك لا التشجيع :- وسألتى : « أتقصدين بقولك أنك لا تربطين بأية قرينى على الإطلاق ؟ » :-

— نعم « فلا رابطة لى بأى حى » ولا حق لى فى الالتجاء إلى أى منزل بلإنجلترا .

— بالله من مركز شاذ بالنسبة لفتاة فى سنك !

ثم رأيت نظرة مسددة إلى يدى المعتقدتين أمامى على المنضدة ، وعجبت لأفكاره ، ولكنه ما لبث أن أوضحها بلغة الكلام قائلا : « أما تزوجت قط ؟ .. أعانس أنت ؟ » .. فضحكت ديانا وقالت : « كيف ، وهى لا يمكن أن تكون قد تجاوزت السابعة أو الثامنة عشرة تقريباً يا سانت جون ؟ » .. فقلت : « إننى فى التاسعة عشرة تقريباً ، ولكننى لم أتزوج .. كلا ! » .

وشعرت بوهج مشتعل يزحف إلى وجهى ، لأنه أيقظ بالإلماح إلى الزواج ذكرياتى المرة المثيرة . وشاهدوا جميعاً ما تولانى من ارتباك ، فحولت ديانا وشقيقتها أعينهما عني . أما القس فقد ظل يتفرسقى حتى اشتد تضرع وجهى بالدماء ، واغرورت عيناى بالدموع ، فسألتى : « وأين كنت تقيمين آخر مرة ؟ » .. وهنا نغممت مارى فى خفوت : « إنك تكلم من الأسئلة يا سانت جون ! » .. ولكنه اتكأ على المنضدة ، ورمقتى بنظرة أخرى من نظراته الرصينة الثابتة يتعجلنى الرد . فقلت : « إن اسم المكان الذى كنت أقيم فيه ، والشخص الذى كنت أقيم معه ، من أسرارى » . فقالت ديانا : « فن حقلك — فى رأيى — أن تخفيه عن

مستر سانت جون . وعن كل سائل ، إن شئت « . وإذا ذاك قال القس : « ولكنى لن أستطيع مساعدتك إذا لم أعرف شيئاً عنك وعن تاريخ حياتك ! .. إنك فى حاجة إلى العون .. أليس كذلك ؟ » : فقلت : « بلى .. إننى فى حاجة إليه وأطلبه يا سيدى على يد محب حقيقى للإنسانية ، يرى طريق الحصول على عمل أستطيع أن أؤديه ، وأن أكتسب منه الأجر الذى أتعيش منه ، والذى يوفر لى ولو أترم ضرورات العيش ! » .

— إننى لا أدرى ما إذا كنت محباً صادقاً للإنسانية — بالمعنى الذى تقصدينه — ولكننى راغب فى مساعدتك بقصارى وسعى للوصول إلى عمل شريف . ولكن عليك أن تخبرينى بما اعتدت أن تمارسيه ، وما تستطيعين أن تعمليه .

وكنيت قد شربت الشاى . فشعرت بعد هذا الشراب بانتعاش لا يدب فيه الانتعاش المنبعث من النبيذ المعتق . فقد سرت فى أعصابى قوة جديدة مكنتنى من مخاطبة هذا القاضي الشاب .. الناقب النظرات — بكل ثبات . فاستدبرت إليه وبادلته نظرة بنظرة فى صراحة لا يشوبها تهيب . فقلت : « لقد أسديت لى يا مستر ريجرز — أنت وشقيقتك — خدمة كبيرة لا تدانيها خدمة أى إنسان لآخر فى الإنسانية ، فقد أنقذتمونى بكرمكم النبيل من الموت .. وهذا الجميل يمنحكم الحق فى أن أشكركم وأعترف بفضلكم ، وفى أن تكونوا — إلى حد ما — موضع تقى . ولذلك سأروى لكم من تاريخ الفتاة الشاردة التى آوئتموها القدر الذى أستطيع الإفضاء به دون أن أعكر صفو بالى . ودون أن أعرض أسمى — وأمن

الغير — لخطر أدبي أو مادي ، فأنا يتيمة ، وابنة قيس ، وقد مات والداي قبل أن أعرفهما ، فنشأت عالة على غيري ، وتعلمت في معهد خيرى — سأخبركم باسمه — حيث قضيت ست سنوات في طلب العلم ، وستين كلمة . إنه يدعى ملجأ اليتيمات في (لو وود) ؛ فقبل سمعت به يا مستر ريفرز ؟ إن الأب روبرت بروكلهرست يتفق عليه .

— سمعت باسم مستر بروكلهرست ، ورأيت المدرسة .

— ومنذ عام واحد تقريباً ، غادرت ملجأ (لو وود) لأعمل مربية خاصة وهي وظيفة طيبة سعدت بها ، ولكنى اضطررت إلى تركها منذ أربعة أيام قبل مجيئى إلى هنا . أما السبب الذى حملنى على الرحيل ، فلست أملك أن أفصح به ، لأن الإفشاء غير مجد ، وخطر ، فضلاً عن أنكم لن تصدقوه . على أنه لا لوم علىّ في ذلك ولا تريب . بل إننى لا أقل عن أى فرد من ثلاثكم بعداً عن الجرم . إننى تعسة وسأظل كذلك زمناً ، لأن الكارثة التى طوحت بي من المنزل الذى ظننته جنتى كانت كارثة غريبة مروعة ، ولم أكن معنية في فرارى بغير نقطتين : السرعة والتكتم .. ولبلوغ هذه الغاية ، تركت خلفى كل شيء عدا حزمة صغيرة نسبها — لعجلتى واضطرابى — في العربة التى أقلتني إلى (هويتكروس) . وإلى هذه المنطقة جنت بالغة الفقر والعوز ، فبت ليلتين في العراء ، وهمت على وجهي يومين دون أن أجتاز عتبة من الأعتاب ، ولم أذق الطعام في تلك الأثناء سوى مرتين ، إلى أن أشرقت على الهلاك جوعاً وتعباً وقنوطاً ، فانتشلتنى أنت يا سيدى من الموت أمام بابك ، وأخذتنى تحت سقفك : وقد عرفت ما فعلته شقيقتك من

أجلى ، لأننى كنت غائبة عن الوعي أثناء ما حسبتموه سباتاً عميقاً ، فأنا مدينة لرحمتها الأصلية غير المصطنعة ، بقدر ما أنا مدينة لإحسانك المتبعث من قلب يعرف الإيمان .

■ وإذ أخذت إلى الصمت ، قالت ديانا : « لا تحملها الآن على مزيد من الكلام يا سانت جون ، فإنها لا تحتمل الانفعال ، تعالى واجلس على هذه الأريكة ، يا مس اليوت .. » فارتجفت بمفلة — على الرغم منى — عندما سمعت الاسم المستعار ، إذ كنت قد نسبت اسمى الجديد ، ولكن مستر ريفرز — الذى لم يكن يفوته شيء — سرعان ما لاحظ ذلك وقال : « ألم تقولى إن اسمك جين اليوت ؟ » .. فأجبت : « قلته .. ! » فهذا هو الاسم الذى أراه مناسباً في الوقت الحاضر ، ولكنه ليس اسمى الحقيقى . ولذلك كان له وقع غريب في أذنى عندما سمعته .

— ألا تذكرين اسمك الحقيقى ؟

— كلا فإن أخشى ما أخشاه أن يكشف أمرى وأحب أن أتمائى ما قد يؤدى إليه هذا الكشف !

فقالت ديانا : « إنك على حق : والآن أرجو يا أختى أن تتركها قلباً في سلام ! »

ولكن ما إن أطرق (سانت جون) بضع لحظات ، حتى عاد إلى حديثه برباطة جأش وبراعة كعادته ، فقال : « إنك لن تقبلى أن أترككنى إلى ضيافتنا طويلاً ، إذ رغبين في التخليص — بأسرع

ما تستطيعين - من حنان وعطف شقيقتي ومن إحسانى (على الأخص) رغبة منك فى الاستقلال عنا ..

- هو ذلك . وقد قلته من قبل . فأرى كيف أعمل - وكيف أجد عملاً . هذا كل ما أرجوه ، وبعد ذلك دعنى أذهب ولو إلى أحقر كوخ . ولكن لا تطردنى من بيتك - قبل أن يتم ذلك - وأبقى هنا لأبني أخشى أية تجربة جديدة بين أهوال التشرد والفاقة .

فقلت ديانا وهي تضع يدها البيضاء على رأسى : « لسوف تبقي ولا شك » .. وكررت ماري ذلك بلهجة من الإخلاص بدت طبيعية إذ قالت : « ستمكثين هنا ! » . فقال مستر سانت جون : « إن شقيقتي تذهبان - كما ترين - ببقالك . ابتاهجهما بلؤواء وإكرام طائر طوحت به إلينا رياح الشتاء وهو موشك على الموت برداً . ولسوف أعينك على أن تكفى نفسك . ولكنى أرجو أن تلاحظى أن منطقتي صغيرة . وأنت لست أكثر من قسيس لأبرشية صغيرة فقيرة ، ولذلك ستكون مساعدتي ضئيلة متواضعة . فإذا لم ترق فى عينيك يوماً من الأيام وجب أن تبعثى لك عن معاونة أكثر مما فى طاقتي » . فأجابت ديانا عنى قائلة : « لقد قالت إنها رغبة فى أى عمل شريف تستطيع القيام به . وأنت تعلم جيداً يا سانت جون أنها ليست مطلقة الحرية فى اختيار من يساعدها ولكنها مكرهة على أن تلجأ إلى أمثالك من الأنكاد ! » . فقلت : « بوسعى أن أكون مائدة - أو عاملة .. بل سأعمل خادمة أو مربية إذا لم أجد خيراً من ذلك ! »

فأجاب مستر سانت جون فى برود تام : « حسن - إذا كانت

هذه روحك فأنى أعذك بالمساعدة فى الوقت الذى أراه وبالطريقة التى أختارها » . ثم عاد إلى كتابه الذى كان مشغولاً به قبل الشاى ، وسرعان ما انسحبت . إذ كنت قد تحدثت كثيراً وجلست طويلاً ، رغم ضغنى ووهنى .

* * *

الفصل الثلاثون

■ أخذت حبي لأهل (مور هاوس) يزداد كلما ازدادت معرفة بهم ، ولم تنقضى سوى أيام قلائل حتى استرددت صحتى ، فاستطعت الجلوس طوال النهار ، والتمشى فى الخارج فى أحيان كثيرة ، والاشتراك مع (ديانا) و (مارى) فيما كانتا تعملان ، والتحدث معهما فيما يحلو لهما . ومعاونتهما كلما سمحتا لى .. ووجدت فى معاشرتها لذة نجي موات النفس !.. لذة من نوع لم أتذوق مثله من قبل ، لأنها أبعثت عن تجانس تام فى الأذواق والخواطف والمبادئ . فقد أحببت قراءة ما كان يطيب لهما مطالعته ، وكان ما يروق لهما يبهجنى ، وما تميلان إليه يلقى تقديراً منى .. وكأنا تحبان منزلهما المنزول ، وكذلك أحببت أنا ذلك المبنى الصغير العتيق ، بسطحه المنخفض ، ونوافذه الموشاة بالنباتات الزاحفة . وجدرانها المكسوة بالأعشاب المتسلقة ، وذلك الدرب الممتد بين صفتين من أشجار الشربين التى كانت تنمو مائلة تحت دفع الرياح الجليية . والحديقة المكتظة بأشجار السدر والتي لم يكن ينبعث فيها إلا أقوى الزهور احتمالاً .. وألفيت فى كل ذلك سحراً قوياً مستندباً !

وكانت الفتاتان تهبان بالأجسام الأرضية المستندبة تخاف المنزل

وحوله ، وبالوادي الخفيض ، والطريق المصروف بالحصى والذى كان يقضى صعداً من جوفه إلى باب البيت . ويتعرج ويتلوى بين الشطآن المكسوة بنبات السرخس . ثم بين بعض الحقول التى تحف بالآجام الموحشة ، والتى تربي عليها الأغنام الشياه والخراف الصغيرة الأجسام . الموفرة الصوف . بل إننى لأذهب إلى القول بأن الفتاتين كانتا تعلقان بهذا المنظر فى حماس صادق ، تام ، ما لبثت أن أدركت مبعثه . فشاطرتهما إياه . ولمست ماثلهما فتنة هذا المكان . وشعرت بقداسة هذه العزلة . وتمتعت عينى بتلك الآفاق . كما نعمت بالألوان التى كان يخلعها الطحلب والنباتات والزهور البرية على القيم والوديان . وأصبحت تلك المعالم بالنسبة لى . كما كانت بالنسبة للفتاتين . مبعث غبطة صادقة . عذبة .. وصارت الريح الهوجاء والنسيم العليل . واليوم العاصف واليوم المسدئ . وساعات الشروق وساعات الغروب ، وضوء القمر ، وديجور الليل الملبد بالسحب .. صارت كل هذه تفتلنى بقدر ما كانت تفتن الفتاتين . وتغمر مشاعرى بنفس السحر الذى كانت تغمر به مشاعرهما !

كذلك كان الانسجام تاماً بيننا فى داخل الدار . فقد كانت الفتاتان مثقفتين . وأكثر منى اطلاعاً ، ولكننى رحمت أفتنى آثارهما . فى توق وشغف . فى طريق المعرفة الذى ملكناه قبلى . وأقبلت ألتهم الكتب التى كنت أستعيرها منها ، وأجد متعة فى أن أناقشهما فى المساء فيما طالعه أثناء النهار .

وإذا كان لثالثونا رئيس وزعيم ، فقد انعقدت الزعامة لديانا التى

كانت نفوقنا فى الجسم ، كما كانت ظريفة ذات عزم ومضاء . أما حيويتها فكانت دنيا زاخرة أثارت دهشتى وإن دقت على فهمى . وكنت أعدت قليلاً فى صدر المساء ، حتى إذا تقدمت معنى وزايلتى طلاقى ، جلست على مقعد خفيض عند قدمي ديانا واعتمدت برأسى على ركبتيها ورحت أصغى بالتتابع إليها وإلى أختها مارى وهما تديران الموضوع الذى أكون قد أثرته . وعرضت ديانا أن تعلمنى الألمانية . فأحببت أن أعلم على يديها . ورأيت دور المعلمة يرضينا ويلائهما . كما كان دور التلميذة يرضينى ويلائهنى بعد أن توافقت طابعنا وتبادلنا الحب نتيجة لذلك . واكتشفت الشقيقتان أننى أستطيع الرسم فسرعان ما كانت أقلامهما وعلب ألوانهما فى خدمتى . وقد أدهشتهما وفتنهما مهارتى وتفسوق عليهما فى هذه الناحية ، فأخذت مارى تجلس بجانبى وتراقبى ساعات طويلة . ثم تلتقى على ردى دروساً فى الرسم تظهر فى أنثائها أنها تلميذة طيبة ذكية مثابة . وهكذا مرت الأيام كأنها ساعات والأسابيع كأنها أيام .



● أما ستر سانت جون : فإن المؤدة التى توطدت بسرعة وبلا تصنع بينى وبين شقيقته لم تحب إليه ، لأنه قلما كان يملك فى المنزل . والظاهر أن جزءاً كبيراً من وقته كان مكروساً لزبارة المرضى والفقراء من سكان أبروشيه المختلطين . ولم يكن أى نوع من أنواع الطقس ليصده عن القيام بهذه الترهات الخلووية . فلم يكن يبالى - متى انتهى من ساعات درس الصباح - بمطر أو محو . بل كان يتناول فيعده ويخرج

ليؤدي رسالة الحب والواجب ، يتبعه (كارلو) كلب أبيه .. ولست أدري في أي ضوء كان ينظر إلى رسالته هذه ، فقد كانت شقيقتها في اليوم غير الملائم تعترضان على خروجه ، ولكنه كان يجيبهما بابتسامة عجيبة فيها من الرزائة أكثر مما كان فيها من الابهاج : « إذا كانت نشفة من ريح أو نثار من المطر يمنعني من أداء هذه الواجبات السهلة ، فأني مستقبل أوجه نفسي بمثل هذا الكسل والاسترخاء ؟ » وكان رد ديانا وماري على ذلك يمثل عادة في زفرة وبعض لحظات من التفكير الآسي .! على أنه كان ثمة حائل آخر - إلى جانب هذا الشغب الكثير اللدائب - يمنعه من أن يصادقني .. ذلك أنه كان متحفظاً شارداً الفكر ، كثير التأمل بطبيعته ، وبالرغم من أنه كان ناصع السيرة ، غيراً على واجبه الكنسي ، إلا أنه كان - على ما يظهر - ينعم بذلك الغموض الفكري والرضى الداخلي الذي ينعم به كل رجل ديني محب للإنسانية ، فقد طالما شاهدته - وهو جالس إلى مكتبه يطالع أو يكتب - يلقى بالكتاب أو القلم ويعتمد بقلبه على يده ، ثم يسلم نفسه إلى أفكار لم أكن أدري في أي طريق تنجس ، ولكنها كانت ولاشك مزعجة مثيرة . كما كان يوحى تباين وميض عينيه واتساع حديقته .. وأحسب كذلك أن الطبيعة لم تكن له - كما كانت لشقيقتيه - مصادر بهجة وغبطة .. ولقد عبر مرة - ولكنه لم يفعل على مسمع مني سوى مرة واحدة - عن إعجاب قوي بما كان للتلال من بحر عابس ، وعن حب غريزي للبحر من القاعة العتيقة التي كان يدعوها منزله ! .. بيد أن اللهجة والكلمات التي عبر بها عن إحساسه هذا ، كانت تتم عن اكتساب أكثر مما أوحى

بإبهاج . كما أنه لم يكن يتجول في أنحاء المروج والآجام حياً في سكونها الذي يهدئ الأعصاب . ولم يكن يبحث أو يعنى بالآلاف من مباهجها المصامتة !

ونظراً لزمرد في العشرة والاختلاط بالغير ، فقد انقضت فترة طويلة قبل أن تسبح في الفرصة لسبر غور أفكاره . وقد أدركت مداها لأول مرة عندما سمعته يحط في كنيسه في (مورتون) . وبودي لو أقوى على وصف تلك الملاحظة . ولكن هذا فوق مقدوري ، بل لأنني لأستطيع حتى بيان التأثير الذي تركته في نفسي . فقد بدأت الملاحظة هادئة ، والواقع أنها - من حيث ارتفاع الصوت والإلقاء - ظلت هادئة حتى النهاية .. ولكن سرعان ما سرى حماس مكبوح في نبراته الواضحة ، فراح يستحث الكلمات العصبية - فإذا بها تزداد قوة .. ولكنها كانت قوة مضغوطة . مكبوحة العنان .. واهتز القلب - وذهل العقل ، لقوة الواعظ . وكانت تشيع في العظة مرارة عجيبة .. كانت تعوزها الرقة المسرية . وتعددت فيها الأماعات القاسية إلى عقائد « كالفن » الإصلاحية - كالانتخاب والردل ، وكالقضاء والقدر . والاستنكار - وكان لكل الماعة من هذه . وقع الحكم بالإعدام . فلما انتهى من خطابه ، ثم أشعر بأنني غلوت بخديته أحسن حالا أو أهدأ بالاً أو أكثر انشراحاً ، ولما غشيتني شعور بالحزن والأسى ، إذ أدركت - أكثر من غيري - أن هذا البيان النصيح الذي كنت أصغى إليه إنما ينبعث من أعماق يشوبها عكر اليأس ورواسب القنوط ، ونفضير قبلي بوعث ، مطامح لاتين وآمال لاتشيع .. ووجدتني أوقن من أن كانت جون يوز وأنا كان

هنا ، رأيت من عدم الثبات أن أعكر صفو سعادتك إلى أن يحين وقت سفرهما .

— سوف تسافران في مدى ثلاثة أيام .

— نعم . وسأعود إلى منزلي في (مونتون) بعد سفرهما ، وستذهب حنة معي ويطلق هذا المنزل العتيق .

ثم سكت . فانتظرت أن يعاود حديثه في الموضوع ، ولكني رأيت أفكاره قد شغلت بتأملات أخرى ، وشردت عني وعن عملي ، فاضطرت إلى أن أنبهه إلى الأمر الحيوي الذي يهني . وسألته : « وما نوع العمل الذي وجدته بامسر ويفرز ؟ .. أرجو ألا يزيد هذا التأخير في صعوبة الحصول عليه » .

— كلا . إنه يتوقف فقط على أن أعرضه عليك وأن تقبله .

ثم سكت ثانية . زهداً في الحديث ، فنفذ صبري وارتسمت على وجهي نظرة قلقة أغشت عن الكلمات فقال : « لا تتعجلي ، بل دعيني أنجبرك بصراحة أن ليس لدى شيء واضح أو ذو فائض أقدمه لك . وقبل الشرح أرجو أن تذكرى ماقالتك ، وهو أنني إذا قدمت لك مساعدتي فلنما لن تزيد على مساعدة الأعمى للمقعّد . إنني رجل فقير » وقد اكتشفت هذه الحقيقة بعد أن سددت ديون أبي ، فوجدت أن كل ما تبقى هو هذا البيت العتيق المتداعى ، وصف من أشجار الشربين العقيمة ، والأرض الحماة الممتدة أمام الدار .. وأنا ما أزال نكرة .. إن اسم (ريفرز) عريق ، ولكن الثلاثة الوحيد من سلالته كما تربهم : الثمان تكسبان عيشهما بخدمة الأغنياء .. هو الثالث يعتبر نفسه

نقي السيرة ، حتى الضمير ، شديد الغيرة ، إلا أنه لم يجد هدوء الروح والنفس ، الذي يجعل عن الفهم .. وطاق بخاطري أنه — في ذلك — لم يكن أسعد حظاً مني وسط أحزاني المكثومة ، المتأججة .. أحزاني على معبودي الذي تحطم وفر دوسى الذي ضاع .. أحزاني التي تجتبت أخيراً أن أشير إليها ، وإن ظلت تستبدني وتعذبني بلا رحمة أو هوادة .

● وانقضى في تلك الأثناء شهر ، فاقرب موعد رحيل ماري وديانا عن (مور هاوس) لتعودا إلى الحياة البعيدة المختلفة التي كانت تنتظرهما كريبيتين ، في إحدى المدن الكبيرة الحديثة بمجنوب إنجلترا . حيث تعمل كل منهما في أسرة غنية متعالية تعتبرها تابعة وضيعة ، ولا تقدر مزاياها إلا بالمقياس الذي تقدر به مهارة الطاهية أو ذوق خادمة المائدة .. ولم يكن مستر سانت جون قد حدثني بشيء عن العمل الذي وعد بالحصول عليه من أجل . فلما وجدتني وحيدة معه ذات صباح في حجرة الجلوس . لبضع دقائق ، تجرأت واقتربت من فجوة النافذة القريبة من مكتبه ، وهمت بأن أتحدث ، وإن لم أدرك كيف أصوغ سؤالاً أمام جليد التحفظ الذي كان يكسوطباعه ، ولكنه كفاني تلك المشقة بأن بدأ الحديث ، إذ سألتني عندما اقتربت : « هل لديك ما تسأليني عنه ؟ » .

— نعم أود أن أعرف عما إذا كنت قد سمعت بعمل أستطيع أن أتقدم للقيام به ؟

— لقد وجدت ، أو بالأحرى ابتكرت عملاً لك منذ ثلاثة أسابيع ، ولكني عندما وجدتك تقضين وقتك في سرور وارتباط مع شقيقتي

غريباً عن بلده : لا في الحياة فحسب - بل وحتى في الموت .. أجل :
 وإياه ليظن - ويجد نفسه مسوقاً إلى القلن - بأنه لن يلقى التكريم من
 قومه ، ولن يتاح له أن يلهمهم إلا بعد أن يعمل على كنفه صليب
 التحرر من روابط الجسد ، وعندما يتف به قائد المجاهدين من رجال
 الكنيسة -- الذين يعتبر نفسه أقالهم شأنًا -- أن : « قم واتبعني ! » .

تطلق سائت جون بهذه الكلمات بنفس الصوت الهادئ العميق الذي
 يلقى به مواظفه ، وقد غارت وجنته ، واتبع من عينيه بريق وهاج .
 ثم استطرد : « ولما كنت فقيراً ، نكرت . فندست أملك أن أقدم لك
 سوى عمل فقير . متواضع . وقد ترين في ذلك حيلة . إذ أنني تبيأت
 أن عادائك مما يسميه الناس : « راقية مهذبة » ، ولأن أذواقك تنحو
 إلى السمو ، ولأن مقامك كان بين المثقفين .. على الأقل . على أنني
 لا أرى حيلة في أي عمل يؤدي إلى تحسين عنصرنا . إنني أعتقد أنه كلما
 اشتد جذب الأرض التي يقدر على المسيحي العامل أن يتعهد في حرثها -
 ومهما نضال ما يستتبعه منها : كان نصيبه من التكريم أسمى ! .. إن
 حظه إذ ذاك حفظ المجاهد في الطليعة ، والرائد .. وقد كان أول الرواد
 في الإنجيل هم الخواريون .. الرسل ! .. وكان قائدهم هو المسيح . المقدس
 والمخلص ! » .

وإذ عاد إلى السكرت : قلت : « حسناً .. استمر ! » . فطلع إلى
 وكأنه يقرأ وجهي . كما لو كانت أسارى حروفاً مخطوطة ! .. وعبر
 عما استخلصه من هذا الفحص بالعبارة التالية : « أعتقد أنك ستقبلين
 المهمة التي سأعرضها عليك : وستؤدينها .. لا بصفة دائمة : وإنما إلى

أجل : فإن في طبيعتك مائى طبيعتى من عوامل تتأذى من الراحة .. وإن
 كانت عواملك من نوع غير نوع ما لدى ! » .

وأخذت ناصمت مرة أخرى - فقلت : « أرجو أن تزيدنى إيضاحاً ! »

.. سأفعل : وسترين كم هو فقير ، ناه هذا الاقتراح .. إننى لن
 أقوم طويلاً في « مورتون » بعد أن توفى والدى وأصبحت أملك زمام
 نفسى . ومن ثم قربنا غادرت هذا المكان في غضون اثني عشر شهراً ،
 ولكنى لن أكف - مادمت مقيماً في المنطقة -- عن بذل قصارى الجهد
 في سبيل تحسين حالها . فعندما قدمت إلى « مورتون » -- منذ عامين --
 لم تكن فيها مدرسة واحدة ، بل كان أطفال الفقراء محرومين من كل أمل
 في التعلم . ومن ثم فقد شيدت مدرسة للبنين . وقد قررت أخيراً أن
 أنشئ مدرسة أخرى للبنات . فاستأجرت مبنى لهذا الغرض ، وكوخوا
 يتصل به وبضمت غرفتين للمعلمة المدرسة التي سيكون مرتبها ثلاثين جنياً
 في العام . وقد أتممت تأثيث مسكن المعلمة هذا - بأثاث بسيط ولكنه
 كاف . وذلك بمعونة (مس أوليفر) « الابنة الوحيدة لأثرى الوحيد في
 أبراشيتي . وأعني به مسر أوليفر ، صاحب مصنع الإبر والمبيلك
 القاعين في الوادى . وستكفل هذه السيدة - مس أوليفر -- بنفقات
 تعليم وكس - فتاة بئمة تحتلها من الملجأ لتعاون معلمة المدرسة في الأعمال
 المنزلية والمدرسية البسيطة - التي تحول واجبات المعلمة دون أن تباشرها
 بنفسها . فهل تقبلين أن تكوني هذه المعلمة ؟ » .

● ألقى سؤاؤه هذا في شيء من العجلة : وكأنه يخشى أن يرفضه في شيء

ولإيه ، غير مدرك حقيقة أفكارى ومشاعرى . بل إنه كان يدرك بعضها ، إلا أنه لم يكن يدرك على أى ضوء سبيلى الأمر . والواقع أن العمل كان متواضعا ، ولكنه كان يكفل لى المأوى .. وكنت بحاجة إلى مثل هذا المأوى الآمن ! .. كان عملا شاقا ، ولكنه إذا قورن بعمل المربية فى منزل من منازل الأثرياء ، امتاز عنه بالاستقلال . ثم إن الخوف من ربة الأعراب كان يثقل على نفسى ، فى حين أن هذا المقترح لم يكن يتطوى على هوان أو ضعة أو أى امتهان أدبى . ومن ثم حزمت أمرى وقلت : « أشكر لك اقتراحك يا مستر ريفرز ، وأقبله راضية ! » .

— يجب أن تفهمى أنها ستكون مدوسة قروية . وأن تلميذاتك سيكن من البنات الفقيرات .. وبنات الفلاحين والمزارعين على أقصى تقدير . وسيكون التطريز والخياطة والقراءة والكتابة والحساب هو كل ما تعلمينه لهن . فإذا تصنعين بثافتك وبغفلك الكبير وإحساساتك وذوقك ؟

— سأدخرها إلى وقت الحاجة ، ولن تنبذ !

فسألنى : « إذن فهل عرفت مهمتك ! » . وكان جوابى : « عرفت ! » .
وإذ ذاك ابتسم .. ولم تكن ابتسامة مبررة أو حزينة ، وإنما كانت ابتسامة الارتياح والشكر العميق . ثم قال : « ومتى تبدئين عملك ؟ » . فقلت : « لسوف أذهب إلى مسكنى هناك فى غد ، ثم أفتح المدرسة فى الأسبوع القادم إذا شئت » . فقال : « حسنا .. ليكون ذلك ! » .. ثم نهض وراح يفرغ الغرفة وما لبث أن توقف عن السير ليأتمنى . وهز رأسه . فسأله : « ترى ما الذى لا يروقك يا مستر ريفرز ؟ » .

— لن تمكث طويلا فى (مورتون) .. كلا ، كلا !

— لماذا ، وماذا يعملك على هذا القول ؟

— قرأته فى عتيك .. إن وميضهما لا يوحى بالتشبث بحياة تسير على وتيرة واحدة .
.. أنا لست طموحة .

فأجفل إذ سمع كلمة « طموحة » وعاد يقول : « لا ! .. وما الذى دعاك إلى التفكير فى الطموح ؟ من هو الطموح ؟ أعرف أننى كذلك ، ولكن كيف انتهيت إلى ذلك ؟ » . فقلت : « إنما كنت أتحدث عن نفسى » . فقال : « حسنا .. إذا لم تكونى طموحة فأنت .. » . وأمسك ، فقلت أستعصه : « ماذا ؟ » .

— كنت أهم بأن أقول « عاطفية » ، ولكننى خشيت ألا تفهمى الكلمة فتمتنعنى . أعنى أن الحلب الإنسانى والوجدانيات تستبد بك . وأنا وأنت من أنك لن تقبلى طويلا بقضاء وقت الفراغ فى عزلة وانفراد ، وبتركيس ساعات العمل لجهد رتيب خال تماما من المثيرات . وأنا لست أكثر منك قناعة بأن أعيش مدفونا فى هذه البطاح التى تكسبها الجبال من كل ناحية . إن مواهبى التى منحتنى إياها السماء قد شلت ، وما قد سمعته الآن أنا قاض نفسى : لأن هذه هى طبيعتى التى وهبها الله إياها .. أنا الذى يوصى الناس بالقناعة .. أنا الذى يبرو للناس — حتى الخطايين منهم والسقائين — منهم الوضعية .. أنا قسيس الله ، أهرق متمملا فى نوبات القلق ، مع أن التراتيب يجب أن تتمشى مع المبادئ بطريقة ما !!

● وغادر الحجرة .. وهكذا عرفت عنه خلال هذه الساعة الوجيزة .
 ما لم أعرفه خلال شهر كامل مضى . ومع ذلك فقد ظلمت في حيرة من أمره .. وكان وجوم ديانا ومارى وصحبتهما يزددان كلها اقتراب يوم فراقهما لأخيها ومترجها . وحاولت الاثنان أن تبدوا عاديتين ولكن الأسبى الذى كان عليهما أن تناضلاه : كان أقوى من أن تستطيعا مغالته أو إخفاؤه . وقد أشارت ديانا إلى أنه سيكون فراقاً مختلفاً لكل الاختلاف عما عهدتاه ، بل إنه كان من المحتمل — بالنسبة لسانت جون — أن يكون فراقاً لسنوات . أو ربما كان فراقاً إلى الأبد . وقالت : « لسوف يضعى أخى بكل شئ » على مذهب أغراضه البعيدة : وهى : الحب الطبيعى والمشاعر الطبيعية التى ما تزال ترداد قوة في نفسه . إن سانت جون يبدو هادئاً باجبن . ولكنه يخفى في حنايا صدره حمى . ولقد تحسبته رقيقاً ولكنه في بعض الأمور كالموت : لا يرحم ولا يلين . . . وأسوأ ما في الأمر أن ضسبيري لا يطاوعنى على رده عن قراره القاسى . والواقع أننى لا أستطيع أن أؤومه عليه بحال من الأحوال ، لأنه قرار سليم نبيل دينى ولكنه يحلم قايى ! »

واغرورت عينها بالدموع ، بينما تحت مارى رأسها متظاهرة بالانكباب على عملها وغمضت قائلة : « إننا الآن بلا أب ولن نلبث أن نغدو — عما قريب — بلا دار أو أخ ! »
 ووقع في تلك اللحظة حادث كأنما بهتت به الأقدار عمداً لتؤيد المثل القائل بأن المصائب لا تأتى فرادى : ولتضيف إلى كربهم وتكسبهم همّاً جديداً ، فقد مر (سانت جون) بالنافذة وهو يتلو خطاباً : ثم

دخل يقول : « لقد توفى خالتنا جون » . فبدا الذهول على كلتا الشقيقتين ، وإن لم تروعهما المفاجأة أو تفزععهما . إذ خيل إليهما أن النبا خطير أكثر منه محزن . وكورت ديانا : « توفى ؟ » فقال أخوها : « نعم » . وإذا ذلك رمقته بنظرة متسللة ، وقالت بصوت خافت : « وماذا بعد ؟ » فأجابها وقد اتخاذه أسرارره صورة جامدة أشبه بالرخام : « وماذا بعد ؟ .. لاشئ .. أقرئ ! »

وألقى بالخطاب في حجرها ، فألقت عليه نظرة . ثم سلمته إلى مارى التى راحت تطالعها في صمت . ثم أعادته إلى أخيها . وراح الثلاثة يبادلون النظرات ويتسوسون ابتسامة موحشة كثيرة . . . وأخيراً قالت ديانا : « الأمر لله .. في وسعنا مع ذلك أن نعيش ! » . فنالت مارى : « إن خالتنا .. على أية حال — لم تردد سوءاً على ما كانت عليه » . وقال مستر ريفرز : « كل ما هنالك أنها تضطربنا إلى أن نقارن ما نحن فيه بما كان في الإمكان أن نكون عليه : بصورة واضحة » . ثم طسوى الخطاب وأغلق عليه درجه : وخرج مرة أخرى .

وانقضت دقائق لم تنبس واحدة منا بينت شفة في أثنائها .. وأخيراً التفتت ديانا إلى وقالت تحدثنى : « إنك ستعجبين يا جين من أمرنا ومن أسرارنا . وقد تعتبرنا مخلوقات غليظة القلب : لا تتأثر لموت أقرب الناس إلينا . كخالتنا . ولكننا لم نره ولم نعرفه ! .. لقد كان شقيقاً أمراً ولكنه تنازع مع أبى منذ زمن بعيد ، لأن أبى جازف بمعظم ممتلكاته في المضاربات عملاً بتصيحة خالى هذا ، فأفلس .. وتبادل الاثنان السباب واقتربا متخاصمين : جون أن يتسلط عليهما ذلك . ثم اشتغل

خالى فى مشروعات ناجحة أصاب من ورائها - فإنا اعتقد - عشرين ألف جنيه ، ولكنه لم يتزوج قط ولم يكن له أقارب أقرب منا ، سوى شخص آخر لا يزننا فى القربى . وقد ظل أبى يعتقد أن خالى سيكفر عن غلظته بأن يترك لنا ممتلكاته . ولكن هذا الخطاب غيبرنا بأنه وهب كل أمواله لقريبه الآخر ، فإنا عدا ثلاثين جنيهاً تقسم بين سانت جون وديانا ومارى ريفرز ليشترخوا بها ثلاثة خواتم يلبسونها حداداً عليه ! .. وليس من شك فى أن له الحق فى عمل ما يروق له ، ولكننا مع ذلك تلقينا خبر موته ببرود عابر . لقد كنت ومارى نعتبر أننا سنصبح من الأغنياء إذا ظفرت كل منا بألف جنيه : كما أن لهذا المبلغ قيمته عند أخفى سانت جون ، إذ يمكنه من الخبر الذى يسعى لعمله ! ..

وبانتهاء هذا الشرح ، أسقط الموضوع ، ولم يشر إليه أحد بعد ذلك ، سواء فى ذلك مستر ريفرز أو أختاه . وفى اليوم التالى غادرت (مارش اند) إلى (مورتون) . وفى اليوم الذى يليه غادرت ديانا ومارى إلى مكان بعيد . وبعد أسبوع : توجه مستر ريفرز وحنة إلى بيته .. وأصبحت الدار القديمة مهجورة !

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

■ كان منزلى - عندما وجدت فى النهاية منزلاً - عبارة عن كوخ مؤلف من غرفة صغيرة طليت جدرانها بالجير الأبيض وغطيت أرضها بالرمال ، واحتوت على أربعة مقاعد ومتضدة وساعة وصوفان به طبقان أو ثلاثة وطاقم شأى خز فى . وفوق هذه الغرفة حجرة بمثابة

المساحة للمطبخ ، وبها فراش من خشب الموسيقى وصوفان ذو أدراج ، كان صغيراً ولكنه كان يتسع للملابس القليلة ، التى زادت بعطف أصدقائى اللطاف الكرام بعض أشياء متواضعة ولكنها ضرورية :

وجاء المساء فصرفت البتيسة الصغيرة التى تتولى خدمتى ، بعد أن منحتها برتقالة كأجر لها ، ثم جلست وحدى عند حافة المدفأة . وكانت مدرسة القرية قد فتحت فى هذا الصباح ، فجاءتنى عشرون فتاة لم تكن تعرف القراءة منهن سوى ثلاث ، ولا يعرفن جميعاً الكتابة أو الحساب . بينما كان أكثرهن على إلمام بأشغال الإبرة ، وقياسات جداً من عرفن الحياكة ! .. وكُن جميعاً يتحدثن بلهجة المقاطعة على أوسع صورة ، فوجدت عناء فى فهم لعتن . وكانت بعضهن بلا خلاق وخشعات جهولات جاهلات ، ولكن الأخباريات كن دمثات سلسات القياد ، بين رغبة فى التعلم ولديهن ميل لإرضائى .. ولا يفوتنى أن أذكر أن هؤلاء الفلاحات الصغيرات الخشعات الثياب كن من لحم ودم كينات أنبل الأسرات ! .. وإن بنور التفوق والركة والدكاء والرحمة يمكن أن تكن فى قلوبهن مثل ما تكن فى قلوب خير الفتيات تنشئة تربية : ومن ثم فقد كان واجبى أن أتعهد هذه البلور ، ولم أشك فى أننى سألقى سعادة فى القيام بهذه المهمة ، وأن أتوقع متعة كبيرة فى الحياة المتفتحة أمامى ، وما كان هذا ليتحقق بلا ريب . إلا إذا نظمت خواطرى وعملت ما وسعنى على أن أفنع بالحياة من يوم إلى آخر .

ترى هل كنت غاية فى الانبهاج والاستقرار والرضى فى أنشاء الساعات التى قضيتها فى حجرة الدراسة العارية المتواضعة أثناء الصباح

وبعد الظهر ؟ .. ولكنى لا أجد نفسى ، رأيت أن أجيب بصراحة :
 كلا .. كنت أشعر بالاكثاب إلى حد ما ، وكنت أحس - لغائى -
 أنني قد انحدرت ، وأننى خطوت خطوة هبطت فى . بدل أن ترتفع
 فى إلى مستوى الوجود الاجتماعى . كما استاءت نفسى للجهل والفقر
 وغشونة ما سمعته ورأيتة حولى . ولكنى لا أريد أن أحترق نفسى كثيراً
 من أجل هذه الإحساسات ، فإنى أدرك أنها لحاططة . وأننى إنما خطوت
 خطوة عظيمة وسأحاول التغلب على هذه الإحساسات . وأنا واثقة من
 أننى سأتمكن فى الغد من تغليب خير ما فيها على أسوأها . عسى أن
 أستطيع بعد بضعة أسابيع أن أقضى عليها .. ومن المحتمل أن أرى فى
 تقدم بعض تلميذائى - بعد شهور قليلة - ما يحيل تفزى سروراً وهناء !

وفى الوقت نفسه ، دعى ألقى على نفسى سؤالاً واحداً : أيهما
 أفضل ؟ .. أن أخضع للإغراء وأصغى للهوى . فلا أبذل أى مجهود
 مضى ، ألا أناضل وأكافح ، وإنما أتردى فى الشرك الحريرى ،
 وأغرق فى النوم فوق الزهور التى تغطيه ، لأستيقظ فى طقس الجنوب
 الجميل بين ترف إحدى القبيلات ، وأن أعيش فى فرنسا خلية لستر
 روشستر مثلية بحجة نصف عمرى .. فما كنت لأشك فى أنه سيحبى
 زمناً .. بل إنه أحبنى فعلاً ، ولن يولبنى غيره كل هذا الحب مسرة
 أخرى ، بل إننى لن أعرف - ثانية - الإكرام الذى يمنح للجمال
 والشباب والهاء ، لأن سواه لن يرى فى هذه الثغرات ! .. لقد كان
 مغرماً وفخوراً فى إلى حد لا يشبه فيه أحد ، ولكن .. أين سرح فى
 الخاطر ؟ وما هذا الذى أقول .. بل ما هذا الذى أشعر به ؟ .. لقد

كنت أتساءل : أيهما أفضل : أن أكون جارية وأمة فى جنة محبوبة ،
 أعيش فى مرسيليا مكرانة بالوهم ساعة ، ثم أختنق بدموع الندم والخرى
 فى الساعة التالية ، أو أن أكون معلمة حرة شريفة ، بمدرسة فى ركن
 جبلى صنى هفيف بقلب إنجلترا ؟

نعم .. لقد بدأت أشعر بأننى أصبت فى تمسكى بالمبادئ والقوانين ،
 وفى احتقارى وصحى للفقرات الملتاثرة التى انبعثت فى لحظة هوس وجنون .
 لقد هدأتى الله إلى الصواب . فحمداً لالعناية الإلهية على أن هدتني !

وعندما بلغت فى تأملات المساء هذا الحد ، قت فضيت إلى باب
 كوخي ورحت أطلع إلى غروب الشمس فى ذلك اليوم من أيام الحصاد
 وإلى الحقول الممتدة أمام كوخي الذى كان بعيداً - والمدرسة - عن
 القرية بنصف ميل . وكانت الأظفار تغرد أحيانها الأخيرة .. وكما قال
 الشاعر : « كان الهواء عليلاً والندى باسماً » !

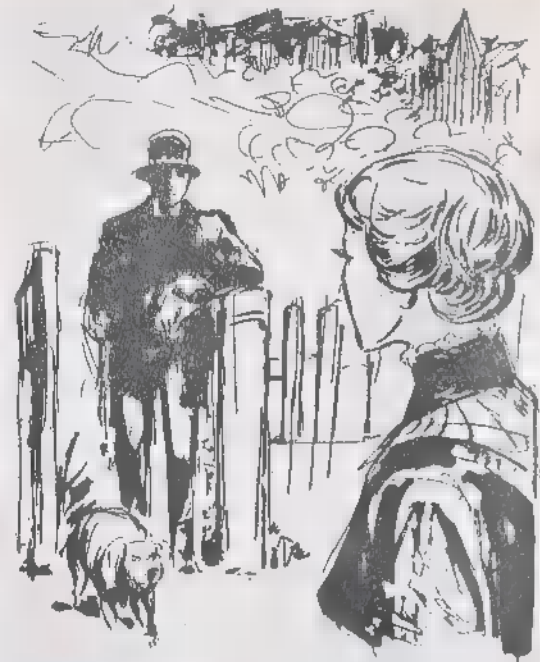
■ وفيما كنت أسرح البصر وأصنق سعيدة ، فوجئت بأن وجدتنى
 بعد قليل أبكى . فلماذا ؟ .. للصبر الذى قضيت به على سيدى - الذى
 لن يفدنى أن أروا .. إذ انتزعت نفسى بعيداً عنه .. الأحران والحق
 القاتل اللذين سيفصفان بنفسه - نتيجة رحيل - وربما حاداً به عن
 جادة الحق وطريق الرشاد ، إذا ما استبد به القنوط بحيث لا يدع سبيلا
 لأمل يعاوده !

وعند هذه الفكرة ، حولت وجهى عن السماء الجميلة فى المساء
 وعن وادى (مورتون) المنعزل .. وأقول الهوى لأن الجزء الذى

كان يبدو لعيني ، لم تظهر فيه من المباني سوى الكتيسة وبيت الراعي ،
يكادان يقيبان وسط الأشجار .. وفي المؤخرة تماماً بدا سقف قصر
(فيل هول) حيث كان يقيم مستر (أوليفر) الغني وابنته . فأعجبت
عيني واعتمدت برأسي على حافة الباب الحجرية ، ولكن سرعان
ما انبعت بالقرب من الباب الذي يفصل بين حديقتي الصغيرة والمرعى
صوت جعلني أرفع رأسي وأرى على التو (الشيخ كارلو) - كلب
مستر ريفرز - وهو يدفع البوابة بأنفه ، بينما استند على حافتها سانت
جون . وقد عقد ذراعيه وتطلع إلى يمين عابس ونظرة توحى
بالامتعاض . فطلبت إليه أن يدخل ، ولكنه قال : « كلا . لا أستطيع
البقاء . فقط جئت بطرد صغير تركته لك شقيقتي . وأظنه يحوى علة
ألوان وأفلاماً وورقاً » .

واقتربت لأتناول الطرد - الهدية السارة - فتأمل وجهي متفحصاً
بنظرات بدت لي كالحلة عندما دنوت . وكانت آثار الدموع بلا شك
جد ظاهرة على محايي ، فسألني : « هل وجدت عملك في اليوم الأول
أشقى مما توقعت ؟ » . فأجبت : « آه ، لا .. على العكس : سأسير مع
تلميذاتي على ما يرام مع مرور الوقت » .
- ولكن ربما وجدت في لوازم العيش والكوخ والأثاث ماخيب
آمالك ؟ إنها في الواقع قليلة ضئيلة ولكن ...

فقاطعت قائلة : « إن كوخني نظيف لا يؤثر فيه الطقس ، وأثاثي
كاف ومريح ، وكل ما أراه يحماني على الشكر » لا على الاستياء .
ولست من الخفاقة وحسب الراحة الجسدية بحيث آسف لعدم وجود



صوت جعلني أرفع رأسي وأرى على التو (الشيخ كارلو) - كلب مستر
ريفرز - وهو يدفع البوابة بأنفه ، بينما استند على حافتها سانت جون

بساط أو أريكة أو طبق من النفضة . هذا إلى أنني منذ خمسة أسابيع لم أكن أملك شيئاً . بل كنت منهوذة متسولة شاردة . أما الآن فلي معارف ومتزل وعمل ، حتى أنني لأعجب لفضل الله وكرم أصدقائي ووفرة نصيبي . إنني لا أتبرم ولا أتفهم .

— ولكنك تجددين في العزلة ما يضايقك . إن المتزل الصغير القائم خالفك مظالم وخاؤ .

— إنني لم أقض بعد زمناً يكفي لأن أتعلم بالهدوء . حتى يتقد صبري بسبب العزلة .

— حسن جداً .. أرجو أن تحبني بالرضى الذي تعربين عنه . وعلى أية حال : فسوف يحدئك رأيك السديد بأنه لم يمض الوقت بعد للإدخار لمخاوف امرأة لوط . حين عز عليها أن تتبعه وتختلف وراءها ما كانت تعيش فيه .. إنني لا أعرف شيئاً عما خلفته وراءك قبل أن تقنع عليك عيناى : ولكنى أنصحك بأن تستبلى في مقاومة كل ما يغريك بالنظر إلى الورا . بل ميري في طريقك الراهن بقدام ثابتة لبضعة شهور على الأقل !

قلت : « هذا ما استقر عليه عزى » . فعاد يقول : « إن السيطرة على إغراء النزوات : وكبح اندفاع الطبيعة : مهمة شاقة .. ولكنها ممكنة . على ما عرفت من تجاربي . فلقد منحنا الله القوة — إلى حد ما — على صنع مصائرنا والتحكيم في أقدارنا . وعندما تتطلب طاقتنا المحدودة عوناً نعجز عن الحصول عليه : وعندما نحاول الإرادة جاهدة أن نخط طريقاً ثم لا نملك السير فيه : فلا حاجة بنا إلى أن نعاني جوع العقل

أو يستبد بنا اليأس ، بل علينا أن نبحت للعقل عن غذاء آخر ، لا يقل قوة عن الثمرة المحرمة التي طالما اشتبى تنوعها . إن لم يكن أظهر منها وأنتى .. كما يجب أن نشق للتقدم الجموح . طريقاً في استقامة واتساع تلك التي حجبتها عنها الحظ . إن لم تكن أشق وأوعر ! .. إنني شخصياً كنت غابة في العنس والشقاء .. منذ عام .. لأنني ظننت أنني أعطيت بانخراطي في سلك الكهنوت . وكانت التبعات الرسمية ترهقني كل الإرهاق فحترقت نفسي إلى الحياة الدنيوية الأكثر حركة ونشاطاً ، وإلى الأعمال الأدبية المليرة : وإلى أن أكون فناناً أو مؤلفاً أو خطيباً أو أى شيء غير أن أكون قسيساً .. نعم كان قلب السياسي ، والجندي وطالب الجند . وعجب الشهرة . والمتحرق إلى القوة .. هذا القلب كان يفيض تحت الرى الكهنوتى الذى أرتديه . واعتبرت حياتى شقية يجب تغييرها وإلا وجب أن أموت . ولكن موسم الظلام والنضال انتهى : فأشرق الضياء وحان الخلاص واتسع أفق رجودى الضيق إلى غير ما حدود . وسمعت روحى نداء من السماء أن انفضى واستجمعي قوتك وانشرى جناحيك واصعدى إلى ما فوق مدى البصر ، فقد اختارك الله لمهمة يحتاج أداؤها إلى مهارة وقوة وشجاعة وفصاحة ومناخ خسير الحصال والمواهب لدى الجندي والسياسي والخطيب .. فإن كل هذه المواهب يجب أن تتركز في البشر الصالح . إذ عولت على أن أكون مبشراً . فتغيرت حالتي العقلية منذ تلك اللحظة ، وتخطت القيود عن مواهبى فلم يبق سوى آثار مريرة لا يشفيها غير الزمن . والواقع أن أبى عارض فيما عولت عليه . أما وهو قدرهات . فلم يجد في طريقى شيء من

العقبات التي يستدعي التغلب عليها تضالاً . فقد سميت بعض المشكلات وعثرت على من يخلفني في (مورتون) ، وقطعت خيطاً أو خيطين بقبيا من نسج المشاعر .. وبقي الصراع الأخير مع الضعف الإنساني ، وإني لوائت من أن الغلبة ستكون لي ، لأنني أقمت أن أنتصر .. ثم أغادر أوروبا إلى الشرق .

قال ذلك بصوت بادى الإعياء ، ولكنه كان حازماً حاسماً ، ثم أدخل إلى الصمت ، وتطلع - لا إلى - ولكن إلى الشمس النازية التي كنت أنزل إليها بدوري . وكان كلانا يولي ظهره شطر الطريق المفضي إلى كوة الباب ، فلم نسمع صوتاً غير خرير المياه الجارية في الوادي : ولذلك أجفنا عندما فوجئنا بصوت مرح عذب كرنين جرس فضي يهتف : « سعدت مساء يا مستر ريفرز ، وطاب مساؤك يا كارلو (العجوز) . إن كليك أسرع منك في التعرف على الأصدقاء باسیدی فقد رفع أذنيه وبصبعه بذيله عندما توسطت الحقل ، أما أنت فما زلت تولي ظهره لي الآن ! »



● وكان ذلك صبيحاً .. وعلى الرغم من أن مستر ريفرز قد أجفل لدى سماع هذه الكلمات الموسيقية وكأنما هبطت على رأسه صاعقة ، إلا أنه ظل واقفاً حتى نهاية الحديث في نفس الوضع معتمداً بنزاعيه على البوابة ومتجهاً نحو الغرب ، ثم استدار أخيراً - بعد أن قدح فكره بعمار وقدر - وإذا بي أرى إلى جانبه شكل إنسان تصغر قامته عن مستر ريفرز بثلاثة أقدام ، وقد اتشح بثوب ناصع البياض .. وكانت

شابة بدعة القد ، مليئة في رشاقة . وبعد أن انحنت تداعب (كارلو) ، رفعت رأسها فأزاحت خماراً طويلاً كشف عن وجه كامل .. و (الجمال الكامل) تعبير قوي « ولكني لن أراجع عنه ولن أحاول وصفه ، لأن حلاوة الأسارير وفننة القوام كانتا تبرران هذا التعبير . أجل ، لم يكن ينقص الفتاة سحر ، ولم يكن بها أي عيب أو نقص على الإطلاق ، بل كانت قسماً منتظمة رقيقة ، وكانت عيناها نجلاوين أشبه بالعيون التي نلاحظها في الصور : واسعتين سوداوين داكنتين تحيط بهما أهداب طويلة وارقة ، وحاجبان كقوسين رسا بالقلم ليضفيا الصفاء على تلكما العينين . وكان جبينها ناعماً ، وجنتاها بيضاوين بضتين ، وشفتاها جلياتين تضيضان بالصحة والحيوية .. حتى أسنانها كانت متساوية ناصعة خالية من كل هتاء ، وكان ذقنها صغيراً تتوسطه نقطة غائرة (نونة) فاتنة ، وجدائل شعرها غزيرة .. وقصاري القول ، كان ذلك كله مجتمعاً ، يمثل المثل الأعلى للجمال .. الجمال الكامل ! .. ولقد عجبت عندما رأيت هذه المخلوقة الحسنة « وأعجبت بها من كل قلبي » ولا شك في أن الطبيعة قد حابتها عندما خلقتها فأغدقت الحسن عليها بهذا البذخ والإسراف .

تري ماذا كان رأي سانت جون ريفرز في هذا الملاك الدنيوي ؟ كان من الطبيعي أن أطرح على نفسي هذا السؤال ، فتوقعت أن أقرأ الجواب على أسرار الشاب عندما التفت ونظر إلى الملاك ، ولكنه سرعان ما حول عنا بصره وتطلع إلى مجموعة من الأقحوان المتناضح ، كانت تنمو على مقربة من البوابة . وقال وهو يسحق بقدمه رعوس

الأزهار الشوية غير المفتحة : « أمية بدعة : ولكن الوقت متأخر
فما كان لك أن تخرجي وحده ! » . فتهتفت الفتاة : « أوه ! .. أعيا
وصلت من (...) - وذكرت اسم مدينة كبيرة تبعد عشرين ميلا -
بعد ظهر اليوم . فأخبرني (بابا) بأنك فتحت مدرستك وأن الناظرة
الجديدة قد حضرت . لذلك ما أن انتهيت من تناول الشاي حتى وضعت
قلنسوتي على رأسي ، وجريت إلى الوادي لأراها . أليست هي هذه ؟ »
وأشارت إلى فقال سانت جون : « أجل ، هي . » فسألني في
ساداجة وبصوت طروب : « أعتقد أنك سوف تحبين مورتون ! »
قالت : « هذا ما أرجو . فما أكثر المغريات التي تدعو إلى ذلك ! » .
فعمادت تسألني : « وهل أحببت متزلاك ؟ » . فأجبت : « كثيراً
جداً ! » .. فسألني في لطف : « هل ترينني أحسنت تأثيره ؟ »
وكان جوابي : « جداً ! » .. ولكنها سألتني مرة أخرى : « وهل
أحسنت اختيار تابعتك إليس وود ؟ » . فأجبتها قائلة : « فعلا . فهي
قابلة للتعلم : طيبة » .

وأدركت عندئذ أن الزائرة هي مس أوليفر الوارثة التي وهبت من
الأراء قدر ما وهبت من الجلال فتساءلت في نفسي : أي تحمين سعيدين
اجتماعاً يوم مولدها ؟ . واسترسلت الفتاة تقول : « سوف آتي وأساعدك
في التعليم أحيانا ، وسأجد متعة في زيارتك من حين إلى آخر . لقد
قضيت وقتاً طيباً في زيارتي الأخيرة لمدينة (س) وقضيت ليلة الأملس
في الرقص حتى الثانية صباحاً . إذ التقيت بضباط الكتيبة (...) وهم
أظرف رجال في العالم » .

وخيل لي أن مسر سانت جون لوى شفته السفلى وزوى العليا
لحظة ، قبل أن غم مضغوطاً متجهماً إلى حد كبير : وظهر الجزء الأسفل
من وجهه عابساً على غير عادته ، عندما نظقت تلك الفتاة الضاحكة
بذلك الحديث . ثم رفع عينيه عن زهرات الأقحوان ، واستدار إليها
وعلى أساريره نظرة جامدة متحفظة ذات معنى . فأجابت الفتاة بضحكة
ثانية تلائم شبابها وتورد خديها ونمازتها وعينيها المؤتلفتين .

وفيما كان في وقفته مغلداً إلى الصمت والوقار ، عادت هي تداعب
كارلو قائلة : « مسكين كارلو ! لكم يحبني ! .. إنه ليس فقط ينفر من
أصدقائه وأو استطاع أن يتكلم ما التزم الصمت » .. وأخذت ترتب
على رأس الكلب وهي منحنية بجوارها الطبيعي أمام السيد الشاب الصارم
ولذا ذاك رأيت وجه السيد يتوهج كاللهب : وشاهدت عينيه المادنتين
تتحولان فجأة إلى نار وتخفقان بانفعال جارف . فكان بهذا الحياء
والاشتغال لا يقل جمالاً بين الرجال عن الفتاة بين النساء . وارتفع صدره
مرة كأنما ضاق قلبه الكبير بقيود الاستبداد ، فتضخم برحمه ووثب وثبة
قوية للتمنع بالحرية والانطلاق . ولكنه كبح جماحه كما يكبح الراكب
جراح جواده ، ولم يرد على كلمات الفتاة وهي تحاول استدراجه .

فرفت الفتاة رأسها واستطردت تقول : « إن بابا يقول : إنك
لم تعد تأتي لزيارتنا الآن . إنك غريب عن (فيل هول) وأبي الليلة
وحيد ، متوعلك .. فهل تعود معي وتزوره ؟ » . فأجاب سانت جون :
« إن الساعة ليست ملائمة للتطفل على مسر أوليفر » .

- ليست ساعة ملائمة ! إنها كذلك لأنها الساعة التي يكون فيها

(بابا) أشد حاجة إلى من يسليه بعد فراغه من عمله . تعال الآن يا مستر ريفرز : لماذا كل هذا الحياء وكل هذا الاكتئاب ؟

وصمت فلأت الفجوة التي خلفها صمته ، بأن صاحت وهي تهرز رأسها : « آه ، لقد نسيت ! كم أنا حياء ! .. معذرة إذا كنت قد نسيت أن لك الحق في عدم الميل إلى ثرثري بعد أن غادرتك ديانا ومارى . وأغلق (مورهاوس) ، وبقيت هكذا وحيداً . إنني أرى لك فعمال وزر بابا ! » . ولكنه قال في إصرار : « ليس الليلة يا مس روزاموند . ليس الليلة » .

كان سانت جون يتكلم كما لو كان آلة . فلم يكن في وسع أحد غيره أن يدرك مدى ما يكلفه ذلك الرقص من ثمن غال . وقالت الفتاة : « خلوني أن أغادرك الآن ما دمت عنيماً بهذا الشكل : فلست أجزؤ على البقاء أكثر من هذا ، إذ بدا الندى يتساقط . طاب مساؤك ! » .

وتحولت الفتاة ولكنها عادت بعد لحظة لتسأله : « أترانك بخير ؟ » . وكانت عمة في سؤالها لأن وجهه كان في شعوب رداها الناصح ولكنه أجاب : « إنني في خير حال » . ثم خفي رأسه وانصرف خلفها ، فسارت في سبيلها وسار هو في سبيل آخر .

ولفتت الفتاة مرتين لتلقى عليه نظرة . وهي تخطر في الخفل . كأنها حورية جميلة . أما هو ، فسار في طريقه بخطوات ثابتة دون أن يلتفت خافه على الإطلاق .

كان منظر آخر للعذاب والتضحية شغل أفكارى وأقصاها عن

التأمل في حالتي .. وأيقنت بأن ديانا ريفرز لم تبالي حين لقبت أخاها بأنه كالموت لا تلين له قناة !

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

● مضيت في أعمالي في مدرسة القرية بكل ما وسعني من نشاط وأمانة . وكانت مهمتي شاقة في البداية ، فقد انقضت فترة طويلة - مع كل ما كنت أبذله من جهود - قبل أن أستطيع فهم تعليمي وطبائعيه .. كن غاية في الجهل ، هامدات المواهب ، غيبات لا يرجي منهن أمل . ولكن يظهرن - لأول وهلة - متساويات في الغباء ، ولكنني سرعان ما أدركت غلطتي ، إذ لمست بينهن فروقاً كنتك التي بين المتعلات . وما أن فهمتهن وفهمتي حتى تبددت تلك الفروق . وما أن هدأت دهشتي مني ومن لغتي ونظائري وطريقي ، حتى وجدت بعض الخلاصات الباديات الغباء قد تحولن إلى فتيات متفدات الذكاء ، وأبدت الكثيرات شكراً وامتناناً .. وظرفاً كذلك ! واكتشفت بينهن نماذج غير قليلة للأدب الطبيعي والاعتزاز الأصيل بالنفس ، كما اكتشفت بينهن مقدرة فائقة نالبت تقديرى وإعجابى . وسرعان ما شعرن بلذة في أداء واجباتهن على الوجه الأكمل ، وفي الاحتفاظ بنظائرين الشخصية ، وفي استذكار دروسهن بانتظام ، وفي التحلى بالعادات الهادئة المنظمة . وكثيراً ما دهشت لهذه السرعة في تقدمهن ، واستشعرت لذلك زهواً صادقاً سعيداً ، كما بدأت بدورى أحب بعض المتفوقات . وكان بين تلميذاتي

عدد كبير من بنات الفلاحين الناضجات - اللاتي بلغن سن الرشد تقريباً - فاستطعن القراءة والكتابة ، وتعلمن الخياطة وشغل الإبرة ، ووجدت فيهن أخلاقاً تستحق التقدير ، ورغبة قوية في التعلم والترقى . وكثيراً ما كنت أقضى ساعات طيبة في المساء ببيوت هؤلاء التلميذات ، أحظي خلالها من أهلهن - الآباء المزارعين والأمهات الفلاحات - بالرعاية . وكنت أجد متعة في تقبل هذا العطف الساذج ، وأقدم لهم في مقابلة تقدير أكان يفتن الفتيات ويفيدهن . لأنه كان يرغعن في أنظار أنفسهن ، ويحملهن على الجهد ليصبحن أهلاً للمعاملة الكريمة التي كن يلقينها مني !

وشعرت بأنني غلوت محبوبة في تلك المنطقة . فأينما ذهبت كنت أسمع تحيات قلبية من كل ناحية ، وألقي ابتسامات المودة والإخلاص . إن الحياة بين الاعتبار العام - ولو كان هذا الاعتبار من الطبقة العاملة - أشبه بالجلوس في ضياء الشمس : يتسم بالهدوء والصفاء . وكثيراً ما كان قلبي - في تلك الفترة من حياتي - يفيض بالشكر ، وقل أن أقله الاكتئاب . ومع ذلك فلست أكتملك أيها القارئ أنني في غمرة هذه الحياة الوادعة النافعة : كنت - بعد أن أقضى سخابة النهار في الجهد والعناء مع تلميذاتي ، وأقضى الأمسيات في الرسم أو القراءة وحيدة ، راضية النفس - لا أثبت بالليل أن أندفع في أحلام عجيبة .. أحلام متعددة الألوان ، مضطربة ، مليئة بالمثل الأعلى والمثيرات العاصفة .. أحلام كانت تتجلى وسط مناظر غير عادية مشحونة بالمغامرات والمخاطر والمصادفات الخيالية ، فإذا بي أتصورني أقابل مستر

رومستر - بين وقت وآخر - فأراه دائماً في ضيق شديد ، فتجدد ذكرى وجودي بين أحضانه - وسماح صوته - ولقاء نظراته ، ولمس يده ووجته ، وحيي نه وحيي لي . وأمل في قضاء الحياة إلى جانبه ... كل هذه كانت تتجدد بكل قوتها وحرارتها الأولى ! . . . وكنت أستيقظ بعد ذلك فأتذكر أين أنا وحقبة مركزي ، فأجلس في فراشي - الخالي من الستائر - وأنا أهتر وأرتجف . وعند ذلك ، كان الليل الداجي يشهد انتفاض يأسي ، ويسمع انفجار وجداني . ومع ذلك ، فما كانت تعين الساعة التاسعة من الصباح التالي . حتى أبادر إلى فتح أبواب المدرسة وقد استعدت هدوني وورزاتي . وتأهبت لأعبائي المدرسية اليومية !

وحافظت « روزاموند » على وعدنا أن تأتي لزيارتي ، فكانت نجيء عادة أثناء ركوبها في الصباح . فتركض بفرسها الصغيرة إلى الثياب . ومن خلفها خادم يتخطى جواداً ويرتدي بزة خاصة . . . كانت الفتاة تبدو رائدة المظهر في زي الركوب القرمزي وقبعها المخملية السوداء التي كانت تستوي برشاقة فوق جدائل طويلة تأثم خديها وتندلى على كتفيها بصورة فاتنة تجل عن الوصف . وهكذا كانت تدخل البناء الريفي وتسير وسط التلميذات القرويات المبهورات بمنظرها ! . . . وكان مقدمها يصادف عادة الساعة التي يلق فيها مستر ريفرز درسه الديني اليومي . ولاحظت أن عين الزائرة كانت تخترق قلب البكاهن الشاب ويبدو أنه كان يشعر بقوة غريزية تناذر بدخولها غرفة الدرس . وإن لم يرها . فإذا ما ظهرت في مدخل الباب عينا لفت عينا وتوددت وجنتاه

وتبدلت أساريه الجامدة كالرخام ، والتي كانت برغم جودها تعبر
إذ ذاك - بسكونها وثباتها - عن عاطفته المكبوتة بأقوى مما تعبر العضلات
النافرة والنظرات المارقة .

وكانت - بطبيعة الحال - تعرف مبلغ قوتها . أما هو فلم يكن يدري ،
ولما أخنى عنها معرفته . وعلى الرغم من « رواقته » الدينية
- أى عدم ميلاته بالمؤثرات الجسدية - فإنه لم يكن يتألك نفسه إذا
ما تقدمت إليه وخاطبته مبتسمة في وجهه مشجعة في مرح - يكاد يكون
تغزلاً - فكانت يدها تضطربان ، وعينه تتقدان ، ويلوح وكأن نظرتة
الساجية المفعوعة تقول دون أن تتحرك شفاهه : « أحبك » ، وأعرف أنك
تؤثرينى ، وليس اليأس من التوفيق هو الذى يعقد لسانى ، لأننى أعتقد
أنك ستقبلين قلبى لو أننى قدمته لك . ولكن هذا القلب قد وضع على
مذبح مقدس - وأعدت حوله النار ، ولن يلبث أن يصبح مجرد قربان
فان ا » .

وكانت إذ ذاك تتجههم كطفلة خاب رجاؤها ، وتنعقد في سماء
مرحها غمامة ، فتبادر بسحب يدها من يده بسرعة ، وتتحول عن
وجهه غاضبة على الفور في بطولة الشهداء . ولاشك في أن مستر
سانت جون ما كان ليحجم عن تضحية كل شيء في العالم ليقبها
ويناديها ويستيقبها معه - عندما كانت تتركه هكذا - لولا أنه لم يكن
يقوى على أن يتزل - في سبيل فردوس حبا - عن مجرد أمل واحد في
جنة الخلد . أضف إلى ذلك أنه ما كان في وسعه أن يربط كل ما فطر
عليه من حب للتجوال والطموح والشعر والكهنوت ، إلى عاطفة

واحدة مملوءة .. أجل . لم يكن يستطيع - ولا كان راغباً - في التخلي
عن ميدان رسالته الواسع مقابل ما كان يرجوه من رغد وسلام في
(فيل هول) ، فقد عرفت منه الكثير عن نفسه برغم تحفظه ، وذلك في
أثناء « غارة » تجرأت ذات مرة على القيام بها لاقتحام سره .

■ ولقد شرفنى مس أوليفر بزيارات عديدة لكوشى : فاستطعت أن
أقف على كل أخلاقها سافرة في غير تحفظ أو تنكر : كانت غندورة
ولكنها لم تكن بلا قلب ، دقيقة في غير أنانية ، مدللة منذ مولدها ولكنها
لم تكن فاسدة بمعنى الكلمة . متبورة ولكنها كانت طيبة القلب ، معتزة
مزهوة - دون أن تكون لها حيلة في ذلك وهي ترى في كل نظرة تلقيا
على المرأة مبلغ ملاحظتها - ولكنها لم تكن متعجرفة . وكانت مبسوطة
الكف في غير غرور ، صريحة ، ذكية ، مرحة ، طروباً - لا تعطيل
التفكير في شيء . وقصارى القول : كانت فاتنة حتى في عين فتاة من
جنسها باردة الطبع مثل - ولكنها لم تبلغ الكمال من حيث التأثير في النفس
أو كانت - على سبيل المثال - تختلف في عقابيتها عن شقيقتي سانت
جون .. على أننى - مع ذلك - أحببتها كما أحببت تلميذتى (أدبل) »
فما عدا أننا نكن في العادة لطفلة التي ربيناها وعلمناها حباً يفوق بالطبع
ما يمكن أن نكنه لواحدة من المعارف بالغة الرشد ، وإن تساولت معها
في الجاذبية .. ولقد مالت هي الأخرى إلى . وقالت إننى أشبه مستر ريفرز
فما عدا أننى لا أبلغ عشر جماله . فمع أننى كنت ظريفة نقية الروح ،
إلا أنه كان ملكاً كريماً .. ومع ذلك فإننى - طيبة

ماهرة حادثة النفس رزينة .. مثله ! وكانت تقول إن تاريخ حياتي السابقة - إذا ما تكشف لما - فإنه سيكون ولا بد قصة رائعة ممتعة !

وحدث ذات مساء أن كانت بتزقيها وخفقتها تنقب - دون فضول مستهجن - في أرجاء الصوان ودراج المائدة في مطبخي الصغير ، عندما اكتشفت وجود كتابين فرنسيين ومجلد عن شيلر وكتاب في النحوا الأتاني وقاموس . كما عثرت على أدوات الرسم وبعض الصور التخطيطية ، بينها صورة فتاة صغيرة - هي إحدى تلميذاتي - وبعض المناظر الطبيعية المتنوعة التي التقطتها في وادي (مورتون) والآجام المحيطة به . فجمدت في أول الأمر دهشة وعجباً ، ثم جئت سروراً وابتهاجاً ، وقالت نسألني هل أنا التي رسمت هذه الصور ؟ وهل أعرف الفرنسية والألمانية ؟ ما أجملني وما أروعي ! إنني أ رسم خيراً من أستاذها في المدرسة الأولى في (س) ، فهل لما أن تطمع أن أ رسم لما صورة تزيها لأبيها ؟ فأجبها : « بكل سرور » .

وتملكنتي رجفة الفنان المغتبط لفكرة رسم مثل هذا النموذج الكامل المشرق ، وكانت ترتدى إذ ذاك ثوباً كحلياً من الحرير يكشف عن ذراعيها وأخرها ، ولا تترين بغير جدائل شعرها الكسفتائي وقد تموجت على كتفيها بكل روعة الجداول الطبيعية ، فتناولت قطعة من الورق المقوى ورسمت صورة تخطيطية لما بعناية واهتمام ، إلى أن أخذت الظلمة تزين - فطلبت إليها أن تأتي وتجلس أمامي في يوم آخر .. وكان أن حدثت أباه عن ذلك ، فاصطحبها مستر أوليفر بنفسه في المساء التالي . ووجدته طويل القامة ، ضخم التقاطيع ، متوسط العمر ، أشيب الرأس . وقد بدت

ابنته الحساء بجانبه أشبه بزهرة مشرقة إلى جوار برج مغبر عتيق .. وكان - فيما لاح لي - رجلاً عجباً للصمت متعجرفاً ولكنه عاملني برفق ، وسر سروراً عظيماً بالرسم التخطيطي لروزاموند فطلب مني أن أتم اللوحة كما أصر أن أذهب إلى (فيل هول) في اليوم التالي لأقضي معها المساء .

فلما ذهبت ، وجدته قصيراً كبيراً بحيلاً يذل على ما يتم به صاحبه من ثراء . وكانت (روزاموند) شديدة الفرح والابتهاج طوال مكثي هناك . ولما خاض والدها معي في الحديث بعد تناولنا الشاي ، أعرب لي عن تقدير لأعمالي والتقدم الذي نالته المدرسة على يدي . ثم قال إنه أصبح لا يخشى - بعد الذي سمعه ورآه - إلا أن أغادر المدرسة إلى أخرى أليق بي . وصاحت روزاموند : « الواقع أنها من الخلق بحيث يصبح أن تكون مربية في أسرة كبيرة يابابا » . بيد أنني كنت أوثر البقاء حيث كنت ، على العمل لدى أية أسرة من الطبقة الراقية . وتحدث مستر أوليفر عن مستر ريفرز وعائلة ريفرز باحترام بالغ ، قائلاً إنها أسرة عريقة في تلك الأصقاع ، وإن أجداده كانوا أثرياء يمتلكون قرية (مورتون) كلها وأنه يعتقد أن سليل الأسرة يملك إذا شاء أن يصاهر أحسن عائلة ، ولكنه أعرب عن أسفه على أن يكون هذا الشاب الجميل واعظاً ، وأن يبدد في ذلك حياته الغالية . وتبلى من ذلك أن والد (روزاموند) لم يكن يقيم أية عقبة في سبيل اقتران بنته بمستر سانت جون ، وأن الرجل يعتبر عراقة الكاهن الشاب واسم أسرته ومهنته المقدسة تعويضاً كافياً لاحتاجته إلى المال ..

■ وكان اليوم الخامس من نوفمبر عطلة مدرسية ، فبعد أن علونتي خدامتي الصغيرة في تنظيف منزلي ، انصرفت وهي راضية النفس بالبنس الذي أعطيتها إياه أجر معاوتها لي . وكان كل ما حولي نظيفاً لامعاً : من أرضية دلكت ، ومدفأة صقلت ، ومقاعد جلبت جيداً . وكنت قد نظفت نفسي كذلك . فوجدت أمامي طوال بعد الظهر أنفبه كيف أشاء .. فشغلت بترجمة بضع صفحات من الألمانية ساعة ، ثم جئت بلوحة الرسم والأفلام وشرعت أتم صورة روزاموند أوليفر . ركنت قد فرغت من رسم الرأس . ولم يبق إلا أن ألون الأرضية . وأظلل الثياب ، وأضفي لمسة من اللون الأرجواني على الشفتين الناضجتين . وأسبغ بعض تموجات على خصلات الشعر . وأزيد في ظلال الأهداب تحت الجفون اللازوردية ! .. وفيما كنت منهكة في هذه التفاصيل البديعة سمعت طرقة سريعة على الباب غير المغلق . ثم شاهدت سانت جون ريفرز يدخل قائلاً :

.. لقد جئت لأرى كيف تقضين يوم عطلتك . فإرجو ألا تكوني قد قضيت في التفكير . كلا هذا حسن ، فإنك لن تشعري بالوحدة مادمت ترسمين . هأنذا ترين أنني مازلت غير مطمئن . برغم أنك أظهرت جلدأ وصبراً يدعوني إلى الإعجاب . لقد جئت بك كتاب تسليين به في المساء !

ووضع على المنضدة كتاباً جديداً في الشعر . من تلك المطبوعات النادرة القيمة التي كان الجمهور يخطي بها في ذلك العهد .. العهد الذهبي للأدب الحديث . ومن أسف أن قراء زماننا لا يهتمون بهذه الميزة ولكن

صبراً ! لست أتوقف لأتهم أو ألتهم ، فلأني أعرف أن الشعر لم يمت ، وأن العبقريّة لم تضيع . وأن حب المال يسيطر على كليهما ، بل إنهما سوف يؤكدان وجودهما وحيتهما وقوتهما مرة أخرى في يوم من الأيام . أيها الملائكة الجبارة الآمنة في السماء ! إنك لتبسمين عندما تظفر الأرواح الشريرة بالغلبة . وتبكي الأرواح الضعيفة على أطلالها . فهل دمر الشعر تدميراً ونفت للعبقريّة نقياً ؟ كلا .. فهل هما إذن في ركود ؟ كلا . إنهما لا يعيشان فحش . بل هما يحكما ويسيطران . ولو لم ينتشر نفوذهما الروحي في كل مكان لأصبحت في جميع .. جميع ضحكك ومهانك !

■ وفيما كنت أتأمل في خفة صحائف من ديوان (مارميون) - فقد كان الكتاب يضم أشعار مارميون - انحنى سانت جون وجعل يتأمل الصورة التي رسمتها . ولكنه سرعان ما نصب قامته الطويلة مرة أخرى دون أن يلبس بحرف . فرفعت عيني إليه ولكنه تجنب نظري . ولكنني عرفت أفكاره جيداً .. برغم ذلك - واستطعت أن أسبر غوره : لأنني كنت أفوقه رزانة وهندوة وشعرت برغبة في نفعه إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً . فقلت في نفسي : إنه يذهب بنفسه بعيداً بما يبيديه من الحزم وضبط النفس . فهو يكظم عواطفه في صدره فلا يروح ولا يعترف بشيء . ولا ريب عندي في أن من مصلحته أن أحدثه قليلاً عن (روزاموند) الفتاة - التي يعتقد أنه لا يحضر به أن يتر وسبها لكني لأجده على الكلام !

فقلت أولاً : « ألا اجلس يا ماستر ريفرز » . ولكنه أجاب كعادته أنه لا يستطيع المكث ، فأجبت :

— حسناً جداً . قف لو شئت ، ولكنك لن تذهب . فقد حُزمت رأيي ! إن العزلة تشتيك كما تشقني على الأقل . ولن أتركك حتى أجد متفذاً إلى صدرك المغلق لأصب فيه نقطة من بلسم عطفي .

وسألته في برود : « هل هذه الصورة تشبه ؟ » .

— تشبه : تشبه من ؟ إنني لم أنعم فيها النظر .

— بل إنك فعلت يا ماستر ريفرز .

وروع باقتضائي العجيب . ونظر مشدوها إلى ، فقلت لنفسي :

« آه ، إنك لم تسمع شيئاً بعد !.. لن نخدعني صلابتك ، لأنني مستعدة

للمضي معك إلى أبعد الحدود ؟ .. ثم استرسلت قائلة : « إنك أمتعت

النظر فيها وعن كتيب ، ولكني لا أعارض في أن تنطلق إليها مرة أخرى . »

ونفضت فوضعتها في يده . وإذا ذاك قال : « إنها صورة بديعة الصنع !

هادئة واضحة الألوان . جميلة ، ومثقة الرسم ! » .

— نعم . نعم . أعرف كل هذا . ولكن الشبه ؟ .. من تشبه هذه

الصورة ؟ فسيطر على تردده وقال : « من أوليفر .. على ما أظن ! » .

— بالطبع .. والآن ياسيدي : لكي أكافئك على خدمتك الدقيق

أعذك بأن أوسم لك نسخة أخرى دقيقة أمانة من هذا الرسم « على شريطة

أن تعترف بأنك ستقبل الحدية : ولأنني لا أحب أن أبعثر وقتي وجهدي

في هبة لا تقدرها !

فظل يتفرس في الصورة . وكان كلما أطلال إليها النظر ، تشبث بها



واشتباها ، ثم تعفم قائلا : إنها تشبهها ! .. إن العين مرسومة جيداً ..
والألوان والضياء والتعبير .. كلها متقنة - إنها تبسم ! ..
هل يرضيك أو يؤلمك أن تكون لديك صورة مماثلة لها . قل لي !
هل تجد عزاء في هذا التذكار إذا كان يجوز لك في مدغشقر أو رأس
الرجاء الصالح أو الهند . أو أن رؤيته تثير أشجانك وأحزانك ؟
فرغم عنيبه خلسة ليرمقني في قلبي ، ثم عاد يتأمل الصورة وقال :
« أما أنتي أود الحصول على نسخة منها فهذا ما لا ريب فيه . وأما أن
حصولي عليها من العدل أو الحكمة فهذا موضوع آخر ! .. ولما كنت
واقفة من أن روزاموند تفضاه حقيقة ، وأن والدها لن يعترض في الأرجح
على قرائنها ، فقد شعرت في سويدائي بميل شديد إلى أن أعمل على تحقيق
هذه الرابطة . وخيل لي أنه لو غدا المالك لثروة مستر أوليفر الضخمة
لاستغلها خير استغلال بدل أن يترك عبقريته تذوي وقواه تنبذ تحت
الشمس الاستوائية المحرقة . وبهذا الإغراء أجبته : أرى من العدالة
والحكمة أن تأخذ لنفسك الصورة الأصلية في الحال ! »

* * *

● وكان في تلك الأثناء جالساً ، وقد وضع الصورة أمامه على المنضدة .
واعتمد بيمينه على كلتا يديه . وراح يتأملها في وجد وإعزاز ، فلم أر على
أساوره أنه غاضب أو مذهول لجرائي ، بل إنني رأيت أنه بدأ يشعر
بارتياح جديد وراحة - فوق ما كان يرجو - إذ وجد من يصارحه
بموضوع كان يشق عليه أن يسمه . وأن يعالج به هذا الإسراف . فالواقع
أن الكتومين المتحفظين كثيراً ما يكونون أشد من سواهم حاجة إلى

حديث صريح يتناول حاسبيهم وشجونهم . ومهما يكن فإن الذين
يبدون تزمناً في الكتمان بشر رغم كل شيء - فإذا نحن اقتحمنا عليهم
بحور أرواحهم الساكنة - في جرأة مستمدة من حسن النية - أسدينا
إليهم معروفاً . لذلك قلت وأنا أقف خلف الصورة : « إنني واثقة من
أنها تميل إليك وأن والدها يحترمك . وهي فوق ذلك حلوة مع شيء
من الحفنة والترك ، ولكن لديك ما يكفيها ويكفيك من الإدراك والتعقل .
فجيب أن تتزوجها » .

فسألتني : « وهل هي تميل لي ؟ » .. وإذ ذاك قلت : « بكل تأكيد .
وأكثر مما تميل إلى أي شخص آخر . فهي تتحدث عنك دائماً وباستمرار .
والحديث عنك من قريب أو بعيد هو أشبه الموضوعات لديها » .
يسرني أن أسمع ذلك . استمررت في حديثك ربع ساعة آخر !
وقعلاً أخرج ساعتها ووضعها على المنضدة ليحصى الزمان . فسألته :
« ولكن ما الفائدة من الاسترسال في الحديث إذا كنت تعد مطرقة
حديديتي من الاعتراض . وتسلك سلسلة جديدة تقيد بها قلبك ؟ »

- لا أتوهمي مثل هذه الأشياء القاسية . تعسوري خاضعاً مستسلماً :
إن الحب البشري أشبه بناقورة أو ينبوع تنفجر في رأسي وأخذت سيوله
تفيض على الحقل الذي أعددت بهناية وبذلت فيه مجهوداً كبيراً وزرعته
ببذور النبات الطيبة والمشروعات المنطوية على إنكار الذات . فإذا به
الآن - وأخيراً .. يفرق في قبض من الرحيق .. ذلك السم اللذيذ ! ..
الآن أتصورني مضطجعة على متكلي في غرفة الاستقبال في (قبل دول)
عند قدوس عروسي (روزاموند أوليفر) يصورها العذب

وتطلع إلى بهاتين العينين اللتين أبدعت في تصويرهما . وتبسم إلى بشتين كالعقيق . إنها لي وأنا لها . ولأنقع بخيالي الدنيوية .. الحياة الفانية ! .. صه ! لا تفوهي بشيء . فإن قلبي زاحر بالفرج والسرور وحواشي مسالوية .. دعي الوقت الذي حددته بحر في سلام !

وأطلعت . تمشياً معه .. وراحت الساعة تدق .. وكانت يلهث بيننا وقفت صامتة إلى أن انقضى ربع الساعة بسرعة وسط ذلك الصمت . فأعاد ساعته إلى جيبه ووضع الصورة في موضعها . ثم نهض من مكانه ووقف بجانب المدفأة . وما لبث أن قال : « لقد خصصت هذه الفترة للوجيزة للترهات والأوهام . فاعتمدت برأسي على وسادة الإغراء . ووضعت عنقي مختاراً تحت نهر من الزهور . وذهبت كأس الإغراء فوجدت الوسادة تعرق . وألفيت في الإكليل حية سامية ، وفي اللبنة مرارة .. كما وجدت وعود الأوهام جوفاء كاذبة . وعطابها زائلة . لقد رأيت وعرفت كل هذا ! » .

وتفرست فيه مشدوهة . بينما استرسل يقول : « من عجب أن أحب روزاموند أوليفر حباً طاغياً بكل مافي الحب الأول من حرارة وقوة . وأن أجد فيها بالمال رائحة وفتنة صارخة . ومع ذلك فلنا أحسن في الوقت نفسه أنها لن تكون الزوجة الصالحة أو الشريكة التي تلامي . وأنتي لن ألبث أن أكتشف هذه الحقيقة قبل انقضاء عام على زواجنا . فأجدني بعد اثني عشر شهراً من الهناء والسرور ، مسوقاً إلى أن أقضي العمر في ندم ! .. فلم أتمالك أن هنت : « إن هذا لعجيب في الواقع ! » .

— بينما يهتق شيء في كيا في يسحرها . يوجد شيء آخر في دخيالي

يفتني بعويها التي لا يمكن أن تلائم شيئاً من آمالي . أو تعاوتني على شيء مما آخذة على عاتقي . هل تصلح روزاموند لأن تقاسي وتعمل وتكون زوجة مبشر ؟ .. كلا !

.. ولكن لاحاجة تدعوك إلى أن تكون مبشراً .. في وسعتك أن تتخلى عن المشروع .

— أتخلى عنه ! عن رسالتي ؟ عن عملي العظيم ؟ عن الأساس الذي أرسيد على الأرض ليكمل لي قصرأ في السماء ؟ .. عن آمالي في أن أكون في عداد من انغمسوا واندجوا في أمل واحد هو الممويجنسهم وحمل مشعل العلم إلى دنيا الجهل وإحلال السلام محل الحرب ، والحريية محل العبودية ، والدين محل الخرافة ، والأمل في الجنة محل الخوف من الجحيم ! .. أتريدني أن أتخلى عن ذلك ؟ إنه أعلى لدى من الدم الذي يجري في عروقي .. إنه عملي الذي أطلع إليه وأرجو أن أعيش من أجله !

● وفلت بعد فترة طويلة من السكوت : « ومس أوليفر ؟ .. ألا تهتك خيبة رجائها وأحزائها ؟ » .

— إن مس أوليفر مخاطبة على الدوام بالخطاب والمغازيل . فلن ينقضي شهر واحد حتى تمحي صورتني من رأسها فتناسي . وربما تزوج برجل آخر يجعلها أسعد مما أستطيع أنا .

— إنك تنكلم ببرود عجيب . ولكنك تتعذب بهذا النضال ... إنك تدبلي وتذوي ...

— كلا . إذا كان قد أصابني شيء من الخراب فوسيب الشغل البال

على مشروعاى التي لم تستقر بعد ، وأسفارى التي أسوف فيها وأماطل ..
وفى هذا الصباح فقط . تلقيت من خطي - الذي كنت أتعجب على
مقدمه وانتظره بفارغ الصبر - أنه لن يكون متاهياً لشغل مكاني قبل
ثلاثة أشهر أخرى ، وقد تمت هذه الأتاهر إلى ستة .
- ولكنكك ترتجف وتتورد وجنتاك كلما دخلت مس أوليفر غرفة
التدريس .

ومرة أخرى تجلت على أساذيره آيات الدهشة لأنه لم يكن يتصور
أن تتجرأ امرأة على أن تتحدث إلى رجل بهذه الأهجة ! .. أما أنا ، فإني
لم أشعر بأية كلفة في هذا النوع من الحديث . لأنني لم أكن أستطيع أن
أستريح مع أصحاب العقول القوية المظنة المتهفة .. من الجنسين .. مالم
أحرر من استحكامات التحفظ التقليدى . واجترأ أعتاب الثقة . وأظفر
بمكان ثابت الأركان في القلوب . وأخيراً قال : .. إنك تتحدثين بفطرتك
دون أن تنهين . لأن في روحك ضرباً من الشجاعة وفي عينيك قوة
نافذة ، ولكن اسمحى لى أن أؤكد لك أنك أسأت إلى حد ما فهم عواطفى
وأنك تتوهمينها أعمق وأقوى مما هي في حقيقتها . وتخلعن على قدر من
الوجدانيات أكثر مما ادعى ! .. إني لأرى أنضى عندهم تنورد وجنتاى
أو أرتجف أمام مس أوليفر . ولكننى أحتقر هذا الضعف . وأراه شيئاً
لا يشرف بمجرد حى تصليب الجسد . وليست وليدة توقد الروح الثابتة
كالصخرة وسط بحر عجاج ! .. فأعزفنى على حقيقتى : رجلاً بارداً
صلباً ! ..

فابتسمت غير مصدقة . ولذلك استنرد يقول : « لقد انتزعت

نفثى عنوة وحي الآن طوع خدمتك .. إني في حقيقتى - وبكل بساطة -
مجرد من الثوب القاني الذي تغطى به المسيحية العيوب البشرية .. إني
رجل بارد قاس طموح . لا يسيطر على دائماً سوى الحب الطبيعي - من
دون العواطف الأخرى جميعاً - ويقودنى العقل لا الشعور . أما طموحى
فلا حدود له . وأما رغبتى في أن أمدو على الآخرين فهي جشعة لا تمتنع .
وإني أجد الاحتمال والمثابرة والجد والمواهب لأنها وسيلة الإنسان إلى
تحقيق الغايات الكبرى والارتفاع إلى الذروة الشاهقة .. ومن ثم فانا أرقب
عملك بلذة واهتمام لأننى أعتبرك أنموذجاً للمرأة الكلد . المنظمة .
النشيطة . لا لأننى أشفق على ما أصابك وما زلت تقاسينه ! ..

قلت : كأنى بك تصف نفسك بأنك مجرد فيلسوف وثى .

.. كلا . هنالك هذا الفارق بين وبين الفلاسفة الذين ينكرون

الوحي .. إني أؤمن .. وأؤمن بالإدول ! ولقد خانتك التعبير فانا لست
وثانياً وإنما أنا فيلسوف مسيحى من أتباع شريعة المسيح . وأنا كواحد من
تلاميذه . أعتقد عقائده الصافية الرحيمة الحميدة وأدافع عنها وأقسم أن
أروح لها . ولما كنت قد كرسيت حياتى الشابة للدين . فقد ثقفت وهذبت
مناقضى كما يلى : من البذرة الدقيقة لحب الطبيعى . تمت شجرة حب
الإنسانية الوارفة الغلال . ومن جنود الاستقامة البشرية الباقية الكثيفة ،
ترعرع الإحساس بالعدالة الإلهية . ومن الضموض إلى اكتساب القوة
والثيرة لنفسى الشقية البائسة . تكون الطموح إلى بسط مملكة إلهى
وإحراز الانتصارات لواء المسيحية ... لقد فعلت في الدين الكثير ، إذ سمح
بعناصرى الأصلية وشذب طبيعى . ولكنه لم ينو على عو الدليعة نفسها

— وإن يقوى — لأن الطبيعة ستظل وتبقى إلى أن يقدر للإنسان الثاني أن يكتسب الخلود !

وما أن قال ذلك حتى تناول قبعته — التي كانت على المنضدة بجانب لوحة الألوان — ثم ألقى نظرة أخرى على الصورة وهمهم قائلاً : « إنها جميلة جدية فعلاً بأن تسمى روزاموند .. أى ورثة العالم ! » .
ثم أتردد أن أرسم لك صورة مثلها ؟
— وما الفائدة ؟ .. كلا !

ثم غطى الصورة بغلاف من الورق الخفيف اعتدت أن أضع عليه يدي أثناء الرسم لأحول دون تلوث الورق المقوى . ولكن شيئاً في هذه الورقة البيضاء .. لم أعرفه — لفت بصره فجأة : قشدها بقوة وتأمل طرفها ، ثم رمقني بنظرة سريعة « غريبة » لم أدرك معناها ، ولكن خيل لي أنها قد هبطت على كل جزء من جسمي ووجبي وثوبي . واخترقها جميعاً في سرعة الوميض ، ثم ففر فاه وكأنه ييم بالكلام . ولكنه حبس العبارة التي أوشك أن يتعلق بها . فسألته : « ما الذي جرى ؟ » . فقال : « لا شيء » . ثم أعاد الورقة ورأيت يرق شريطاً ضيقاً في طرفها بنهارة وعناية ثم أخفاها في قفازها . وحني لي رأسه على عجل قائلاً : « طاب مساؤك » .. واختفى !

فصحت بلغة المكافحة : « إن هذا يتوق كل شيء ! » .

ورحت بدوري أنفرسی في تلك الورقة دون أن أرى شيئاً غير آثار الألوان التي كنت أجربها بقلمی . ومضيت أفكر في السربض دقائق «

فلما استعص على ولم أجده حلاً وأيقنت أنه ليس بالغ الأهمية . أعصيته عن خاطري : وسرعان ماتت !

الفصل الثالث والثلاثون

■ وعندما خرج مستر سانت جون . كانت الثلوج قد بدأت تساقط . وظلت الزوينة الهوجاء تعصف طوال الليل . وفي اليوم التالي هبت رياح قارسة تعمل أمطاراً جديدة غزيرة . وفي الغسق كست الثلوج الوادي وسدت منافذه . فأغلقت نافذتي . ووضعت حصيرة عند الباب لمنع الثلوج من التسرب إلى الداخل : ثم سويت النار في موقدي . وبعد أن قضيت ما يقرب من الساعة أصغى إلى غضب العاصفة المكنومة الأنفاس : أضأت شمعة وتناولت ديوان (مارميون) ..

وسرعان ما نسيت العاصفة .. على أنني ما لبثت أن سمعت جلبة ، فظننت أن الرياح تهب الباب . ولكن : كلا .. كان ذلك سانت جون ويفرز الذي رفع مزلاج الباب ثم دخل هارباً من العاصفة الثلجية والظلام العاوي . ووقف أمامي وقد بدت العبادة التي تغلف قوامه الطويل أشبه في بياضها بصفحة من الزجاج . وكاد الذعر أن يتولاني لأنني لم أكن أتوقع أي زائر — في تلك الليلة — من الوادي الذي سدت الثلوج منافذه . فسألته : « هل هناك أبناء سيئة ؟ هل حدث شيء ؟ » .

فأجاب وهو يخلع عباءته ويعلقها بالباب : « كلا .. ما أسهل أن تراقعي ! .. » ثم أعاد الحضور إلى مكانه عند الباب : « طيب الأرض

بقدميه ليزيل الثلوج عن حدائه وقال : « أخشى أن أطلع أرض حجرتك ،
ولكني أطمح في صفحك على النور ! » .
واقترب بعد ذلك من الموقد وقال : « لقد عانيت مشقة كبيرة في
الوصول » .

وراح يذوق يديه على النخب . ثم قال : « لقد أغرقني لفتحة من
العاصفة إلى وسطى في الجليد ، ولكن الجليد كان بعد طرياً لحسن
الخط ! » .. ولم أملك سوى أن أسأله : « ولكن لماذا أتيت ؟ » .
— هذا سؤال لا يفتق مع كرم وفادة الزائر . ولكن مادمت قد
وجهته إلى فلاني أجيبك ببساطة بأنني أردت أن أتحدث معك قليلا . فقد
ملأت سببي الصامتة ومسكني الخاوي .. هذا إلى أنني .. منذ أمس -
تملكني قلق الشخص الذي سمع من القصة نصفيها . فهو يتلهف على سماع
البقية المكتملة ! » .

ثم جلس .. وتذكرت سلوكه الشاذ في اليوم السابق . فخلت أن به
مأماً من الجنون . وأنه - إذا صح أنه ملأناث القتل حقيقة - فإن خبلة
هادئ رزين . والواقع أنني لم أر ذلك الوجه المليح القسما أكثر شهراً
بالرخام المنحوت مما رأيته إذ ذاك . حين رفع شعره المبلل بالثلوج جانباً
وترك ضياء المدفأة يملأ جبينه المستقع ووجنتيه الشاحبتين حيث اكتشف
للأسف والامسي آثار العناء والحزن غائرة في وضوح . وترقيت في انتظار
أن يقول شيئاً أستطيع على الأقل أن أفهمه . ولكن يده كانت مرفوعة
إلى ذقنه . وإصبعه على شفته . وهو غارق في التفكير ! .. وأذهلني أن
أرى يده مغمضة كوجهه . ولعل موجة من الرثاء طغت آنذاك على قلبي

فقلت : « ليت ديانا وماري تأتيان وتعيشان معك ، فليس أسوأ من أن
تعيش وحده ولا تبالي صحتك ! » .
— كلا مطلقاً .. إنني أعني بنفسى عند الزوم . وأنا الآن بخير .
أي نقص تريده في ؟

وعاد يحدق بعيني في الموقد . ولما رأيت ضرورة التعجيل بقول
شيء ما . سأله فجأة عما إذا كان يشعر ببرد يبعث من ناحية الباب
القائم خلفه . ولكنه أجابني في اقتضاب وعناد : « كلا .. كلا ! » ..
فقلت في نفسي : « حسناً ! » ما دمت تأتي أن تتكلم فلا تتركك لمصمتك
ووحدة وأعود إلى ديواني ! » .

* * *

● ونظفت فتيلة الشمعة . ثم عدت أتصفح ديوان (ماربون) .
وسرعان ما تحرك فانجذبت عيناى إلى حركته . فوجدته يخرج حافظه
من الجلد الرقيق . وأخذ منها خطاباً جعل يقرؤه في صمت وسكون ،
ثم طواه وأعاد . ليغرق في محور التفكير من جديد .. ورأيت من العتب
أن أقرأ أمام هذا المتسمر في مكانه هكذا ، ولم أقو على أن أظن خرساء
وقد نفذ صبري لطول ذلك الصمت . فلم أبال بغمائه وقالت : « هل
تلقيت أنباء من ديانا وماري أخيراً ؟ » .

— لا شيء . بعد الخطاب الذي أطلعتك عليه منذ أسبوع .

— هل حدث أي تغيير في مشروعاتك ؟ هل ستدعى إلى مغادرة
انجلترا بأسرع مما كنت تتوقع ؟

— لا أظن ذلك في الحقيقة . فإن هذا الخط لا يزال لي !

وحررت في أمره فأريت أن أخير مجرى الحديث : وفكرت في أن أحدثه عن المدرسة والتلميذات فقلت : « لقد تحدثت صحة أم ماري جارتك عن ذي قبل ، ومن ثم عادت ماري إلى المدرسة في هذا الصباح . وسوف تغد إلينا أربع تلميذات جديدات من مـ بـ كـ (كلوز) ولولا الثلج لحضرن اليوم » .

— صحيح ؟

— ويتولى مستر أوليفر الإنفاق على الاثنين منهما .

— كذا ؟

— إنه يعزم إقامة وليمة للمدرسة كلها في عيد رأس السنة .

— أعرف ذلك .

— أكان هذا اقتراحك ؟

— كلا .

— اقتراح من إذن ؟

— اقتراح ابنته فيما أعتقد .

— ليس هذا بمستغرب منها ، فهي طيبة القلب جداً .

ثم ران الصمت مرة أخرى ودقت الساعة الثامنة ، فصحا من تأملاته واعتدل في جلسته ليقول : « دعي كتابك لحظة واقتربي من المدفأة قليلاً ! » . فعجبت ، ولكن عجبى لم يجد ما ينفع غلته فرضعت . واسترسل يقول :

— حدثت منذ نصف ساعة عن طغي لـ مـ بـ كـ القصة . ولكنني وجدت بعد التأمل والتفكير أنه من الأفضل الآن أن أقوم بدور القصص

وأن تتحول أنت إلى دور المستمعة . ويحسن أن أنبهك — قبل أن أبدأ — إلى أن القصة ستقع في أذنك موقع الابتذال ، لكن التفاصيل المبتذلة تستعيد في الغالب شيئاً من الجدة إذا نطقت بها شفاه جديدة : ففند عشرين عاماً — وقع قيس صغير — لاتبالي اسمه الآن — في غرام ابنة رى . ووقعت هي الأخرى في غرامه ، فتزوجا برغم نصيحة جميع أهل الفتاة الذين تبرأوا منها على أثر زفافهما .. ولم يتقضى عامان ، حتى توفى العاشقان ودفنا في سكون جنياً إلى جنب ، وقد رأيت قبرهما ، فهو يؤلف جزءاً من حافة الساحة المائلة المحيطة بكاتدرائية عتيقة ، سود الدخان جدرانها ، في مدينة صناعية مترامية الأطراف . في مقادعة (....) . ولقد خلفا ابنة تلقفها الإحسان في حجره البارد ، الذي يشبه المنفحة الجليدية التي دهمتنى الليلة . وحمل الإحسان الطفلة العديمة النضير إلى بيت خالها الغني ، حيث ربتها زوجة الخال ، وكانت تدعى — وهنا أذكر الأسماء — مسز ريد من (جيتسهد) .. لماذا ارتعت ؟ .. هل سمعت جليلة ؟! .. إنما هي قطعة تزحف بين ألواح سقف المدرسة الجاورة ، فقد كان المبنى يوماً مخزناً للغلال . وهذه المخازن ترتادها الفئران عادة .. وأعود لتقصي فأقول إن مسز ريد تولت تربية اليتيمة عشر سنوات . أما هل كانت الفتاة سعيدة أو كانت شقية ، فلا أستطيع الجزم . ولم يخبرني أحد . ولكنها نقلت في نهاية تلك السنوات إلى مكان تعرفينه أنت ، وهو مدرسة (لو وود) حيث قضيت فترة طويلة . ويبدو أن سيرتها هناك كانت ناصعة ، لأنها لم تلبث أن أصبحت معلمة مثلك . حقاً ، يدهشني أن ثمة تشابهاً بين تاريخها وتاريخك . ثم غادرت

الفتاة المدرسة واشتغلت مربية — مثلث — لفتاة قاصرة تحت وصاية رجل يدعى مستر روشستر .

وهنا قاطعته هاتفة : (مستر ريفرز !) .. فقال : بوسعى أن أحسن مشاعرتي . ولكن عليك أن تكبحها قليلا . إذ كدت أنتهي ، فاجعني إلى النهاية . إنني لا أعرف شيئا عن أخلاق مستر روشستر اللهم إلا أنه أراد الزواج بثلث الفتاة الشابة . فاكشفت وهي أمام المذبح تماما أنه متزوج بأخرى على قيد الحياة — وإن كانت ميتة .. ولا أدري ماذا عرض عليها بعد ذلك . ولكن عندما وقع حادث استوجب البحث عن الفتاة بعد ذلك . تبين أنها فرت — دون أن يدري أحد متى وأين وكيف فرت — وأنها غادرت (ثورنفلد هول) ليلا . وذهب سدي كل بحث عنها . ومع ذلك كان لزاما أن يستأنوا البحث . فتنبوا في طول الريف وعرضه دون الاهتمام إلى أثر لها . ونشرت الإعلانات في جميع الصحف . وأنا شخصيا تابعت خطايا من محام يدعى مستر ريفرز ذكر فيه البيانات التي رويتها لك الآن . ألبست قصة عجيبة ؟ »

قلت : « مادمت تعرف كل هذا . فلماذا أنك تستطيع أن تثبتني بشيء عن مستر روشستر . كيف وأين هو الآن ؟ »

— إنني أجهل كل شيء عن مستر روشستر . فإن الخطاب لم يذكر عنه إلا المحاولة غير الشرعية التي ألمعت إليها . ولكن يحسن أن تسألني عن اسم المربية وعن ماهية الحادث الذي يتطلب ظهورها !

— ألم يذهب أحد إذن إلى ثورنفلد هول ؟ .. ألم ير أحد مستر روشستر ؟

— لا أظن .

— ولكنهم كتبوا إليه ؟

— يشير مستر ريفرز في خطابه إلى أن الجواب الذي تلقاه لم يكن من مستر روشستر وإنما من سيدة تدعى أليس فيرفاكس .

فشعرت ببرودة قارسة وبالكثاب . وخشيت أن تكون مغاوي قد تخفت . إذ يحتمل جدا أن يكون مستر روشستر قد غادر إنجلترا ، ودفعه ثبوره إلى أن يجم على وجهه في أوروبا . أي مسكن لآلامه المضنية وأية غاية لمواطنه المشبوهة يلتبس هنالك ؟ .. ولكنني لم أجرو على الرد عن هذا السؤال .. أو أنه ياسيدي المسكين . الذي كاد أن يصبح زوجي يوما . والذي ظالما نادبته « عزيزي إدوارد » !

وقال مستر ريفرز : « لا بد أنه كان شريرا » . فنهفت بحرارة : إنك لاتعرفه فلا تب رأيا فيه ! .. ولكنه أجنبي في هادس : « حسنا سيد ، الواقع أن رأسي مشغول بأمر أخرى غيره . ولدي قضيتي أريد الانتهاء منها . وما دمت لا نريدن سؤالي عن اسم المربية فيجب أن أذكره من تلقاء نفسي .. انتظري ! إنني أحفظ به هنا .. فن دواعي الارتياح أن يدون الإنسان النقط الهامة بالذاكرة » . ثم أخرج مرة أخرى حافظته في أداة . وفتحتها وفتحتها ثم أخرج من بعض عيوبها قصاصة متسخة قطعت على عجل . فأدركت من نسيجه ومن الألوان التي كانت تلطخها ، أنها القصاصة التي قطعها بالأمس من غلاف الصورة ! .. ثم قام ووضع الورقة أمام عيني . فقرأت كلتي (جزئي) مكتوبتين بالحبر الهندي . ويخط يدي . ولا بد أنني كتبتهما في لحظة شرو ..

● وقال القس الشاب : « لقد كتب إلى مستر بريجز عن جين إير ، وطلبت الإعلانات البحث عن (جين إير) : وإذا كنت أعرف من تسمى جين اليوت ، فقد ساورني الشك الذي لم يتأكد ويتحقق إلا عصر أمس ، فهل تعترفين بأحدك الحقيقي ؟ »

— نعم . نعم . ولكن أين مستر بريجز ؟ إنه قد يكون أكثر منك معرفة بأبناء مستر روشستر !

— إن بريجز في لندن ، وأشك في أنه يعرف شيئاً عن مستر روشستر . لأن اهتمامه ليس موجهاً إليه . ولكنك تسيين النقط الهامة ولا تبتغيز سوى الأمور التافهة ! لماذا لا تسأليني عن السبب الذي يبحث مستر بريجز عنك من أجله وفيه يريدك ؟

— حسناً . ماذا يريد ؟

— لا يريد سوى أن يخبرك بأن عمك مستر إير من (مادييرا) قد توفى ، وأنه ترك لك كل ثروته ، وأنت الآن غنية ! .. هذا كل شيء ، ولا أكثر من ذلك !

— أنا .. غنية ؟

— نعم . أنت غنية .. ووارثة !

وساد السكون إلى أن قطعه سانت جون فجأة بقوله : « إن عليك بطبيعة الحال أن تتبقي شخصيتك ، وهي خطوة لن تجدى فيها صعوبات ، وتستطيعين بعدها أن تستولى على إرثك في الحال . إن ثروتك مودعة في المصارف الإنجليزية ، ولدى بريجز الوصية والمستندات اللازمة ! » : وهكذا قابلت صفحة جديدة في سفر حياتي . إنه شيء جميل — أنها

القارئ ! أن ترفع في لحظة من الفقر المدقع إلى الثراء .. شيء جميل ، ولكنه أمر لا يمكن أن نفهمه ونستوعبه مباشرة وعلى الفور ! .. ثم إن في الحياة مصادفات أكثر إثارة وأبهر من هذه التي بدت جامدة .. مجرد حدث من أحداث الدنيا ، ليس فيه — أو حوله — شيء من المثل العليا . كما أن كل ملاساته جامدة وقورة ، وكذلك كانت مظاهره . فليس فيه مفاجأة تجعل الإنسان يشب أو يقفز أو يتهلل من الفرح ! بل إنه ما يكاد يظفر بالثروة حتى يبدأ التفكير في المسؤوليات والتبعات والعمل . وما أن يستتب الشعور بالرضى حتى تنشأ — على أساسه — الشواغل والهموم ، فتنتطوى على أنفسنا وتغليل التفكير في التهمة التي حلت بنا ، بجين مكفهر !

هذا إلى أن كلمتي « ميراث ووصية » تسيران جنباً إلى جنب مع كلمتي « موت وجنازة » . لقد كان عمي الذي سمعت بموته هو قريب الوحيد ، وقد عشت — منذ فطنت إلى وجوده — بأمل أن أراه في يوم من الأيام . أما الآن فقد انقطع هذا الأمل ، ثم جاءني أمواله بدلاً منه ، لا لي — وأنا ربة أسرة تنعم بالمفاجأة — وإنما لي ، وأنا وحيدة ، منزلة ! .. ومع ذلك فقد كانت المفاجأة نعمة عظيمة .. ولسوف يكون تحرري من الفاقة أمراً جيداً .. أجل : لقد شعرت بذلك .. ولقد امتلأ قلبي سعادة .

وقال مستر ريفرز ، إذ بلغت هذا الحد من تفكيري : « ها قد رفعت جيبك أخيراً ، وكنت أحسبك قد تحولت إلى حجر ! .. ولعلك تسأليني الآن كم تساوين ؟ » .

— نعم كم أساوى الآن ؟

— أوه .. شيئاً تافهاً ! شيئاً لا يستحق الذكر ! أظنهم يقولون
عشرين ألف جنيه !

— عشرين ألف جنيه ؟

وكانت هذه مفاجأة جديدة . إذ كنت أتوقع ألا تعدو الثروة
أربعة أو خمسة آلاف . فاحتسبت أنامى لحظة . مما جعل سانت جون
— الذى لم أسمعه بضحك من قبل — يقهقه ويقول : « عجباً !.. لو أنك
اقتربت جريئة قتل ثم أخبرتك بأن جريمتك قد اكتشفت ما أبديت كل
هذه الدهشة ! » .

— إنه مبلغ كبير . ألا تعتقد أن هناك غلطة ما ؟

.. لا غلطة هناك على الإطلاق .

— تلك أخطأت في قراءة الأرقام .. ربما كانت أثنى جنيه !

— إنها مكتوبة بالحروف لا بالأرقام .. عشرون ألفاً !

ومرة أخرى . شعرت كأننى مخلوقة ذات شبيهة معتدلة للأكل .

جلست وحيدة إلى مائدة حفلت بما يكفى مائة شخص ! .. وهنا . نهض

مستر ريفرز . فالتف بعباءته قائلاً : « لو لم تكن الليلة عاصفة لأرسلت

حنة لتبقى في رفقنا . لأنك أنت نفس نفساً من أن تظلى وحدك . ولكن حنة

المسكين لا تستطيع أن تخوض مثلى الثلوج . ولذلك يجب أن أتركك » .

وفيا كان يرفع المزلج خطرت برأى فكرة مفاجئة . فصاحت :

— إن ما يخبرنى هو : لماذا كتب لك مستر ريفرز عنى . وكيف

عرفك أو خطر بباله أنك .. وأنت تعيش في مكان لا علاقة له بأمري —

تستطيع أن تعاونه في العثور على ؟ !

— آء ! .. إننى قسيس ، والقساوسة يلجأ إليهم في الملمات .

● ومرة أخرى جلجل المزلج فصاحت : « لا .. هذا جواب

لا يقتضى ! .. والواقع أن شيئاً في رده العاجل . المبهم ، أذكرى فضولى

بدلاً من أن يبدئ جأشئ . فاسترسلت أقول : « إنه لأمر عجيب ،

ولا بد من أن أعرف المزيد عنه » . فتهف : « كلا .. ليس الليلة ! .. » .

وإذا استدأر إلى الباب . وقفت بينهما . فتعجل عليه الارتباك ولكنى قلت :

— لن نذهب من هنا حتى نخبرنى بكل شئ .

— أوثر ألا أقمل ذلك الآن .

— بل لسوف نخبرنى !.. يجب !

— من الخبير أن تخبرك ديانا أو ماري .

وأثارت هذه الاعتراضات .. بطبيعة الحال — لهفنى ، وبلغت

بها الذروة . فكان لا بد من أن أشيعها دون إبطاء . وأخبرته بذلك فقال :

— ولكنى قلت لك إننى رجل فاس يصعب إغراؤه .

— وأنا امرأة قاسية صلبة يصعب إرجاؤها .

— أنا رجل بارد لا تؤثر فيه حرارة أو حماسة .

— وأنا حارة .. نار تذيب الثلج ، كهذا الوهج الذى أذاب الجليد

عن عباتك فاتهر على أرض حجرتى وجعلها كشوارع تطرقه الأقدام ..

إنك تريد أن أعفبك . فهلا أخبرتنى بما أريد ؟

— حسناً إذن ، لقد استسلمت .. إن لم يكن الخبير الذى أخبرتك

فإن الخجر يبلية توالى سقوط القطرات . هذا إلى أنك ستعلمين بالأمر يوماً ما ، عاجلاً أو آجلاً .. هل اسمك جين إير ؟

— بالطبع . لقد فرغنا من هذا الأمر من قبل .

— لعلك لا تعلمين أنني أحل لقبك ، وأن اسمي سانت جون إير

ريفرز ؟

— كلا في الحقيقة . لقد رأيت حرف (أ) على كل كتاب استعرتة منك . ولكني لم أسألك قط عن بقية الاسم . وماذا بعد ذلك ؟ .. لاشك

أن ...

ثم توقفت لأنني لم أجد من نفسي قدرة على التسليم بالفكرة التي شاعرتني فجأة ، ولا على التعبير عنها بعد أن تجسست وبدت لي في الحال قريبة الاحتمال .. لقد تعقدت الأمور ثم انتظمت . ثم تحولت السلسلة المكسدة إلى عقد منظوم تنصل كل حبة فيه بالأخرى . ولقد عرفت بغيري ما هي أهمية الأمر قبل أن ينطق سانت جون بكلمة واحدة ، ولكنني لا يمكن أن أتوقع للقارئ نفس هذه البصيرة البديهية . ولذلك يجب أن أعيد عليه ما أوضحه سانت جون . إذ قال :

— كان (إير) اسم والدتي . وكان لها شقيقان .. أحدهما قسيس تزوج من جين ريد من (جينسبيد) . والثاني جون إير التاجر بجزيرة ماديرا . ولما كان مستر بريجز محامي مستر جون إير ، فقد كتب إلينا في أغسطس يخبرنا بوفاة خالتنا ، ويقول إنه ترك ثروته لابنة القسيس اليتيمة ، وأنه لم يوص لنا بشيء لأنه لم يستطع أن ينسى الضغائن القديمة التي خلفها ما قام بينه وبين أبي من نزاع . ثم كتب مرة أخرى منذ

أسابيع يقول إن الوارثة مفقودة ، ويسألني عما إذا كنت أعرف عنها شيئاً . وقد وقعت عيناي مصادفة على اسم مكتوب على ورقة ، فإذا بي أتهدي إليها .. وأنت تعرفين الباقي !

وهم بالذهاب مرة أخرى ، ولكنني دفعت الباب بظهري وقلت : « أرجو أن تدعني أنكلم . اترك لي دقيقة أستردها فيها أنفاسي وأفكر » .. وتوقفت ، فوقف أمامي وقبعته في يده . وكان يادي الارتباك ، فاستطردت أقول :

— هل كانت والدتك شقيقة أبي ؟

— نعم .

— إذن ، فهي كانت عمتي !

فحنى رأسه موافقاً .

— وإذن فقد كان خالك جون هو عمي جون . وأنت وديانا وماري أبناء شقيقته كما أنني ابنة أخيه ؟

— بلا مرأه !

— إذن فأنتم الثلاثة أبناء عمتي ، وينبع نصف دمنا من معين واحد ؟

ونظرت إليه ، فخيّل لي أنني وجدت شقيقاً أستطيع أن أفخر به وأحبه : وشقيقتين سمت أخلاقهما — عندما عرفتهما وكانتا مجرد غريبتين عني — بحيث أثارتا في نفسي الحب والإعجاب . وإذن فالفتاتان اللتان ركعت على الأرض المبللة لأنظر إليهما خلال النافذة المغطاة بالذاتلا ، بمطبخ (مورهاوس) نظرات تفيض بالاهتمام والياس كانتا من أقرب أهلي ، وإذن فالسيد الشاب الذي وجهني مشرفة على

الموت على عتبة داره . كان من ذوي رحى !.. ياله من اكتشاف رائع
ثباته وحيدة !.. لقد كانت هذه ثروة في الحقيقة . وأى ثروة !..
ثروة للقلب . ومنجماً لللب الصائى الأصيل . ونعمة مشرقة زاهية
مبهجة . ليست كهية الذهب الثقيل !.. وصفت يدي في فرحة مفاجئة ،
وقد وثب قلبي في صدري . وثارت عروقي وصحت :

« أواه .. إني مسرورة !.. إني مسرورة !

فابتسم سانت جون وسألني : « ألم أقل إنك أحملت النقط الهامة
لنصفى التوافق ؟.. لقد كنت رازبة عندما أخبرتك بأنك أصبحت ثروة ،
وحأنتدى الآن مشغولة أشد الانفعال !.. »

« ماذا تعنى ؟ قد لا يهلك الأمر . لأن لك شقيقتين . أما أنا فلم
يكن لي أحد . فوجدت الآن ثلاثة أقرباء أو اثنين إذا كنت لا ترضى
أن أعذك معهما . إني أكره أني مسرورة !

● ورحبت أخطو في الغرفة بخطوات مسرعة ، ثم وقفت وقد أوشكت
أن أختنق بالأفكار التي نادعت إلى رأسي متزاحمة حتى عز على إدراكها
أو تفسيرها .. وكانت أفكاراً تدور حول ما قد يكون . وما يمكن أن
يكون . وما يجب أن يكون !.. وتطلعت إلى الجدار الأملس الأبيض ،
فخيل إلى أنه ساء تنأى بالنجوم . وقاضت نفسي بالفرح إذ أدركت أنه
قد أصبح في وسعي أن أنفع أولئك الذين أنقلوا حياتي . والذين أحببتهم
حتى هذه الساعة حياً خالصاً ، مترهاً عن الغرض .. لقد كانوا يرسفون
تحت نير الحياة القاسية . وفي وسعي أن أحررهم .. لقد كانوا مفرقين ،



وهم بالذهاب مرة أخرى ، ولكنني دهمت الباب بظهري وقلت :
« أرجو أن تدعني أتكلم . اترك لي دقيقة أسترد فيها أنفاسي وأفكر »

مشتتين ، فأصبح في مقدوري أن أجمع شلهم .. لماذا لا يتعمون هم الآخرون بما أنعم به من استقلال ؟ .. ألم تكن أربعة ؟ .. إذن ظنوا قسمت الجنيات العشرون ألفاً بالتساوي بيننا ، لأصاب الواحد منا خمسة آلاف تكفيه ، بل تزيد عن حاجته ! .. إذن فلابد للعنلة من أن تأخذ مجراها ، قسملنا السعادة جميعاً ! .. وإذ ذاك لم أعد أشعر بالثروة عبئاً يثقل كاهلي ، لأنها لم تعد في نظري مجرد ميراث نقدي ، وإنما غدت وثيقة الحياة والأمل والنعم !

ولست أدري ما الذي ارتسم على وجهي إذ طافت هذه الخواطر برأسي وثار تمحسى لها ، ولكنني أبصرت بستر ريفرز يحمل مقعداً فيضعه خلفي ، وروح يغريني بالجلوس ، وينصحنني بضبط عواطف . غير أنني سخرت مما خاله خوراً لأصابني ، فدفعت يده ، وجعلت أذرع الحجر من جديد ، ثم قلت له : « اكتب إلى ديانا وماري غداً لتعودا في الحال . لقد سمعت ديانا تقول إنها تعد نفسها غنية إذا هي ظفرت بألف جنيه ، فما بالك بهما لو أن كلا منهما ظفرت بخمسة آلاف ؟ » . فقال سانت جون : « نبيئي ، من أين أتيت بكوب ماء ؟ .. »

— هراء ! .. ترى كيف كان يحتمل أن يكون تأثير الوصية عليك ، لو أنها كتبت لصالحك ؟ .. أفكانت تستبقيك في إنجلترا ، وتغريك بالزواج من مس أوليفر ، وبلا استقرار كثير من بني البشر ؟

— إنك تهين .. لقد اختبلت ! .. لقد كنت مندفعاً في إزجاء النيا إليك ، فقد أثار انفعالك أكثر مما تحتمل قواك !

— إنك تفقدني صبري يا ماستر ريفرز ! .. إنني مكتملة العقل ، ولكنك أنت الذي تسيء الفهم ، أو تعتمد إساءة الفهم !
— قد أعدوا أكثر إحراكا ، لو أنك زدني إيضاحاً بعض الشيء .
— إيضاح ! .. ما الذي هناك للإيضاح ؟ .. ما أظنه يعيبك أن ترى أن العشرين ألف جنيه — وهو المبلغ الذي نحن بصدده — إذا قسمت بالتساوي على أبناء الخطوة الأربعة . فإنها تبيع لكل منهم خمسة آلاف ! .. والذي أبقيه هو أن تكتب لشقيقتك وتبئهما بالثروة التي أصابتهما .

— تعين .. أصابتك .

— لقد انتهيت إلى رأي في الأمر ، وليس بوسعي أن اتخذ رأياً سواه . إنني لا أتصف بأنانية هوجاء . ولا بظلم أعمي ، ولا بحدود مزر . ثم إنني عقدت العزم على أن يكون لي بيت وأقارب . ولما كنت أحب (مورهاوس) . لذلك فسوف أعيش في (مورهاوس) .. وبما أنني أحب ديانا وماري . لذلك فسأربط حياتي بحياة ديانا وماري .. ولسوف يرضيني ويفيقني أن أمتلك خمسة آلاف من الجنيات ، ولكن .. سعيديني ويرهقني أن أمتلك عشرين ألفاً « هي — فوق ذلك — ليست من حقي شرعاً ، وإن أمكن أن تكون حقاً لي بحكم القانون . ومن ثم فسأزول لكم عما هو أكثر مما أستحق فعلاً .. فدع كل معارضة وكل مناقشة في ذلك ، ولتتفق فيما بيننا !

— هذا تصرف من وحي انفعالاتك الأولى ، فلابد من أن تتريث أياماً لتدري مثل هذا الأمر ، حتى تكون كلمتك صائبة !

— آه ! .. إذا كان صدق عزمي هو كل ما ترتاب فيه . فاطمئن ..
ألا تؤمن بعدالة المسألة ؟

— الحق أنني أرى فيها قسطاً من العدل ، ولكنها مخالفة لكل عرف .
ثم إن الثروة بأكلها من حقل . وقد اكتسبها خلقي بجهوده ، ومن ثم
كانت له الحرية في أن يتركها لمن يشاء . وقد تركها لك .. والعدالة تبيح
لك — برغم كل شيء — أن تستأري بها ، فلك أن تعتبرها ملكك المطلق .
وأنت مرتاحة الضمير !

— إن المسألة لدى مسألة مشاعر كما هي مسألة ضمير ، إذ لا بد لي
من أن أقبح مشاعري هنا . فنادراً ما سمحت لي الفرصة لهذا .. ولو أنك
حاججتني . وعارضتني ، وضايقتني عاماً بأكمله . لما أنثيتني عن المتعة
العذبة التي لاح لي قبس منها .. متعة رد جميل هائل بعرفان بسيط .
واكتساب أصدقاء يخططون في مدى الحياة !

قال : « إنك إنما ترين الآن ذلك . لأنك لم تعرفي بعد متعة القتل .
ولا لذّة الثراء .. ليس بوسعك أن تكوني فكرة عن قيمة العشرين ألف
جنيه لديك . ولا عن المكانة التي تستطيع أن ترفعل إليها في المجتمع ،
ولا عن الفرص التي ستفتحها أمامك .. ليس بوسعك .. » . فقاطعتني
قائلة : « وليس بوسعك أنت أن تتصور الحنين الذي يملكني نحو
حب الأخ وحب الأخت .. إنني لم أحظ يوماً ببيت . ولا كان لي
إخوة ولا أخوات ، فلا بد لي الآن من كل ما حرمته منه .. أتخجم عن
أن تقباني أخيراً ؟ » .

— بل سأكون أخاك يا جين ، وستكون شقيقتائى شقيقتيك ،
دون ما دأب لأن تضحي بحقوقك .

— أخ ؟ .. أجل ، على آلاف الفراسخ منى .. وشقيقتان ؟ ..
نعم ، شقيقتان في خجلة الأغراب .. أفأكون غنية ، متخمة بذهب لم
أكتسبه ولا أستحقه ، وأنت معدوم ؟ .. ياها من مساواة ومن إخاء .. !
ألا قرب البعيد ، ووثق الرابطة !

— ولكن آمالك في الروابط العائلية والسعادة المنزلية يمكن أن
تتحقق يا جين بطريقة غير التي تفكرين فيها .. بوسعك أن تنزويجى .

— هراء ! .. أعود مرة أخرى إلى فكرة الزواج ؟! .. لست أريد
زواجاً ، ولن أتزوج .

— هذا إسراف في القول ، وما هذه التأكيدات الملقاة جزافاً ،
إلا دليل على الانفعال الذي تعانيه .

— ليس هذا إسرافاً في القول « فإنني أدرك ما يتخلج في صدري ،
وأعرف مدى نفور نفسي من مجرد التفكير في الزواج . إن أحداً لن
يقبلي زوجة من أجل الحب وحده ، بل سأكون مجرد صفقة مالية .
ثم إنني لا أريد معاشرة غريب ، أجنبي عني ، لا تربطني عاطفة » . وإنما
أنا أشد الأقارب الذين أشعر بأنني منهم وهم مني . قل مرة أخرى إنك
ستكون أختي .. لشدة ما شعرت باغتياب وسعادة حين تطلعت بهذه
الكلمات .. كررها ، إذا استطعت أن ترددها صادقاً !

— أعتقد أن هذا بوسعي .. إنني لأوقن من أنني كنت دائماً أحب
شقيقتي ، وأدرك الأساس الذي قام عليهما ،

والإعجاب بمواجهتهما .. وأنت الأخرى لك مبدأ وعقل راجح - كما أن أذواقك وعاداتك تشبه أذواق وعادات ديانا ومارى - ولقد ارتحت دوماً إلى وجودك ، ووجدت في حديثك سلى وتسرية - ومن ثم فإننى أشعر أن من السهل عليّ أن أفسح لك مكاناً في قلبي ، دون ما تكلف ، فتصبحي أختاً ثالثة .

... شكراً .. إن هذا يسعدنى في أمسى . والآن « يحسن بك أن تنصرف لأنك تسبج شجوني ببعض الهبات التي تم عن تردد ، إذا أنت أطلت المقام .

فأبسم في تقدير ، وتصافحتنا . ثم انصرف .. ولست بحاجة إلى أن أروى ألوان الصراع التي دارت ولا الجدال الذي جرى بعد ذلك . حتى استطعت أن أنفذ ما شئت بصدد الميراث .. كانت مهتني شاقة .

ولكنني كنت قد عقدت العزم ، وقد لمس أبناء عمى مدى تشاؤمي بتقسيم الميراث بيننا ، كما أحسوا في قرارات قلوبهم بصدى لما كان يعلج في سويداني .. ولا بد أنهم شعروا بأنهم ما كانوا يفعلون غير ما فعلت لو أنهم كانوا في مكاني ، ومن ثم فقد انتهوا - في آخر الأمر - إلى أن يقيموا بيني وبينهم من يحكم في المسألة .. واختير مستر أوليفر - أحد الجامعين الأكفاء للفصل ، فأقرا رأيي ، ومن ثم انتصرت رغبتى . وصرعان ما اتخذت الإجراءات الرسمية للتقسمة ، وأصبح كل من سانت جون - وديانا ، ومارى ، وأنا بملك نصيباً مساوياً لنصيب كل من الآخرين !

الفصل الرابع والثلاثون

■ كان عيد الميلاد قد اقترب ، عندما تمت التسوية ، وأشرف موسم العطلات فأغلقت مدرسة (مورتون) ، وقد حرصت على ألا يكون فراق لها جافاً ، مجدباً « فإن الحظ الطيب يفتح اليد كما يفتح القلب بمهارة عجيبة ، والمرء حين يمنح قسطاً ما من العواطف ، في مقابل الكثير الذى تلقاه » إنما يخفف من جيشان الأحاسيس المضطربة في فؤاده . فالتد طالما شعرت باغتيال أن كثيراً من تلميذاتي الريفيات كن يعيبنى « وقد تأكد هذا الشعور حين آن لنا أن نفترق . وما كان أعين تقدرى وعرفاني حين تبينت أن لي مكانة صادقة في قلوبهن الساذجة غير المرائية . وقد وعدتني بأنني لن أدع أسبوعاً يمر في المستقبل دون أن أزورهن ، وأن أتي عليهن درساً في المدرسة !

وأقبل مستر ريفرز في اللحظة التي صرفت فيها الفتيات الستين ، وأغلقت الباب ، ووقفت ممسكة بالفتاح في يدي ، أتبادل كلمات الوداع مع نفر من خيرة التلميذات ، كنت أراهن من أكثر شابات الريف البريطاني حشمة ، واحتراماً ، وتواضعاً ، ومعرفة .. وقال لي مستر ريفرز بعد انصرافهن : « أتري أنك نلت جزاء طيباً عن الموسم الذى قضيته في التعليم ؟ ألا تجدن متعة حقاً في الشعور بأنك قد فعلت خيراً حقيقياً ليومك وجيلك ؟ » .. فتهتفت : « بلا ريب » . قال : « ومع ذلك ، فأنت لم تجاهدى في هذا السبيل سوى بضعة أشهر .. أفلا ترى أن حياة تكسر للهوى بالجنس البشرى هي خير نواح الحياة ؟ »

فقلت : « بلى ، ولكنى لا أستطيع أن أمضى أبداً لندهر على هذا المتوال ، بل أحب أن أستمتع بما لدى من ميزات وخصال : يمثل ما أتمنى في الغير خير الميزات والخصال ! .. لا بد لى من أن أستمتع بما أوتيت ، فلا تذكرني بالمدرسة ، فأنا الآن خارج جدرانها : وأصر على أن أحظى بأجازة كاملة ! .. » ففكرسى فى قلق وقال : « ماذا هناك ؟ .. ما هذا التلهف المفاجئ الذى يتولاك ؟ .. ماذا تفكرين أن تفعلين ؟ »

— أن أنشط .. وأنشط بقدر ما فى طاقتى . على أننى أرجو أولاً أن تسرح حنة ، وأن تبحث عن سواها لتقوم بخدمتك .
.. هل تريدنيها ؟

— أجل .. أود أن أخذها معى إلى (مورهاوس) . فلن ينقضى أسبوع حتى تكون ديانا ومارى قد وصلتا ، وأحب أن يكون كل شيء معداً فى انتظارهما .

— فهمت .. إنما خيل إلى أنك تريد أن تفرى فى رحلة خلال العطلة . الخير فيما اخترت .. فلتذهب حنة معك !
قلت : « إذن فأبديها بأن تتأهب فى غد ، وهاك مفتاح المدرسة . وسأعطيك مفتاح كوشى فى الصباح » . فتناول المفتاح وقال : « إنك تسلمينه فى بساطة وانسباط .. الحق أننى لا أفهم سر ابتهاجك . لأننى لا أدري أى عمل تعزمين أن تشغلى به نفسك عوضاً عن هذا العمل الذى تمنحسين منه يدريك . أى هدف ، وأى غرض . وأى مطمح لحياتك الآن ؟ »

— إن هدفى الأول هو « التنظيف التام » .. هل تعنى المعنى الذى أحشده فى هذا التعبير .. سأنظف (مورهاوس) من أعلى حجراته إلى أسفلها . وهدفى الثانى أن أدلك أرضه بالشمع والزيت وعدد لا يحصى له من الخلق البالية : حتى تستعيد لمعانها .. أما هدفى الثالث . فهو أن أنظم كل شيء من مقاعد ، ومناضد ، وأسرّة ، وأبسطه ، فأنسجها فى دقة هندسية . وسأعد بعد ذلك إلى استفاد كل ما لديكم من فحم ووقود . لأشعل فى « فى » الحجرات جميعاً ناراً طيبة . وأخيراً . سأكرس وحنة اليومين السابقين على وصول شقيقتيك فى خلق البيض ، وفرز الزبيب : وطحن التوابل : وإعداد كعك عيد الميلاد وتبينة المواد اللازمة لافطائر وأداء الطقوس المطبخية : وإن أثار أمثالك هذا التعبير .. أما غرضى فوجز : هو أن أرى كل شيء فى آمل حال . استعداداً لاستقبال ديانا ومارى فى يوم الخميس المقبل .. وأما مطمحى فهو أن أهيئ لها استقبالاً طالياً .

وارسمت على شفتى سانت جون ابتسامة خفيفة واسكنه لم يقنع بما قلت فقال : « لا بأس بهذا لفترة الراحة ولكنى أعتقد جداً أنك إذا ما تقضت نوبة المرح الباعرة هذه — ستظهري إلى شيء يسو على مائى الأعمال العائلية والتدبير المنزلى من مباحج » . فقاطعتها قائلة : « إن هذه هى خير الأعمال فى الدنيا » . ولكنه استأنف الحديث قائلاً : « لا ياجين » . لا .. إن هذه الدنيا ليست مسرحة وراحة ونعيم مقبر . فلا تحاول أن تجعلها كذلك ! .. فقلت : « إنما أعزم العكس .. أن أعمل جامداً » .
— إننى أتمسك لك العذر ياجين فى الوقت الحاضر .. وسأصبح لك

بشهرين كاملين تستمرئين فيهما الاستمتاع الكامل بمركزك الجديد .
وتبهجين نفسك بمفاتيح القربى التي لم تحظى بها إلا أخيراً . ولكنى آمل
— بعد ذلك — أن تشرعى فى أن تتجاوزى بصرك نطلق (مورهاوس)
و (مورتون) وعشرة الشقيقتين ، والطمانينة الأثانية ، والراحة القائمة
على إرضاء شهوات النفس ..

فتطامن إليه مأخوذة ، وهفت : « سانت جون .. أعتقد أنك
تخبط إذ تتكلم بهذا الشكل . لئن أحاول أن أقنع نفسى بأن تكون
مغتبطة ، فإذا بك تزعجنى إلى القلق وعدم الاستقرار .. فما الغاية ؟ ..
فقال : « أن تتجهى إلى النهاية التي تستغلين عندها المواهب التي أضاءها
الله على كيانك ، والتي سيملكها يوماً ما حساباً عسيراً ولا ريب :
لنصف أرقبك ياجين عن كسب ، وبعين واعية ، فاحترى ! .. حاولى
أن تكبحى جماح الاندفاع إلى المتع المترية والانتصار عليها .. ولا تنسبى
بالروابط الدنيوية بهذه القوة . ادخرى حماسك ودأبك لقضية صالحة ..
أقسمينى ياجين ؟ .. »

● وما كان أسعدنى فى (مورهاوس) ! .. وكم كان إقبالى على
العمل ! .. وكذلك كانت حنة ، فقد فنت بما رأته من جدى وإتجاهى
وسط الصخب الذى ساد بيتنا الذى قلبناه رأساً على عقب ، وأخذت
ترقبى لترى كيف أدلك الأرض بالفرجون ، وكيف أنفض الغبار .
وكيف أنظف ، وكيف أطهو ! .. والحق أننا شعرنا بهناء إذ استطعنا بعد
يومين من حكم الفوضى والهرج ، أن نترتع أولى معالم النظام . وكنت قد

قت قبل ذلك برحلة إلى المدينة (س) ، فابتعت بعض الأثاث الجديد .
إذ أطلق أبناء عمى يدى فى استحداث ماراتى من تبديلات ، وقررنا
معاً تخصيص مبلغ معين لهذا الغرض . ولقد تركت قاعة الجلوس العادية
وغرف النوم كما كانت تقريباً ، إذ كنت أدرك أن ديانا ومارى تستشعران
غيطة لم أرى المناشد والمقاعد والأسرة العتيقة ، تفوق تلك التي تداخلهما
عند رؤية أكثر المستحدثات أناقة ! .. على أنه كان لابد من تبديلات
تشبع لونا من التبديل والحياة فى المناظر القديمة : فمن أبسطة وستائر
قائمة جديدة جميلة المنظر ، إلى نجبة من الصحف البروتزية والخزيفة
الطريقة انتقبت بعناية للزينة . إلى مفارش ومرايا . وصوانات ومناشد
لزينة جديدة .. وصح ما توقعت ، فأضفت هذه الأشياء قبساً من
الجدة وإن لم تشع فى المكان بهرجة الجديد ! .. وأعدت تأليث قاعة
للاستقبال ومخدع بأكلهما . فغارة لها أثناً من الخشب الموجبى القديم ،
وأقشة قوزمية ، وكسوت أرض الردهة بالمشمع ، كما فرشت الدرج
بالأبسطة . فلها تم كل هذا ، بدلى (مورهاوس) مثلاً لتأتلى الخشيم !

وأخيراً جاء يوم الخميس المرتقب . وكان من المتوقع أن تصل
الفتتان حوالى الغروب ، ومن ثم أوقدت النيران فى مدافئ الطابقي منذ
الأصيل ، وكان المطبخ فى أكل مظهر ، وأنا وحنة فى أبهى ثيابنا : وكل
شئ فى أتم عدة .. وكان سانت جون أول الوافدين . وكنت قد رجوت
أن يبقى بعيداً عن البيت حتى يتم تجهيز كل شئ . والواقع أن مجرد فكرة
قلب نظام البيت : على بساطته واعتداله ، كانت كافية لأن تزعجه .
والفانى فى المطبخ عند وصوله ، أرقب إحداهما بعض الكملك للشاى ،

ثم خبزه . فتساءل وهو يقترب من المدفأة عما إذا كنت واضحة عن ممارسة التدبير المنزلي . وكان جوابي أن دعوته إلى أن يرافقني في جولة يتفقد فيها أعمالى .

وحالته بعد عشاء على أن نجوس خلال البيت : فكان يكتفى بإلقاء نظرة خلال الأبواب التي كنت أفتحها : وبعد أن طاف بأرجاء البيت في الطابق العلوى والطابق الأسفل ، قال لىنى ولابد تهشمت قدراً كبيراً من العناء والتعب في تحقيق كل هذه التغيرات الكبيرة في مثل تلك الفترة القصيرة . ولكنه لم ينطق بعرف واحد ينم عن اغتياط لما أصاب غرفته بالذات من تحزين . فهبطت حدة تحمسي . إذ خطر لي أن التعديلات ربما كانت قد أصابت بعض معالم يعتز بها . وسألته في ذلك . ولابد أن لهجتي كانت موجسة . مضطربة ، إذ يادر قائلاً إن الأمر على التقيض : وأنه لاحظ أنني راعيت كل المعالم في حرص : بل إنه خشى أن أكون قد أوليت المسألة أكثر مما كان ينبغي من اهتمام . وكنا قد بلغنا قاعة الجلوس . فاستطرد قائلاً : « فكم من دقيقة — مثلاً — قضيتها في دراسة نظام هذه الغرفة بالذات ؟ » وبهذه المناسبة : هل لك أن تخبريني أين الكتاب الذى كان هنا ؟ .. وأرأيت الكتاب على رف في الحجرة . فتناولوه من مكانه ، وحمله إلى مجلسه المجهود عند حافة النافذة : وشرح يتصفحه !

والواقع أنني لم أكن أحب هذا . أيها القارئ .. لقد كان سانت جون رجلاً طيباً ، ولكننى بدأت أشعر بأنه كان صادقاً يوم قال عن نفسه إنه جاف بارد . لم يكن لحجاملات الحياة وملايساتها الإنسانية أى تأثير

عليه : ولا كان للمتع الهادئة أى سحر لديه . والحق أنه لم يكن يعيش إلا للطموح .. وصحيح أن طموحه كان ينشد كل طيب وعظيم ، إلا أنه مع ذلك جعله لا يستقر ولا يرضى عن استقرار من كانوا يعيشون حوله ! .. وبينما كنت أتأمل قببته العالية — وقد بدت كحجر أبيض بجمودها وشحوبها — وإلى قمماته البديعة ، التي تركزت على الكتاب الذى كان بيده . أدركت فجأة أنه لا يكاد يصلح لأن يكون زوجاً طيباً ، وإن معاشرته ستكون مهمة مضنية على من تغدو زوجة له .. وكنت أفهم بغريزتي كنه حبه لمس أوليفر . وأقره على أنه كان حياً سامياً .. حب حواس وليس حب جسد . ولكننى إذ ذاك أدركت أنه خليق بأن يختبر نفسه لما يفرضه هذا الحب عليه من انفعال محموم . ومدى عدم اطمئنانه الرغبة الخفية بأن تساوره لاقضاء على هذا الحب ، ومدى عدم اطمئنانه إلى ما يستطيع هذا الحب أن يحققه من سعادة له أو لفتاة !

ورأيت أنه إنما خلق من المعدن الذى اعتادت الطبيعة أن تصنع منه أبطالها — مسيحين كانوا أو وثنيين — ومشرعيها ، وساستها ، وقادتها المظفرين .. مخلوقات كالكتل المتينة تعد لكي تركز عليها المهام الجسام : ولكن الرجل من هذا الصنف يكون في الحياة المترتبة مجرد بخلاف عابس ، كتيب . لا يتناسق مع الجو المحيط به ! .. وجال بخاطري : « أن قاعة الجلوس هذه ليست مجاله : بل إن جبال الهيمالايا : أو أدغال (كافر) ، أو حتى ساحل غينيا الملى بالمستنقعات والأوبئة : قد يكون أكثر ملاءمة له من هذا المكان » .

ودفعت حنة إذ ذاك باب حجرة الجلوس صانحة : وبينما هما ذاك

آتينان !.. لقد أقبلنا !.. ونبع «كارلو العجوز» إذ ذاك في ابتهاج .
فهرعت إلى الخارج . وكان الظلام قد هبط . ولكنني سمعت جلبة
عجلات . وسرعان ما أوقدت حنة مصباحاً ، بينما أقبلت عربية وقفت
لدى الباب الخارجى ، وبرز منها شكل جد مألوف ، ثم تبعه شكل آخر
مثله .. وإن هبى إلا لحظة حتى كان وجهى تحت حواف قبعتهما ، وقد
اتصل بخد مارى الناعم أولاً . ثم يجذال ديانا المنسابة .. وأخذتا تضحكان
وتقبلان .. ثم احتضننا حنة . وربتتا كارلو الذى كاد يئن فرحاً :
وسألنا في لطف عما إذا كنت بخير . فلما أطمانا ، أسرعنا إلى داخل الدار .
وكانت أطرافهما قد نبيست لطول جلوسهما وارتجاجات العربة
التي أفلتهما من (هويتكروس) : كما اخترقت برودة الليل الجليدية
عظامهما ، ولكن أسارىهما اللطيفة سرعان ما انبسطت إذ حف بها
الدغى المنبعث من المدفأة . وسألنا عن سانت جون بينما كانت حنة
والخوذى يملآن متاعهما . وأقبل القس الشاب من قاعة الجلوس في تلك
اللحظة . فالتفتا بنفسيهما على صدره في آن واحد . وجاد على كل منهما
بقبلة هادئة ، ونغم ببضع كلمات ترحيب بصوت خفيض ، ووقف
هنيهة يتحدث إليهما ، ثم قال إنه يرجو أن تلحقا به في قاعة الجلوس ،
وانسحب عائداً إلى مجلسه . وكأنه يلوذ بتأوى يعتصم به !.. وكنت قد
أوقدت شموعاً ، تأهباً للصعود إلى الطابق العلوى . فسرعان ما صعدنا
وقد اغتبطنا بالتجديدات والزينة التي أدخلت على غرفتيهما ، إذ اكتسنا
بساتمر وأبسطة جديدة ، وأوعية للزهور من الخزف الحافل بالنقوش
والألوان . وأعربت عن شكرهما في إخلاص : وسرف أن تدبيرا

صادفت هوى من نفسيهما ، وأن ما فعلته ضاعف من تألق ابتهاجهما
بالمودة إلى دارهما :

■ وما كان أحلاها من ليلة !.. فإن ابنتى عمى أفاضتا في الحديث
والتعليق وقد استخفهما الطرب ، حتى أن ثرثرتهما العذبة طفت على
وجود سانت جون .. وكان صادق الابتهاج برؤية شقيقته ، ولكنه لم يكن
يستطيع أن يجاريهما في تألق روحيهما ، وتدفق فرجهما !.. ولقد سره
حادث اليوم ، وأعنى عودة ديانا ومارى . ولكنه كان يضيّق بملحقات
هذا الحادث ، أعنى الصخب والمرح ، والثرثرة الطروب .. وتبينت
أنه كان يتوق إلى الغد ، لأن الغد ولا بد أهدأ من اليوم .. وفي غمرة
استمتاعنا بالمساء - بعد تناول الشاي بساعة - إذا بطرفات على الباب
ثم أقبلت حنة تقول إن «صبيّاً مسكيناً جاء» في هذه الساعة غير الملائمة ،
يشد مسرر ويفرز لأن أمه كانت تحضر . فساءلنا القس : «وأيّن تسكن
يا حنة ؟» فقالت : «على مقربة من هضبة هويتكروس ، على أربعة
أميال تقريباً . في طريق مليئة بالمستنقعات والطحالب !» .
- أخبر به أننى قادم .

... بل أعتقد ياسيدى أن من الخير ألا تذهب ، فهذه أسوأ طريق
تسير فيها بعد الغروب . إذ أنك لا يمكن أن تهتدى إلى اتجاه خلال
المستنقعات . ثم إن الليل قر ، والريح زمهرير ، فيحسن بك أن تقول
له إنك ستذهب في الصباح .

ولكنه كان قد بلغ الردهة ، وهو يتدثر بجلبابه . ثم رحل دون

ما اعتراض أو كلمة . وكانت الساعة قد بلغت التاسعة إذ ذاك ، فلم يعد إلا حين منتصف الليل ، وقد أقبل جائعاً ، متعباً ، ولكنه بدا أسعد مما كان قبيل خروجه ! .. لقد أدى عملاً من واجباته . وقام بخدمة دينية . وأحسن بقدرته على العمل وعلى إنكار الذات : فرضى عن نفسه ! ونغمس إلى أن الأسبوع الذى تلا ذلك كان بأسره عبثاً استنفد صبره ! .. كان أسبوع عيد الميلاد ، ولم تكن أمامنا مهمة معينة . بل قضيناها فى لحو منزلى مرح .. وكان لهواء الأجسام . وللتحرر . وللفجر الثراء أثر على نفسى ديانا ومارى كأثر الإكسير المجدد للحياة . فكان الطرب يتملكهما من الصباح إلى الظهر . ومن الظهر حتى المساء . وكانتا لا تكفان عن الكلام . فكان لملقشاتهما ، وحضور بديهتهما . وذكائهما فعل السحر فى نفسى ، حتى أننى كنت أؤثر الإنصات إليهما ومشاطرتهما الحديث على أى شيء آخر ! .. ولم يكن سانت جون يزجرنا لهذا الصخب . ولكنه كان يفر بنفسه منه ، فتدارأ ما كان يحكى بالدار . إذ كانت أبرشيته واسعة ، وأهلها متناثرين . فكان يجد فى زيارة المرضى والفقراء فى مختلف المناطق ما يشغله يومياً !

وفى ذات صباح ، استغرقت ديانا فى التفكير بضع دقائق .. أثناء الإفطار . ثم سألتها عما إذا كان قد بدل مشروعهاته ، فإذا جوابه : « لم تبدل . وليست قابلة للتبديل ! » . ثم أنبأنا بأنه قد تقرر - بصفة نهائية - أن يرحل عن إنجلترا خلال العام التالى . فتساءلت ماري : « وروزا موند أوليفر ؟ » . والظاهر أن الكلمات أفلتت من شفيتها على الرغم منها . إذ لم تكذب تنطق بها ، حتى بدت منها إشارة ، وكأنتها تهم

بأن تستردها . وكان سانت جون ممكاً بكتاب - إذ كان من عاداته المستهجنة أن يقرأ أثناء الطعام - فأغلق كتابه ، وتطلع إلينا : قائلاً : « إن روزا موند أوليفر توشك أن تتزوج من مستر جراني ، وهو من أحسن أبناء (س) وسطاً ومكانة ، كما أنه حفيد ووريث سير فردريك جراني .. لقد سمعت النبأ من أبيها أمس » .

ونظرت كل من أختيه إلى الأخرى ، ثم إلى : ثم نظرنا ثلاثتنا إليه ، فإذا به جامد الأسارير كالزجاج ! ..

ووجدتني مسوقة - فى أول مرة وجدت فيها سانت جون وحيداً بعد هذا النبأ - إلى أن أسأل عما إذا كان الحديث قد أكرهه : ولكنه بدا أقل ما يكون حاجة إلى العطف ، حتى أننى شعرت بشيء من الخجل لما أبيت من إشفاق . لاسياً وأننى لم أعتد الحديث معه فى الفترة الأخيرة . إذ عاد تحفظه وكتامه يخطئانه بغلاف جليدى ، طمر صراحتي تحت طبقاته .. ولم يف بوعده أن يعاملنى كما يعامل شقيقته ، بل كان يقيم باستمرار فوارق بسيطة بيننا تشيع البرودة فى علاقتنا ولا تساعد على نمو المودة . وقصارى القول أننى وقد تكشفت قرابتنا وأصبحتنا نعيش تحت سقف واحد - بدأت أشعر بالتباعد يتسع بيننا أكثر مما كان عندما كنت مجرد معلمة القرية ! .. وكنت كلما تذكرت المدى الذى أباح لى مرة أن أتأمدى إليه فى مصارحته ، أعجز عن إدراك سر جوده البارد الراهن . ومن ثم لم تكن دهشتى بالبسيطة عندما رفع رأسه وقال : « آترين يا جين ؟ .. لقد خضت المعركة ، وفزت بالنصر ! » .

وأجفت لهذا المبادرة : فلم أجلب لقورى . بل ترددت لحظة قبل

أن أقول : « ولكن ، هل تراك متأكداً من أنك لست كأولئك المظفرين الذين تكبدهم انتصاراتهم ثمناً غالياً ؟ .. ألا يقضى عليك انتصار آخر من هذا القبيل ؟ » فقال : « ما أظن .. وحتى لو كان الأمر كذلك ، فهو لا يهينني في كثير ، لأنني لن أضطر إلى أن أكافح من أجل انتصار آخر من هذا القبيل . لقد كانت معركتي حاسمة » وأصبحت الطريق أمامي مهيأة خالية من العقبات .. وأحمد الله على ذلك ! .. وما أن قال هذا ، حتى عاد إلى أوراقه وصمته ! .

وإذ بدأت السعادة المشتركة — التي كانت تسودني وديانا وماري — تستقر وتتخذ طابعاً أكثر هدوءاً ، وعدنا إلى مألوف عاداتنا ودراساتنا المنتظمة « أخذ سانت جون بطبل مكله في البيت ، ويجلس معنا في غرفة واحدة لعدة ساعات أحياناً .. وبينما كانت ماري تنهمل في الرسم . وديانا تنصرف إلى القراءة في دائرة المعارف — في انتظام ومثابرة أدهشاني وأثارا إعجابي — وأنا أشق طريق في ميدان اللغة الألمانية ، كان سانت جون يعكف على درس خاص لإحدى اللغات الشرقية التي كان يرى تعصيلها ضرورياً لمشروعاته .. وكان يبدو مستغرقاً ، وهو في مجلسه المنعزل الهادئ ؛ بيد أن عينيه الزرقاوين اعتادت أن تبارحاً كتاب قواعد هذه اللغة الأجنبية ، لتحوما في فضاء الغرفة « أو تستقرا أحياناً علينا — معشر زميلاته في الدراسة — في انتباه غريب ، فلذا فوجئ في هذه الحال ، ارتدت نظراته في الحال ، ولكنها كانت لا تلبث دائماً أن تعود إلينا متفحصه ! .. وكنت أتساءل في نفسي عن معنى هذه النظرات ، كما أخذت أعجب لحرصه ومثابرته على إبداء ارتياحه لمناسبة كانت

تبدو لي قليلة الأهمية .. تلك هي زيارتي الأسبوعية لمدرسة (مورتون) . وكان عمجي يستحيل لي نوع من الدهشة الخائرة عندما تسيب في شقيقتاه في الأيام غير المناسبة — حين تنهر الثلوج ، أو يهطل المطر ، أو تشتد الرياح — ألا أذهب . فإذا به في كل مرة يستخف منهما هذا القلق ، ويشجئني على أن أؤدي مهمتي دون أن أحفل بعوامل الطبيعة . فكان يقول : « إن جين ليست بضعيفة الإرادة إلى الدرجة التي تظهر أنها عليها . ففي طاعتها أن تحتمل ربيع الجبال . أو رذاذ المطر ، أو بضع الكسف المتقاطعة من الجليد كأي واحد منا .. إن بنيانها متين ومرن » أعد بحثي بحتمل تغلبات الطقس إلى درجة تفوق احتمال كثير ممن يفوقونها بدانة ؟



● ولم أكن أجرو على الشكوى ، إذا ما عدت مكبودة ، وقد أوهمتي الطقس ، لأنني كنت أعرف أن أفنه نلنر كليل بأن يكاديه .. فقد كانت قوة الاحتمال تسره في كل الأحوال ، وكان العنف يسوؤه بوجه خاص . على أنني — في أصيل ذات يوم — سمحت لنفسي بالبقاء في المنزل ، لأنني كنت مصابة ببرد شديد ، ومن ثم ذهبت شقيقتاه إلى (مورتون) بدلا عني ، فجلست أقرأ أشعار شيلر ، بينما كان منهنكما في حل طلاس لفته الشرقية . وإذ تحولت إلى الترجمة : كوسيلة للترويح ، بدرت مني نظرة في اتجاهه ، فإذا بي أجد نفسي تحت سيطرة العينين الزرقاوين اثنتين لم تكونا تكفان عن الصنم ! .. وليس بوسعي أن أعرف كم ظلتا تتأملني وتشملاني بنظرتهما ، ولكن الذي أعرفه هو أنهما

كانتا حادتين ، وباردين في آن واحد . وداخلني وهم موجس للحظة .. وكأني كنت أجلس في غرفة واحدة مع خطر خفي !

وسألني : « ماذا تفعلين يا جين ؟ » « قلت : « أدرس الألمانية » .

— أريد منك أن تتخولي عن الألمانية ، فندرسى الهندوستانية .

— ما أظنك جاداً في هذا الاقتراح ؟

— بل إنني جاد إلى درجة تعجلى ألح في ذلك ، وسأثبتك بالسبب .

ومضى يذكر لي أن الهندوستانية هي اللغة التي كان يدرسها إذ ذاك ، وأنه كان مضطراً إلى أن يظل مستذكراً المبادئ كلها أو غل في اللغة ، ومن ثم فقد كان من أكبر العون له ، أن يجد تلميذاً يسترجع معه المبادئ مراراً وتكراراً ، ومن ثم يتمكن من تثبيتها في ذهنه . وقال إن ذهنه تأرجح زمناً بيني وبين أختيه ، ثم استقر عليّ ، لأنه رأى أنني أقدر الثلاث على أن أجلس طويلاً للدرس . وسألني : ألسدى إليه هذا الصنيع ؟ ثم طمأنني إلى أنني قد لا أضطر إلى المضى في التضحية طويلاً ، إذ لم يبق عليّ رحيله أكثر من ثلاثة أشهر !

والقيته صبوراً ، طويل الأناة ، ولكنه كان — في الوقت ذاته — مدرساً حازماً ، فكان يطالبني بجهد كبير ، فإذا وجدني قد أدبت ما طلب ، شهد — بطريقته الخاصة — بحسن اختياره — وبالتدريج ، اكتسب لنفسه نفوذاً عليّ ، حد من حرية فكري ، فإذا إطرأه وإهتمامه لا يتفلان تأثيراً على الأعصاب من عدم اكتراثه .. ولم أعد أتكلم أو أضحك متحررة أثناء وجوده ، لأن حاسة خفية ، ملحاحة ، كانت

لا تفتأ تذكرني بأن خفة الروح — من ناحيتي على الأقل — كانت مكروهة لديه .. كنت أذكر دائماً — وإلى درجة مزعجة — أنه لا يرضى إلا عن الطبع والأعمال الجادة الرزينة . وما لبثت إراذق أن بدأت تتجمد وتبرد ، فأصبحت أذهب إذا قال : « اذهبي ! » ، وأجبي : « إذا قال : « تعالى ! » ، وأفعل الشيء . إذا قال : « افعل هذا » .. على أنني لم أحب هذه العبودية .. وكمن مرة تمنيت لو أنه واصل إهماله شأني !

وحدث ذات مساء ، عندما التفتت وأخطاه حوله — في موعد النوم — لنحييه ونتمنى له ليلة طيبة ، أن قبل أختيه كمادته ، ثم بسط لي يده .. كمادته أيضاً .. وكانت ديانا في تلك الليلة في عصفوان مرحها ، إذ كان من الشاق عليه أن يقرض عليها إرادته « فقد كانت شخصيتها لا تقبل عن شخصيته قوة .. فهتفت : « لقد اعتدت ياسانت جون أن تدعو جين شقيقك الثالثة . ولكنك لاتعاملها معاملة الشقيقة ، فلماذا لاتقبلها هي الأخرى ؟ » .. ودفعني نحوه فشرعت بأنها كانت غاية في المضايقة : وشعرت باستياء أمضني .. وفيما كنت في هذا الشعور ، حتى سانت جون رأسه . وقرب وجهه ذا الجبال اليوناني من وجهي ، وأخذت عيناه تساللان عيني بنظرة ثقافية .. ثم قبلني .. وما أدري بوجود قبلات رخامية ، أو قبلات جليدية . وإلا لقلت إن قبلة ابن عمي القس كانت من هذا الطراز ، ولكن هناك قبلات تجريبية ، اختيارية .. وقد كانت قبلته من هذا الصنف ..! فقد تأملني بعدها بعرف النتيجة . ولكنها لم تكن رائعة ، وإلى لواتقة من أن وجهي لم يتضح حياءً . ولكني ربما امتنعت قليلاً ، لأنني أحسست كأنما كانت هذه القبلة شامخاً بثبت

أغلالي . ولم يتخل بعد ذلك عن هذه العادة ، وكأنما كان الوقار والرزانة الاذان اعتدت أن أتلقى بهما القبلة مبعث فتنة خاصة له !

أما من ناحيتي ، فقد كنت أزداد رغبة — يوماً بعد يوم — في أن أرضيه ، ولكنني كنت أزداد شعوراً — يوماً بعد يوم أيضاً — بأنني مضطرة في سبيل ذلك إلى أن أتعمل من نصف طبيعي ، وأن أختق نصف خصالي ، وأن أناضل أذواق لأحولها عن اتجاهاتها الأصلية . وأفسر نفسي على اتباع أشياء لم يكن لدى ميل طبيعي نحوها ؟ .. كان يحاول أن ياربنى على أن أرفي إلى مستوى لا أملك قط أن أبلغه ، وكان انتطلع إلى المستوى الذي يريده برهقي . كان الأمر ضرباً من المستحيل .. تماماً كما لو أردت أن أصوغ قسما وجهي غير المنتظمة وأصباها في قالب الجلال اليوناني العريق كوجهه .. أو كما لو أردت أن أحوّل خضرة عيني إلى الزرقة المثلالية ، العميقة ، التي كانت تصبغ عيني !

على أن السمو إلى المستوى الذي كان يبغيه لم يكن القل الوحيد الذي قيد حريتي إذ ذاك . فلقد أصبح من السهل عليّ في الفترة الأخيرة ، أن أستسلم للزن ، إذ جُثم على قلبي شرّهم راح يمتص سعادتي من جنورها .. وكان ذلك الشر هو : الشك ! .. فلعلك أبها الفارئ قد ظننت أنني نسيت مستر روشستر وسط التطورات التي أملت بمركزي وحظي ، ولكنني لم أنسه لحظة واحدة .. كانت ذكراه ما تزال تلازمي ، لأنها لم تكن مجرد شعاع شمس لاتلبث أن تأفل ، ولا كانت أترأ على رمل لا تلبث العاصفة أن تدبوه . وإنما كانت اسماً حفر في قلبي ليقى

ما بقى ذلك القلب ! .. وكان الشوق لمعرفة ما صار إليه أمره يلاحقني في كل مكان ..

ولقد سألت مستر بريجز — أثناء مراسلتي إياه بصدد الوصية — عما إذا كان يعلم شيئاً عن متمر مستر روشستر أو صحته ، ولكنه — كما حدثت سانت جون — كان يجهل كل شيء عنه .. فكتبت إلى مستر فيرفاكس أستجديها بيانات عن الموضوع ، وأنا موقنة من أنني سألتقي منها جواباً في أقرب فرصة . وكم دهشت حين انقضى أسبوعان دون أن أتلقى رداً .. فلما انصرم شهران والبريد يصل — يوماً بعد يوم — دون أن يحمل لي رداً ، وقعت فريسة لأقسي أنواع القلق .. فكتبت مرة أخرى ، معللة النفس باحتيال أن يكون خطابي الأول قد فقد .. ونجدد الأمل في نفسي مرة بعد مرة ، وظل مشرقاً لبضعة أسابيع ، ثم أخذ يخبو .. إذ لم يصل إلى سطر ولا كلمة ! .. وعندما انقضى نصف عام في الانتظار دون ظائل ، مات أمل ، فعدت أنحبط في ظلام حقيقي !

وأقبل الربيع جيلاً ، ولكنني لم أستمتع به .. واقرب الصيف .. وكانت ديانا تحاول أن تدخل السرور إلى قلبي « فقلت إنني أبدو معنلة الصحة ورغبت في أن تصطحبني إلى شاطئ البحر ، وعارضت سانت جون قائلاً إنني لم أكن في حاجة إلى راحة وكسل وإنما كنت في حاجة إلى ما يشغلني . لأن حياتي الراهنة كانت بلا غرض ، فأنا محتاجة إلى هدف . وأحسبه — لكي يقيم العراقل — قد أطال أمد الدروس الهندوسانية التي كنت ألتقها . وزاد من الواجبات التي كان يتعينني أدائها » وأنا كالياء لا أفكر قط في مقاومته .. بل ما كنت أملك أن أفأومه ! ..

إلى أن أقيمت على الدرس ذات يوم . بنفس مثقلة أكثر من المعتاد ،
إذ زاد من أسأى استياء بالغ . فقد أنبأني حنة في الصباح أن ثمة خطاباً
وصل باسمي ، فلما هبطت لأتسلمه وكلت نقعة في أنه يحمل الأنباء التي
طال ارتقابي إياها ، وجدت أنه مجرد مذكرة نافهة من مستر بريجز
بشأن بعض الأعمال . وانتزعت الصلصة المبررة بعض دموع من عيني .
فلما جلست أعمل في الحروف الهندية - في وقت الدرس - عادت الدموع
تلبق !! ودعاني سانت جون إلى جواره لأقرأ . فلما حاولت القراءة
عصاني صوتي . واختفت الكلمات في قبض من العبرات . ولم يكن
في حجرة الجلوس سوانا . إذ كانت ديانا تتدرب على الموسيقى ، بينما
كانت ماري تطلع الحديقة ، فقد كان اليوم من أيام شهر مايو الوديعة .
الصحوة . ذات الشمس المشرقة والنسيم العليل .

ولم يبد زميلي دهشة بلجيشان عواطف . ولا أسأني سبباً . وإنما قال :
« سنتظر بضع دقائق يا جين ، ريثما تنالكن بجأشك ! .. وبينما رحلت
أهدئي الانفعال في عجلة ، جلس هادئاً ، صابراً ، معتمداً على مكتبه .
كطبيب يرقب بعين العلم أزمة متوقعة في داء مريضه ومعرفة الدواعي .
وإذ كتمت عبراتي . وجففت عيني . تمت بوضع كلمات متعائلة بأنني
لم أكن مكتملة الصحة في ذلك الصباح . ثم استأنفت الدرس ، وأقلعت
في إتمامه .

وما لبث سانت جون أن نحي كسبي وكسبي ، وأغلق درجه ، وقال :

— الآن يا جين ، ستخرجين للترفة .. ومعى أنا !

— سأدعو ديانا وماري لمرافقتنا .

— لا ، لست أريد سوى زميلة واحدة في هذا الصباح ، ولابد
من أن تكوني أنت هذه الزميلة . فارتدى ثياب الخروج ، وانصرفت من
باب المطبخ . واسلكي الطريق المتجهة إلى (مارش جلين) وسألقني
بك فوراً .

ولم أحتد إلى مسلك وسط .. بل إنني في حياتي لم أعتد أن أجد مسلكاً
وسطاً إزاء الشخصيات الإيجابية القوية التي تناقض شخصيتي .. أجل
لست أعرف مسلكاً وسطاً بين الخضوع المطلق . وبين الفرد العنيد .
ولقد طالما ظلت أتبع باستمرار أحد المسلكين إلى غايته .. إلى أن يبلغ
عنفوانه ثم يتفجر ويتحول إلى المسلك الثاني . في قوة تشبه انفجار البركان
أحياناً . ولما كانت ظروف الراثة لا تميل إلى الثورة . ولا كان مزاجي
الحالي يتجه إلى الفرد . فقد تابرت في عناية على الرضوخ لتوجيهات سانت
جون . ومن ثم فلم تنقض عشر دقائق حتى كنت أسير في درب مهجور
نحو واد صغير .. وسانت جون بجانبني !

● وكان النسيم يهب من الغرب ماراً على التلال حيث يتزود بشذى
الزهور البرية : والسما صافية الزرقة . والجدول ينحدر على السفوح
مترعاً نياً الربيع المنصرم . فيفيض وفيراً وقد انعكست على مياهه
الصفافية أشعة الشمس الذهبية .. وإذ تحولنا في سيرنا عن الدرب ، رحنا
نطأ أرضاً معشوشبة ، ذات خضرة زمردية ، توشها زهور بيضاء دقيقة
الأحجام . وترصعها ورود صفراء كالنجوم .. وقد أحاطت بنا التلال
— في الوقت ذاته — فحجبنا عن أعانهم . داخل الوادئ الصغير .. وبنا

طلائع صخور قامت كحراس للود عن خور صغير وسط الجبال ، فقال سانت جون : « لسترح هنا ! » .

وجلسنا ، فكننا نصف ساعة لا نكلم . حتى إذا انقضت هذه الفترة ، شرع يقول : « سأرحل بعد ستة أسابيع يا جين ، وقد حجزت مكاناً على الباخرة (ايسټ انديمان) التي تغلق في العشرين من يونيو » . فقلت : « ليعمك الله مادمت قد آثرت أن تضطلع برسائته » . قال : « أجل » ففي هذا مجدى واغتباطى .. إني في خدمة مولى منزّه عن الخطأ : فلست منطلقاً تحت قيادة إنسان ، ولن أكون عرضة للقوانين الناقصة ، ولا لسيطرة خاطئة من آدميين مثلى .. حشرات ضعاف ! إن هليكي ، ومشرعى ، وقائدى ، هو الكمال المطلق . ولكم يبدو غريباً لي أن كل من حولى لا يتحرقون شوقاً إلى أن ينضووا تحت نفس اللواء ، وأن يعملوا في نفس الميدان ! » .

— ليس للجميع ما أوثبت أنت من قوة . ومن النبأ أن يهتو الضعاف إلى السير مع الأقوياء .

— لست أتحدث إلى الضعاف أو أفكر فيهم : وإنما أخطب الشخص الذى أعرفه جيداً بالعمل ، وقادراً على أدائه .

— هؤلاء قلة في العدد ، حتى ليتعذر اكتشافهم .

— الحق ما قلت ، ولكن من الصواب إيقاظهم إذا ما وجدناهم في من الصواب حبهم واستثارة جهودهم وإرشادهم إلى ما أوتوا من مواهب ونعم .. من الصواب أن تلقى على أسماعهم رسالة السماء « وأن تدعوهم باسم الله — لكي ينالوا مكاناً بين المقربين إليه .

— إذا كانوا أهلاً لرسالة حقاً : أفما كانت قلوبهم تدعوهم قبل أن يدعوهم البشر ؟

وشعرت كأن خيراً رهيباً يتجمع حولى . وينتد فوقى : ورحبت لرغبة متوقفة أن أسمع كلمات خفيفة تتضمن تعويذة السحر العامض .. وسألني سانت جون : « وماذا يحدث قلبك ؟ » ، فأجبت وأنا مشدوّهة مذهولة : « إن قلبي أخرس .. قلبي أخرس ! » .. ولكنه قال في لهجة عميقة ، ملححة : « إذن فلا بد من أن أتكلّم باسمه .. تعالى معي إلى الهند يا جين ، تعالى كريمة ومساعدة .. ودارت الساء والوادي في نظري ، واهترت النلال .. وكأنا سمعت نداء من السماء ، وكأنا تمثل لي رسول كريم يهيب بي : « تعالى وساعدنا ! » .. ولكنني لم أكن من طليقة الرسل ، فلم أشأ أن أرى الرسول ولا أن ألقى نداءه : بل صحت : « أواه ياسانت جون ! .. ارحنى ! » .. ولكنني كنت أنوسل إلى شخص ما كان يعرف راحة أو إشفاقاً في سبيل أداء ما كان يعتقد واجباً ، فاستأنف حديثه قائلاً : « لقد أعدك الله والطبيعة لكي تكوني زوجة مبشر ، ومن ثم فهما لم تخلعا عليك ميزات جسدية ، وإنما أثارك بميزات عقلية .. فأنت إنما خلقت للعمل ، لا للعب .. ولا بد لك من أن تكوني زوجة مبشر .. ستكونين زوجتي .. إني أدعوك ، لا لمتعتي ، وإنما لخدمة المولى ! » .. فقلت : « لست أصليح لذلك » .

ولكنه كان قد حسب حساب هذه الاعتراضات الأولية ، فلم يضطرب لها ، وإنما أسند ظهره إلى حضرة خلفه ، وعقد ذراعيه على صدره ، وخلع على أساريه جوارداً من الحديد فعد نفسه

أن فكري أشبه بوهدة مظلمة ، لا يعبر جوفها سوى لون واحد من الخوف ، يرقم مكبلاً : مرتعباً .. إنه الخوف من أن يؤثر في إغراؤك فأحاول ما لا أمالك تحقيقه !

— لدى جواب أرد به . فاسمعه .. لقد راقبتك منذ لقيتك أول مرة ، وجعلتك موضوع دراسي لعشرة أشهر ، واستطعت أن أختبر استعداداتك بعدة اختبارات ، فما الذي انتهيت إليه ؟ .. لقد وجدت في مدرسة القرية أن بوسعتك أن تؤدي — بمهارة واستقامة ودأب — عملاً لا يتلاءم مع عاداتك وميولك .. رأيت أن بوسعتك أن تؤدي بمقدرة وبراعة ، وأن تكسب القلوب بينا تسيطرين على أصحابها وتحكمينهم وتخضعينهم للنظام .. وفي الهدوء الذي تلقيت به نبأ الثروة التي آلت إليك ، رأيت ذهناً بريئاً من رذيلة حب الذهب .. فليس لمتاع الدنيا سلطان عليك .. وفي مبادرتك الحاسنة إلى تقسيم ثروتك إلى أربعة أقسام ، لتحتفظي بواحد منها ، وتدفعي بالثلاثة إلى من رأيت أنهم أصحابها شرعاً ، رأيت نفساً تنعش ونحياً في نيران التضحية .. وفي انصياعك لي وتوكلك عن دراسة كنت معنية بها ، إلى أخرى لمجرد أنها كانت تمنني ، رأيت ما أنشد من خصال .. إنك يا جين وادعة : مثابرة ، لاتساقين بمصلحة دنيوية ، وإنك لخلصة ، وفية ، شجاعة ، جديفة . وأهل للبطولة . فكفي عن فقدان الثقة في نفسك ، إذ أنني أثق بك على طول الخط ودون تحفظ . وسوف تكون معونتك لي — المرشدة في المدارس الهندية ومساعدة في نشر رسالتي بين الهنديات — فوق كل تقدير !

* * *

لمعارضة قوية : طويلة : وتزود من الصبر بذخيرة ، ووطئ العزم على أن يكون النصر له في النهاية : وراح يقول : « إن التواضع يا جين هو أساس كل الفضائل المسيحية : وإنك لعل حتى إذ تتولين إنك لاتصلحين للعمل ، ولكن .. منذ الذي يصلح له ؟ .. أو منذ الذي كان يؤمن بخدارته للرسالة ، عندما دعي لأدائها ؟ فأنا — مثلاً — است سوى رماد وهشيم ، وعندما قارنت نفسي بالقديس بولس : اعترفت بأنني أكبر مذنب ، بيد أنني لا أتعذب بهذا الشعور إلى الدرجة التي تقعدي عن العمل . إنني أعرف زعمي وقائدي : فهو عادل كما هو جبار ، وإذا كان قد اختار أداة ضعيفة — مثلي — لأداء مهمة جليلة . فإنه ولاشك سيسد نقص الأداة من خزان حكمته التي لا حدود لها .. فكري كما أفكر يا جين ! »

— إنني لا أفقه حياة العاملين في التبشير ، وما درست يوماً مهامهم . فقال : « ها أنذا .. على ضالة قدرتي .. أقدم لك ما تبغين من عون : إنني أستطيع أن أبصر لك بالمهمة من ساعة إلى أخرى : وأن أقف إلى جوارك دائماً . فأساعدك في كل لحظة .. أجل . أستطيع أن أفعل هذا في البداية . وسرعان ما ستصبحين مثلي قوة وكفاءة ، ولا تحتاجين إلى معونة مني .. فأنا أعرف مدى مقدرتك ! »

— مقدرتي ؟ .. أين هي لثل هذه المهمة ؟ .. إنني لا أحس بها . لا شيء يهتف أو يتحرك في أعماق عندما تتكلم أنت .. لست أحس بضوء ينبثق في نفسي .. ولا أشعر بالحياة تندفع . أو بهاتف يرشدني ويسري عني .. أو أه ! .. لكم أتمنى أن أوتى القدرة على أن أريك في هذه اللحظة

● وانكشنت معارضتي : وأوغل الإغراء متغلغلا في نفسي بنطلي
 بطيئة ولكنها أكيدة ، فإذا كلياته الأخيرة هذه تشق طريقها — وأنا مغمضة
 العينين — وتفتح ما كان هناك من سدود ومناويس .. وراح يرتقب
 الجواب : فاستمهلته ربع ساعة لأفكر . وقال : « عن طيب خاطر ! »
 ثم نهض فسار قليلا نحو الخور ، ثم ارتدى على الأرض العشوشية ، وظل
 راقداً هناك . بينما رحت أقول لنفسي : « بوسعي أن أقوم بما ينبغي »
 إذا أنا استغثت عن الحياة . ولكني لا أشعر بأن كيانى يحتل العيش
 طويلا تحت شمس الهند . فإذا في ذلك ؟ إنه لا يحفل بالأمر كثير ،
 وإذا حانت منبى فسوف يسلمنى في هدوء ، وفار إلى الله الذى ساقنى
 إليه .. إن الأمر واضح أمامى . فإني إذا غادرت إنجلترا ، فإنما أغادر
 بلداً أحبه ولكنه غداً من كل ما يشدنى إليه .. إذ أن مستر روشستر لا يقيم
 فيه . بل ما قيمة وجوده لو أنه كان يقيم فيه ؟ لقد أصبح حتماً على أن
 أعيش بدونه . وليس هناك ما هو أخف وأبدى للضعف من أن أجزر
 أذيل العمر يوماً بعد يوم . في انتظار تغير مستحيل في ظروفى ، يضمنى
 ثانية إلى الرجل الذى أحببت .. إن على فعلاً أن أبحث عن شيء آخر في
 الحياة أصب عليه اهتمامى . بدلا من ذلك الذى فقدت .. أفليست المهمة
 التى يعرضها على سانت جون ، هى أجل ما يقوم به إنسان ، أو يفرضه
 إله ؟ أفليست .. بأعبائها النبيلة ونتائجها السامية — هى خير مهمة تملأ
 الفضاء الذى خلفه حب مرقى ، وأمال مقوضة ؟ .. أعتقد أن لا بدنى من
 أن أجيء بالموافقة .. ولكننى مع ذلك أرتجف ! فوافقتاه ! .. إننى إذا
 استجبت لسانت جون ، فسأعفى عن نصف نفسى ، وإذا أنا ذهبت إلى

الهند ، فسأسعى إلى موت سابق الأوان .. ثم ، كيف أملاً الفترة بين
 مبارحة إنجلترا إلى الهند ، ومبارحة الهند إلى القبر ؟ .. ثم إننى أعرف
 سانت جون ، وأعرف ما يرضيه وما يتوقعه ، فيالذهاب معه لأبدى
 من أن أضحي بكل شيء ، فأتى على المذبح بقلبي ، ومشاعرى الحيوية ،
 وكل شيء ! .. وهو لن يجنى إطلاقاً ، ولكنه سيرضى عن عملى .. سأؤبه
 ألواناً من النشاط لم يرها أبداً وموارد للقوة لم يتوقعها قط .. إذن فلا أقبل
 ما يعرضه .. بيد أن هناك نقطة واحدة مقبلة لدى .. تلك هى أن أغدو
 زوجته ، مع أنه لم يؤت قلباً يتحرك لى بأكثر مما تتحرك الصخرة القاعة
 الراحنة ! .. إنه إنما يقدرنى كما لو كنت جندياً .. لا ، إن مثل هذا
 الاستشهاد أقطع من أن يحتمل .. إذا كان لا بد من أن أصعبه ، فلا أصعبه
 كأنت ، وليس كزوجة .

وتطلعت إلى حيث كان مستلقياً « فإذا عيناه ترقبانى فى اهتمام ودقة
 وإيمان . ونهض مستوياً على قدميه ، ثم اقترب منى . فقلت :
 — إننى على استعداد لأن أذهب إلى الهند ، إذا جاز لى أن أبقى حرة .
 — إن جوابك فى حاجة إلى إيضاح ، لأنه غير جلى :
 — لقد كنت حتى الآن أختأ لى ، كما كنت أنا أختأ لك . فلنستمر
 على هذا الوضع ، ومن الخير لنا ألا نتزوج .

فهز رأسه قائلاً : « إن الأخوة التى بيننا لا تصلح فى هذه الحالة .
 ولو أنك كنت أختى الشقيقة حقاً ، لاختلعت الوضع ، ولأصطليحتك
 دون أن أبحث عن زوجة . أما هذا وضعنا فلا بد لى أن نتكسب

سبعة شرعية بالزواج ، وإلا فلن يكون لها وجود .. فكري قليلا يا جين ، وسوف يرشدك إدراكك القوي إلى الوضع ! .. ولكن إدراكى لم يرشدنى إلا إلى أننا لم نتحاب كما ينبغي لأى زوجين أن يتحابا ، ومن ثم فلا ينبغي لنا أن نتزوج . ومن ثم قلت : « إننى أعتبرك أخا يسانت جون .. وأنت تتزلى من نفسك منزلة الأخت ، فليبق كذلك » . فأجاب فى عبارات حاسمة - قصيرة : « لا نستطيع .. لا نستطيع .. لقد قلت إنك ستدعيني معى إلى افند - فتذكرى هذا .. لقد قلته .. » . ولكنى ربطته بشرط .

... حسنا . فلتسلك بالنقطة الرئيسية .. الرحيل معى . واللهامون فى جهودى المقبلة .. إنك لا تعارضين فى هذين . لقد وضعت يدك على آخرات . فلا بعد أمامك إلا أن تتدبرى خبير الطرق لأداء العمل .. حاولى أن تبسطى ما هو معقد من مصالحك . وأفكارك ورغباتك وأهدافك ، وامرعى كل الاعتبارات فى غرض واحد .. هو أن تؤدى المهمة على خير وجه .. ولكنى تفعل . لا بد لك من قرين : وليس أخا .. إننى أشهد زوجة . فهى الشريك والمعين الأوحد . الذى أستطيع أن أوجهه فى الحياة . وأن أظل محافظا به حتى المات !

وأخذت أرتجف وهو يتكلم .. كنت أحس بسلطانه ينفذ إلى عظامى . وبغضته تشد على أطرافى . وهتفت : « ابحث عن سواى ناسانت جون .. ابحث عن واحدة تصلح لك » . فقال : « تعين واحدة تصلح لمهمتى .. لغرضى ! .. أكرر لك أفنى لا أشهد الشخص الذى



انه انما قدرنى كما لو كنت جنديا .. لا ، ان مثل هذا الاستشهاد افعل من ان يحتمل .. اذا كان لا بد من ان اصعب فلاصعبه كاخذت وليس كزوجة

لا قيمة له .. لا أنشد إنساناً ، بما للإنسان من إحراك أناني ، وإنما أنا أنشد رسولا مبشراً » :

— أواه ! .. سأهب الله قلبي .. ولكنك لست بحاجة إليه .

■ ولن أقسم أيها القارئ على أن هذه العبارة ، والإحساس الذي صاحبا « كانا خاليين من شيء من السخرية المكبوتة . كنت حتى تلك اللحظة أخاف سانت جون في صمته ، لأنني لم أفهمه ، وما فرض على سلطانه إلا لأنه كان يستبقيني في عمرة الشك . ولم يكن يوسعي — حتى ذاك الوقت — أن أدرك مدى ما كان في شخصيته من تقوى ، ومدى ما كان فيها من ملامح دنيوية ، ولكن الحجب بدأت — إذ ذاك — تتكشف أمام عيني عن طبيعته .. فتبينت أنه غير معصوم من الخطأ ، ولست عيوبه .. أدركت أنني أمام إنسان ، يخطئ كما أخطئ .. انجذاب القناع عن جوده وصرامته .. وإذ ذاك ، شعرت ببعده عن الكمال ، فتشجعت إذ أدركت أنني أمام نداء أستطيع أن أجادله وأحاججه .. وأقاومه !

وكان قد أخطأ إلى الصمت ، فتجرات على أن أتفرس ملاعنه .. كانت عيناؤه تحداني بنظرة جمعت بين الدهشة العابسة ، والتساؤل المرتاب ، وكأنما كان يسائل نفسه : « أتراها تسخر .. وتمسخر مني بالذات ؟ .. وما ليث أن قال أخيراً : « لا ينبغي أن ننسى أن هذه مسألة قديمة ، لا يجب أن نفكر فيها أو نتحدث عنها باستخفاف وإلا زلننا وأذنبنا . إنني أعتقد بإجبر أنك صادقة عندما تقولين إنك مستهين الله قليك ، وهذا غاية ما ينبغي . فما هو إلا أن تتزعى قلبك من بشرتك ،

وأن توقفه على خالقك ، حتى يقوم السلطان الروحي لله على الأرض غايتك ومبعث غيبتك .. وسوف تصبحين على استعداد في الفور لأن تقوى بكل ما يصل بك إلى هذه الغاية ، ولأن تدركي الحائز الذي سيدفع جهودك وجهودي قدماً ، باتحادك معي فكراً وجهداً ، فهذا هو الاتحاد الوحيد الذي يضيق على أقدار وتوبايا البشر صبغة الدوام المؤكد : فأعمت النظر في أساريه التي كانت جميلة في تناسقها ، ولكنها غريبة في صرامتها وقسوتها .. وتصورتني زوجة له .. أواه ! .. إن هذا لن يكون ! . إن قلبي وفكري يجب أن يبقيا حرين .. وأن تظل أحاسيسي غير مستعبدة .. إن في ذهني نواحي هي عالمي الخاص ، الذي يجب ألا ينفذ إليه أحد سواي ! .. وهنت إذ بلغت هذا المدى من تأملاتي : « سانت جون ! .. فأجاب في برود : « نعم ؟ » .

— أكرر استعدادي طاعة وبمحض إرادتي لأن أذهب معك كزويلة مبشرة . ولكن .. ليس كزوجة ! .. ليس بوسعي أن أغدو زوجتك وجزءاً منك !

فأجاب في إصرار : « بل لا بد من أن تصبحي جزءاً مني ، وإلا فانفقت بأسرها هباء ! .. كيف أصعب .. وأنا رجل لم أبلغ الثلاثين — فتاة في التاسعة عشرة من عمرها إلى الهند . دون أن تكون زوجة لي ؟ .. كيف يباح لنا أن نظل معاً إلى الأبد .. وأن نضمنا أحياناً خلوة ؟ .. ليس بوسعي أن أقول إنك أختي ، إذ من المعروف أنك لست شقيقتي .. ولو أنني فعلت لأثرت الشكوك حول كل منا .. ثم إنك أوتيت قلب امرأة ، وإن كان عقلك عقل رجل .. لا ينبغي هذا » . فقلت

فی شیء من الاستہجان : « بل یجلی : إن لی قلب امرأۃ ، ولكنه لن یبدو فی أنوثته حیث أنت ، إذ أن علاقتنا لن تكون سوى زمالة .. أخوة ، إن شئت ۱ » . فقال ، وكأنه یحدث نفسه : « إنك لن تتدعی إذا تزوجتني یاجین .. ثقی من هذا ! .. لابد لنا من الزواج ، فلیس ثمة سبیل أخرى ، ولسوف یلی الزواج حب ینکئ لأن یجعلک ترضین عن هذا الزواج ، بلا شک ! » . فلم أتمالك أن قلت وأنا أقف أمامه : « إننی أستہجن فکرة حبک .. وأزدری العاطفة الزائفة الّتی تعرضها .. أجل یا سانت جون ، إننی أزدربک حین تعرضها ! » .

وحججنی بنظرة ثابتة ، وهو بعض شفثیه البدیعی الشکل . ولیس بوسعی أن أقطع بما إذا كان قد استاء ، أو أنه ذهل .. ولكنه ما لبث أن قال : « إننی لم أتوقع قط أن أسمع هذا التعبير منك . وما أظننی فعلت أو قلت ما أستحق من أجله الازدراء » .

وتأثرت لرقة لهجته « الّتی زادها جلالا ما شاع فی نبراته من ارتفاع هادی ، فقلت : « ألا اغفر لی الکلمات الّتی قلتها یا سانت جون ، ولكن الذنب ذنبک ، إذ عرضت موضوعاً ثقیابین إزافه طبعیتانا .. موضوعاً لا ینب أن نناقشه مرة أخرى قط . إن مجرد کلمة (الحب) تخلف بیننا خلافاً .. لا أنتح یا ابن عمی عن مشروع الزواج ، وإنه ! .. ولكنه قال : « لا .. إنه مشروع طالما راودنی ، وهو الوحید الّذی یحقق غایتی العظیمة ، ولكننی لن أستحثک فی الوقت الراهن ، وسأرحل غداً إلى (کمبردج) ، فإن لی بها کثیراً من الأصدقاء أریده أن أودعهم ، ولسوف تغیب لأسبوعین ، فانتہزی هذه الفترة وفکری فیما عرضت علیک »

ولا ننسى أنك إذا رفضت قلت تتكررين لي ، وإنما تتكررين لله .. فهو يفتح أمامك - عن طريق - أبواب حياة نبيلة « ولا سبيل لك إليها إلا بأن تصبحي زوجتي .

وبهذا فرغ من حديثه .. وفيما كنا في طريقنا إلى البيت - قرأت في صحته الحديدي كل ما كان يساوره نحوى : شعور من الاستياء انبعث عن طبيعة صارمة مقبدة قوبلت بالمقاومة حيث كانت تتوقع الاستكانة . كان - كرجل - يتمنى لو قسرنى على الرضوخ عنوة ، وما احتمل رفضي بصبر إلا كرجل دين مخلص في تقواه ! .. وعندما قبل شقيقتي - إذ حان موعد الثوم في تلك الليلة - أثر أن ينسى تقبيلي ، بل ومصافحتي .. وغادر الغرفة في صمت .. وتألّت لهذا الجفاء ، وأنا الّتی كنت أكن له ودّاً كبيراً ، وإن لم أكن له حباً .. وجاشت عواطفی إلى درجة بعثت الدموع فی عینی ! .. فقالت ديانا : « أرى أنك وسانت جون قد تشاجرتما أثناء نزھتكما فی الوادی ، ولكن یحسن بک أن تلحقی به ، فإنه یتلکأ فی الردهة .. ولسوف یصالحک ! » .

ومن عادة كبريائي ألا تستبدني في مثل هذه الظروف . فلأنني أسعد . بدلا من أن أنجز لكرامتي - إذا سنحت فرصة الصلح ، لذلك هروعت في إثر سانت جون - فإذا به يقف عند بداية الدرج .. وقلت له : « عم مساء یا سانت جون » ، فأجاب في هدوء : « عمی مساء یاجین » . قلت : « إذن فلتصافح ! » .. وشد ما كانت قبضته باردة . متراحة ! .. كان استيائه مما حدث عبقاً بحيث لا تقوى حرارة البدن على إذابته . ولا الدموع على اجتراحه ! .. لم يكن لي شئ من شأنه أن يزعجني :
www.4arab.com

فلا ابتسامة مجاملة ، ولا كلمة لطيفة ، ومع ذلك فإن رجل الدين ظل صابراً ، بارد الأعصاب ، وعندما سألتها عما إذا كان قد صفح عنى ، أجاب بأنه لم يعتقد أن يتشبهت بذكرى ما يعرض له من استياء : وأنه لا يرى ثمة ما يستدعى الصفح ، بل إنه لا يشعر بأنه قد تلقى إهانة ما !

وبهذا الجواب فارقتي : ولكم كنت أوتر لو أنه ضربني فصرعني !

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

● ولم يرحل سانت جون إلى كمبردج في اليوم التالي كما قال ، وإنما أرحباً سفره أسبوعاً بأكمله . وفي هذه الفترة جمعتي أحسن بأى عقاب قاس في وسع رجل طيب وإن يكن جاف الطبع ، حتى الضمير وإن يكن جائر لا يرحم ، أن يوقعه بشخص أهانه ! .. فقد حرص على أن يدخل في روعي على الفور — ودون أن يأني بأى تصرف عدواني صريح أو ينس بكلمة تحمل معنى التفریم — بأنني لم أعد أحظى بعطفه ! .. وليس معنى هذا أنه كان يضر في أعماقه روحاً خبيثة تتنافى مع المبادئ المسيحية ، أو أنه كان يود إبذاء شعرة واحدة في رأسي . فقد كان — سواء بطبعه أو بحكم مبادئه — أسمي من أن ينساق لاذة الانتقام الوضيعة .. كان قد غفر لي أنني أزدريته ونهذت حبه ، ولكنه لم ينس الكلمات التي قلتها ، وما كان ليسأها ظالماً ظل وإيأى على قيد الحياة . وكنت أرى في نظرتة — عندما كان يلتفت نحوي — أن تلك الكلمات كانت مسطورة بيني وبينه في الهواء كما كان رنين صوتي يعملها إلى أذنه كلما تكلمت ، وصداها

يتردد في صوته كلما أجباني .. ولم يكف عن الحديث إلى ، بل إنه استمر يدعوني إلى مكتبه كل صباح كالمتعاد . وأكاد أسيء الظن فأقول إن الرجل الفاسد الذي كان كائناً في أعماقه ، كان يجد متعة — لا يشاركه إياها أى متدين صادق التقوى — في أن يبدي براعته في تجريد كل عمل وكل قول مما كان يضفيه على أعماله وأقواله — من قبل — من بحر وود ، في الوقت الذي يتظاهر فيه بأنه عادي في تصرفاته وكلامه ! ..

والواقع أنه لم يعد في نظري إنساناً من لحم ، وإنما صار تمثالا من رخام .. كانت عينه باردة براقه كالмасلة الزرقاء ، ولسانه مجرد آلة ترسل الكلام .. وحسب ! .. وكان كل هذا يعذبني عذاباً رفيع الأسلوب طويل المدى . كان يوقد ناراً بطيئة من الإباء والشمم ، ومن القلق الخلفي بالأسي : مما أضناني وهصرني هصرأ . وشعرت كيف أن هذا الرجل الطبيب « الصافي صفاء النبع المعتم ، كان خليقاً بأن يقتلني — لو أنني كنت زوجة — دون أن يريق من عروق نقطة دم واحدة ، أو يتحرك ضميره الشفاف بأى شعور بالجرم ! .. وكنت أزداد شعوراً بهذا ، حين أبذل أية محاولة للصالح معه ، فلم أكن أخظى بتودد في مقابل ودى .. لم يكن يعانى أى ألم من جراء التباعد ، ولا كان يحس بأى حنين إلى للصالح ، ومع أن دعوى المنهرة كانت تنساقط — في أكثر من مرة — على الصفحة التي نعكف على قراءتها ، إلا أنها لم تكن تؤثر فيه ، وكان فزاده قد حتماً من صوان أو معدن ! .. وفي الوقت ذاته كان يبدو أكثر ترفقاً بشقيقته مما اعتاد ، وكأنما كان يخشى أن مجرد البرود غير كاف لإقناعي بأنني متبودة مبعدة ، فأراد بإبراز الفارق بيننا أن يزياد

لتحولت عنه لفوري ، ولكن شيئاً أقوى من هذين الشعورين كان يعمل في نفسي ، فقد كنت أقدر مواهب ابن عمي ومبادئه ، تقديرًا عميقًا ، وكانت صداقته ذات قيمة في نظري . ومن ثم فقد كان فقدانها عناء قاسياً . لا يعلني أغلى بسرعة عن محاولة استردادها . فقلت : « أفنتفرق على هذا الشكل ياسانت جون ؟ » وهل إذا رحلت إلى الهند خلفتي هكذا . دون كلمة أكثر تلطفاً مما قلت الآن ؟ » فتحول إذ ذاك عن القمر وواجهني قائلاً : « عندما أذهب إلى الهند يا جين سأخلفك ! » ماذا ؟ أنت راحلة إلى الهند ؟ .

— إنك قلت ألا رحيل لي إلا إذا تزوجت منك .

— وهل لن تزوجني مني ؟ .. أما زلت متشبثة بهذا القرار ؟

أفتعرف أيها الفاري .. كما أعرف أنا — أي إرهاب يستطيع أولئك الذين أوتوا طبعاً باردة ، جامدة ، أن يبثوه أسلحتهم ؟ .. ومدى الجليد الذي يدفنون تحت ركابه غضبهم ؟ .. وما لاستيائهم من حدة قينة بأن تحطم البحار المتجمدة ؟ .. على أنني أحببت قائلة : « لا ياسانت جون ؟ » لن أتزوجك .. إنني مصممة على قراري .. واهتز جبل الجليد ومال قليلاً إلى الأمام . ولكنه لم يمت بعد بالانقياد . وقال : « مرة أخرى أسألك لماذا الرقص ؟ » .. فأجبت : « كان في البداية لأنك لم تكن تحبني . أما الآن فلأنك تكرهني تقريباً ! .. ولو أنني تزوجتك لقتلتني .. بل إنك تقتلني الآن ! » .

وشحبت شفتاه ووجنتاه ، حتى صارت ناصعة البياض ، ثم قال : « لقتلتك .. أنا الآن أقتلك ؟ » هذه كلمات ما كان يجب أن تستعملها ،

من إيلام .. ولكنني واثقة من أنه لم يكن يصدر في هذا عن خيب وإثما وفقاً لمبدأ ! ..

وتصادف أن رأيته . في الليلة السابقة على رحيله — يتمشى عند الغروب في الحديقة : فلما نظرتُ إليه تذكرت أن هذا الرجل — الذي كان يجافيني على هذا النحو — قد أنقذ حياتي يوماً . وأنا على صلة من القربى وثيقة ، فشعرت بأنني منساقة إلى أن أبذل محاولة أخيرة كي أسترده . ومن ثم سعيته إليه وهو متكئ على بوابة الحديقة . وبادرته قائلة : « إنني شقية ياسانت جون لأنك ما تزال غاضباً مني . فعدنا نحن صديقين ! » . فكان الجواب الذي لم يكن يتزحزح عنه : « كنت أظن أننا صديقان .. قالها في فتور وهو منصرف إلى تأمل القمر الذي بدأ يبرز ، فقلت : « لا ياسانت جون . لسنا صديقين كسابق عهدنا . وإنك لتدرك هذا ؟ »

— ألسنا صديقين ؟ .. هذا خطأ .. إنني من ناحيتي لا أرجو لك شراً ، بل أتمنى لك كل خير .

— إنني أصدقك ياسانت جون ، لأنني واثقة من أنك لا تقوى على أن تمنى شراً لأي أحد . على أنني — كقريبة لك — أجد من حق أن أرجو منك ودأ يفوق هذا اللون العام من العاطفة الإنسانية الذي تبسطه لمن هم مجرد أغراب .

— إن رغبتك معقولة بالطبع ، وأنا بعيد عن أن أعتبرك غريبة ؟ . وكانت هذه العبارة التي نطق بها في برود وسكينة ، كفيلة بأن تنظني ونجبرني ، ولو أنني أصغيت إلى وسوسة الكبرياء والحق .

فهي عنيفة ، وتتأفي روح الأنوثة ، وغير صحيحة .. إنها تنشي بحالة ذهنية أليمة ، وجديرة بأن تجلب عليك التأنيب الشديد .. إنها ليست مما يمكن اغتزارها ، ولكن واجب الإنسان أن يغفر لأخيه سبعاً وسبعين غلطة ! : « وكنت إذ ذاك قد فرغت من مهمتي ، فبينما كنت توافة إلى أن أحو من ذهنه إلهاتي السابقة ، إذ في أطبع على سطحه الصاب أثر آخر أشد غوراً من سابقه .. طبعته بالكي المحرق ! وقلت : « لسوف تكرهني الآن فعلاً ، فلا جدوى من محاولة الصلح » بل أرى أنني جعلت منك عدواً إلى الأبد ! : « .. وأحدثت هذه الكلمات أذى جديداً : أنكى من السابقين ، لأنها مست الحقيقة : فإذا الشفة الممتعة ترتجف في تشنج عابر .. وتبين مدى الحقد الحاد الذي شجذته ، فاعتصر الألم فؤادي : وقلت وقد أمسكت يده : « إنك تسيء تأويل كلماتي ، فلست أنتوى حقاً أن أوملك أو أسوء إليك ، وما انتويت من قبل ! » .

وابستم في مرارة ضافية ، وسحب يده في إصرار بالغ ، وقال بعد صمت طويل : « والآن - أحسبك تسجين وعدك ، ولن تذهبي إلى الهند إطلاقاً ؟ » .. فأجبت : « بل سأذهب - كمساعدة لك » .. وتلا ذلك صمت جد طويل ، فأى صراع كان يدور في نفسه - خلال تلك الفترة - بين الطيبة والدين .. تست أدري ، ولكن عينيه كانتا تومضان ببريق عجيب ، كما غامت على وجهه ظلال غريبة ، وتكلم في النهاية ، فقال : « لقد بينت لك من قبل الحرج الذي يحيط باعتزام امرأة بكر في سنك أن ترافق إلى الخارج رجلاً أعزب في سنى .. بينته لك بعبارة كانت كافية - على ما ظننت - لأن تمنعك من التماذي في هذا الرأي : أما وقد

تماذيت : فإني أشعر بالأسف .. من أجلك ! : « وكان أي حديث يحمل معنى التأنيب ، كفيل بأن يثير جرائي ، فقاطعت قائلة : « احرص على ألا تجانب الإدراك السليم ، فإنك على شفا الهذيان ياسانت جون : « إنني أكرر لك القول بأنني سأكون مجرد مساعدة لك إن شئت ، ولكني لن أكون أبداً زوجتك ! » .

واشتد شحوب وجهه مرة أخرى ، ولكنه تمالك جأشه تماماً ، وأجاب في إصرار ، ولكن دون انفعال : « لن تناسبي قط مساعدة لا تكون زوجة لي .. ومن ثم يبدو جلياً ألا رحيل لك معي . على أنك إذا كنت صديقة في رغبتك في الذهاب » فسألت : « أثناء وجودي في المدينة - إلى مبشر متزوج ، نحتاج زوجته إلى مساعدة : وستمكنك ثروتك من ألا تعيشي عائلة على معونة الجمعية : وبهذا تنفادين عار النكت بوعدك ، والتخلف عن الركب الذي تعهدت بالانضمام إليه .. »

وكما يعلم القارئ ، لم أكن قد قطعت على نفسي وعداً رسمياً « ولا ارتبطت بأي تعهد . ومن ثم كان أسلوبه أقسى وأعتى مما ينبغي ، فقلت : « لا عار هناك ، ولا نكت بوعد ، ولا تخلف ، ولست مرتبطة بآثقه التزام بالذهاب إلى الهند ، لاسيما مع أغراب . لقد كنت مستعدة لأن أجازف بالسفر معك ، لأنني أعجب بك ، واثق فيك ، وأحبك كأخت .. ولكني موقفة من أنني إذا ذهبت إلى هناك - متى ومع من يتدر لي الذهاب - فلن أعيش طويلاً في ذاك الطقس » . فلوى شفته ازدياء ، وقال : « آه ! .. إنك تخافين على نفسك » . فأجبت : « أجل ، فإن الله لم يمنحني الحياة لكي أرميها ، ولقد بدأت أرى أن إتيان ما تريد

منى فعله ، بكاد يعادل الانتحار . فضلاً عن أنى لا بد من أن أتأكد
— قبل مبارحتى النجلترا — من أن بقاءى هنا لن يكون أكثر نفعاً من رحيلى .
ففسائل : « ما الذى تعنين ؟ » .

— من العيب أن أشرح لك ، ولكن هناك نقطة ظلت أعانى مرارة
الشك فى أمرها طويلاً . وليس لى أن أذهب إلى أى مكان حتى يقبده
هذا الشك .

— إننى أعرف أين يهفو قلبك وإلام يتعلق .. وهذا الاهتمام ينافى
القانون والشرع « وكان خليقاً بك أن تسحقه من أمد طويل ، كما يجدر
بك الآن أن تحجلى من الإشارة إليه .. أنفكرين فى مستر روشستر ؟
وكان هذا حقاً ، وكان صحتى اعترافاً به . فعاد يسأل : « هل
سنبحثين عن مستر روشستر ؟ » فأجبت : « لا بد من أن أعرف
ما أصابه » . فقال : « لم يبق لى إذن سوى أن أذكرك فى صلواتى .
وأدعو الله من أجلك ! » .

■ وإذا عدت إلى قاعة الجلوس ، وجدت ديانا واقفة لدى النافذة ،
مستغرقة فى التفكير .. وكانت تفوقنى طولاً بكثير ، فألقت يدها على
كتفى ، ومالت فوقى تنفرس وجهى ، ثم قالت : « جين ، لقد أصبحت
دائمة الانفعال والشحوب ، وأعتقد أن فى الأمر شيئاً ، فأخبرينى بما
بينك وبين سانت جون .. لقد ظلمت أواقبكما من النافذة نصف ساعة ،
ولتصفحى عن تجسسى ، ولكنتى منذ زمن أوجس من أمر لا أدريه ..
أن سانت جون مخلوق عجيب .. » ، وأمسكت عن الكلام ، فلم أنبس

بينت شفة . وما لبثت أن استأنفت حديثها قائلة : « إننى واثقة من أن
هذا الأخ الذى أوتيته بهم وراء آراء عجيبة عنك ، وقد أترك من أمد
طويل بعناية واهتمام لم يولها أحد سواك .. فما غايته ؟ .. ليته يحبك .. هل
هو يحبك يا جين ؟ » .

فرفعت يدها الباردة إلى جبينى الملتهب ، وقلت : « لا ياديانا ..
إنه لا يحبنى مثقال ذرة ! » . ففسألت : « إذن فلماذا يتبعك هكذا بعينه ،
ويخلو إليك كثيراً . ويستبقيك باستمرار إلى جواره ؟ .. لقد استفتجت
ومارى أنه يريد الزواج منك » . فقلت : « هو كذلك .. لقد سألتنى أن
أكون زوجته » . فصفتت ديانا وهفت : « هذا ما تمنيناه وفكرنا
فيه ! .. وسوف تنزوي به يا جين .. أأست كذلك ؟ .. إنه إذ ذاك سيمسك
فى النجلترا » . وهنا قلت : « إن الأمر بعيد عن هذا ياديانا » . فإن فكرته
الوحيدة فى عرض الزواج هى الحصول على زميل صالح يشاطره جهوده
فى الهند » .

— ماذا ؟ .. أريد منك أن تذهبي إلى الهند ؟

وإذا أجبت نعم ، هفت : « جنون ! .. إنك لن تعيشى هناك أكثر
من ثلاثة أشهر .. إننى واثقة من ذلك . لن تذهبي .. ما أظنك وافقت
يا جين ؟ » . فقلت : « بل رفضت الزواج منه » . فعقبت قائلة :
« وبهذا أغضبته ؟ » .

— إلى أعمق حد ، فلن يصفح عني قط .. ومع ذلك « فقد عرضت
عليه أن أرافقه كأخت له .

— إنها لحاجة بالغة يا جين . فكرى فى المهمة التى ستضطلعن بها .

إنها عناء متواصل ، في بلاد يقتل الشعب فيها الأقوياء ، في حين أنك ضعيفة ! .. ولكن ، كيف رفضت الزواج منه .. إذن ، فأنت لا تحبينه يا جين ؟

— لست أحبه كزوج .

— ومع ذلك فهو شاب مليح .

— وأنا خالية من الجبال كما ترين يا (دى) ، ومن ثم فلن يلائم

أحدنا الآخر .

— أثنت خالية من الجبال ؟ .. أبداً ! .. إنك من الملاحاة والطيبة

بحيث لا ينبغي أن تشوى حية في كلكتا .

وعادت تهب في في إخلاص أن أطرح كل فكرة في الرحيل مع

أخويا ، فقلت : « لا بد لي من ذلك فعلاً ، لأنني عندما كررت اقتراحي

عليه بأن أحلعه كائنات ، بهت لقلة حيائي ، وبدأ أنه يراني قد ارتكبت

ذنباً إذ اقترحت عليه أن أرافقه دون زواج ، وكأنني لم أكن آمل من

البداهة أن أتخذه أخاً ، ولم أعتد أن أعتبره كذلك ! .. فسألني :

« وما الذي يجعلك على الظن بأنه لا يجيك يا جين ؟ » . فأجبت :

« يحسن بك أن تسمعني إذ يتكلم في الموضوع .. لقد عبر مراراً وتكراراً

عني أنه لا يريد زوجة لشخصه » وإنما من أجل مهمته . ولقد أخبرني

بأنني خلقت للعمل وليس للحب ، وهذا حق بلا شك . ولكني أرى

أنني إذا كنت لم أخلق للحب ، فأنا بالأحرى لم أخلق للزواج . أفلا يكون

من العجيب بعد ذلك يا (دى) أن أقيد نفسي مدى الحياة لرجل لا يراني

أكثر من أداة نافعة ؟ » .. فهتفت : « إنه أمر لا يطاق .. غير طبيعي ..

لا يستحق الاعتبار ! » . فاستطردت قائلة : « ثم إنني وإن كنت أكن أنه الآن حياً أخوياً ، إلا أنني أتصور — إذا ما اضطرت إلى الزواج منه — احتمال قيام نوع من الحب الغريب ، المصطنع ، الذي لا مفر منه ، لأنه جم المواهب ، وفي منظره وأخلاقه وحديثه قدر من وقار الأبطال ، في كثير من الأحيان . وفي هذه الحالة ، سيصبح حظي تعلقاً إلى درجة تجعل عن الوصف . إنه لن يريد مني أن أحبه ، فإذا أبدت عاطفتي فسيبعد إلى إشعاري بأن هذا نوع من النعم الذي لا ينبغي . والذي لا يليق بي : إنني أوقن من أن هذا سيكون تصرفه » .

وقالت ديانا : « ومع ذلك فإن سانت جون رجل طيب » . فقلت :

« إنه طيب وعظيم ، ولكنه ينسى .. في غير إشفاق .. شاعر ومطالب

الناس البسطاء ، في اندفاعه وراء نظرياته الجلييلة .. لذلك يحسن بمن

لا يضاهونه عظمة ، أن يتبعوا عن طريقه ، وإلا داسهم في سبيله »

هاهو ذا آت ، لذلك ، فسأتركك يا ديانا » . وأسرعت أصعد إلى الطابق

العُلوي ، إذ رأته يلج الحديقة .

ولكنني اضطرت إلى مقابلته مرة أخرى عند العشاء . وبدأ

.. خلال تناول الطعام .. هادئاً كمعادته . وكنت أظنه لن يوجه إليَّ

حديثاً ، كما كنت موقنة من أنه قد تخلى نهائياً عن مشروع الزواج :

ولكنني أخطأت الحدس في الأمرين . فقد خاطبني بنفس طريقته المعهودة

— أو التي أصبحت معهودة في المدة الأخيرة — وهي طريقة تنسم بأدب

متزمت . ولا مراء في أنه استعان بالروح القدس ليكظم الغضب الذي أثارته

في نفسه ، فخبيل إلى أنه قد صفع عني مرة أخرى . واختار للقراءة

المسائية - السابقة على الصلاة - الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الرؤيا
ولقد كان من الممتع دائماً أن أنصت بينما تنطق شفتاه الجميلتان بكلمات
الإنجيل . فما كان صوته الرقيق ليبدو أكثر عذوبة وامتلاء ، ولا كانت
لهجته تبدو فى بساطتها السامية أكثر تأثيراً فى النفس ، منها عندما يتلو
كلام الله .. أما فى هذه الليلة . فقد اكتسب الصوت نغمة أكثر روعة .
واكتسبت لهجته معنى أكثر تأثيراً فى النفس .. وكان يجلس وسط حلقة
من أهل بيته ، وقد بدا قر شهر مايو متألقاً خلال النافذة التى انزاحت
عنها الستار ، فجعل ضوء الشمعة القابعة على المنضدة يبدو غير لازم - هكذا
كان يجلس عاكفاً على نسخة الإنجيل العتيقة الفضية ، ينقل عن صفحتها
رؤيا السماء الجديدة . والأرض الجديدة ، ويروى كيف سيهبط الرب
ليعيش بين الناس ، وكيف سيجفف الدموع عن أعينهم . ويعد بأنه
لن يكون ثمة موت بعد ذلك . ولا أسى ، ولا عويل . ولا أى ألم .
لأن الأشياء السالفة ستقضى وتزول ! ..

وهزنتى الكلمات المتعاقبة بقوة عجيبة وهو يتلقى بها . لاسياً حين
شعرت - من التغير البسيط النافذ الذى انتاب صوته - أن عينيه قد تحولتا
نحوى ، وهو يلفظ هذه الكلمات : « من يقلب يرث كل شئ » وأكون
له إلهاً : وهو يكون لى ابناً وأماً ، وهما تباطأت لهجته وأخذ يضغط على
الكلمات « الخائفون ، وغير المؤمنين ... فتصبيهم فى البحيرة المتقدة
بنار وكبريت . الذى هو الموت الثانى » .. ومن هنا أدركت أى مصير
كان سائت جون يفشى أن أناله ! .. واتسمت قرأته للفقرات الأخيرة
من هذا الإصحاح ، بشعور من النصر الهادئ المكبوت المترج بحماس

مشبوب . وكأنما آمن هذا القارئ بأن اسمه قد كتب فعلاً فى « سفر
الحياة » ، فناقت نفسه إلى الساعة التى يؤذن له فيها بدخول المدينة التى
يحمل إليها ملوك الأرض أمجادهم ومفاخرهم . حيث لا حاجة إلى شمس
أو قمر لإضاءتها . لأن جلال الله ينيرها ..

وتجمعت كل طاقته . واستيقظ كل إيمانه الوديع فى الصلاة التى
أعقبت هذا الإصحاح : فكأنما كان يجاهد من أجل الله بكل إخلاص ،
وقد عقد العزم على الغلبة ، وراح يطلب القوة لذوى القلوب الضعيفة ،
والهداية للضالين . والتوبة - ولو فى الساعة الأخيرة - لأولئك الذين
كانت إغراءات الدنيا والجسد تحيد بهم عن الطريق الضيقة . وراح
يطلب ، ويلج فى السؤال . يرجو نعمة النجاة من النار ، وللإخلاص
رهبة عميقة ، فوجدتهى أفكر فى إخلاصه .. أولاً وأنا أصغى إلى الصلاة .
ثم عندما بلغت ذروتها . فلذا بنى أناثر بها . ولا ألبث أن أخشع لرهبتها ..
كان يشعر غلصاً بعظمة وصلاص غرضه . ويشهد بذلك الآخرون
الذين استمعوا إليه . لأنهم لم يملكوا سوى أن يشعروا بذلك .

وإذ انتهت الصلاة ودعناه . إذ كان مزماً الرحيل فى ساعة جد
مبكرة من الصباح . فلما قبلته ديانا ومارى . غادرتا الحجرة ..
وإخاطبهما فعلتنا ذلك عن قصد . إثر همة منه .. وبسط له يدي متمنية
له رحلة ببيجة ، فقال : « شكراً لك يا جين . وسوف أعود من كمبرج
بعد أسبوعين . كما قلت لك . وهذه الفترة مهلة تفكرين فيها . ولو أنني
أنصت للكبرياء البشرية . لما كان لى أن أحدثك ثانية عن الزواج منى ،
ولكنى أنصت لواجبى . وأضع نصبى .. الأول : وهو

أن أفعل كل الأشياء ، في سبيل مجد الرب . لقد عانى معلني (المسيح) طويلاً ، وكذلك سأعاني ، فلست أقوى على أن أتركك للهلك ، كسفينة ضالة !.. ألا توبني ، وأنبئي ، قبل قوات الأوان !.. تذكرى أننا أمرنا بالعمل والوقت نهار ، وأنذرنا بأن « الليل لن يلبث أن يأتي ، فلا يتاح للإنسان أن يعمل » .. ويتحرك الله القلعة على أن تختار النصيب الذي لأسبيل إلى انتزاعه منك ! »

ووضع يده على رأسي وهو ينطق بهذه الكلمات . وكان يتكلم بحماسة ورقة .. ولم تكن نظرتي في الواقع نظرة محب يتطلع إلى محبوبته . وإنما كانت نظرة راع يجمع حلاله الشاردة ، أو بالأحرى نظرة ملاك حارس يرقب الروح التي هو عنها مسئول .. إن لكل الموهوبين - سواء كانوا مرهني الحبس أو لم يكونوا وسواء كانوا متحمسين أو طموحين أو طغاة - لحظات من السمو يسودون فيها ويسيطرون ، على أن يكون الإخلاص والصدق رائدهم . وشعرت بتوقير نحو سانت جون ، توقير بلغ من قوته أن دفعني فوراً إلى النقطة التي كنت أحاول طويلاً الابتعاد عنها .. فلقد ساورتني إذ ذلك الرغبة في أن أكف عن منازعته ، وأن أندفع في تيار إرادته إلى بحر حياته فأفقد إرادتي في غماره .. وشعرت الآن بوطأة حصاره لي كما شعرت به مرة من قبل :

ووقفت بلا حراك تحت لمسات ساحري : وقد نسيت رفضي : وزالت غلافوني وثلث مقارمتي ، وأصبح المستحيل - وهو الزواج من سانت جون - ممكناً . لقد تغير كل شيء تماماً بلحمة مباغته : إن الدين ينادي « والملائكة توبني » ، والله يأمر : والحياة تطوى . وأبواب

الموت مفتوحة تطل الأبدية من خلفها : وبدأ لي أنه لا بد من التضحية بكل شيء في التو واللطفة : لكي أحصل على الأمان والسعادة .. وامتلات الغرفة المعتمة بالرؤى والأحلام .. وما لبث أن سألتني سانت جون بلهجة رقيقة ، وقد تحنني إلى جانبيه بلطف : « هل تستطيعين أن تقرري الآن ؟ » . آه من هذه الرقة !.. لشدها مني أقوى من العنف !.. لقد كنت أستطيع أن أقاوم غضب سانت جون ، ولكنني كنت أنتقي كعود الخيزران تحت ضغط رفته ولطفه : ومع هذا فقد كنت أعرف طيلة الوقت أنني إذا استسلمت الآن فإن الندم لن يساورني يوماً على سابق تهردي وعصيانتي ، إذ أن طبيعته لم تكن قد تبدلت إثر ساعة من الصلاة ، وغاية ما في الأمر أنها سميت عالياً .. فحسب !

وأجبت أخيراً : « بوسعي أن أثبت الآن ، لو أنني وثقت بأن إرادة الله تفرض علي أن أتزوجك .. لو أنني اقتنعت لتزوجتك هنا ، والآن ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! » . فصاح سانت جون : « لقد استجيت صلواتي ! » . وشد قبضته على يدي وكأنه يستولي على ما هو حق له : وأحاطني بنراعه وكأنه يخبني « تقريباً » وأقول تقريباً ، لأنني أدرك الفرق ، فلقد عرفت شعور الإنسان عندما يكون محبوباً . ولكنني غلبت مثله ، فطرحت مسألة الحب وراء ظهري ، وجعلت أفكر في الواجب فقط !.. وأخذت أصارع ما اكتشف بصيرتي من عمسة وظلام . كنت أتوق بإخلاص وحرارة وصدق إلى أن أفعل الشيء الصحيح ولا أحفل بغيره .. وابتليت إلى السماء : « أأدليني .. أرشديني إلى الطريق ! » . وشعرت بانفعال أشهر مثله من قبل ، وسواء كان

ما حدث بعد ذلك نتيجة للاتصال أو لم يكن - فهذا متروك لحكم القارئ :
كان السكون يخيم على المنزل كله . إذ هجع الجميع . ما عداى
وسانت جون : وكانت الشمعة الوحيدة تختصر . وضوء القمر يغمر
الحجرة ، وقلبي يدق بسرعة وعنف .. حتى أنني كنت أسمع وجيبه ..
وفجأة « أخلد القلب إلى السكون ، إذ غشه إحساس غريب ، لم أدر
كنهه ، ولم يلبث أن سرى إلى رأسي وأطرافي .. وما كان هذا الإحساس
كس الكهرباء ، ولكنه كان .. على أى الحالات - حاداً - غريباً .
مذهلاً ، أرسل في حواسي - التي كانت في أقصى انتباهها حتى تلك
اللمحة - مفعولاً مخدراً . سارعت إلى انتزاعها منه وإيقاظها .. فانتبعت
مرهقة ، تتوقع أمراً .. فلذا عيني وأذني في انتظار ، بينما كان لحمي
يرتعش فوق عظامي .. وسألني سانت جون : « ما الذي سمعت ؟ .. وما
الذي ترين ؟ .. » ولم أكن قد رأيت شيئاً ، ولكنني سمعت صوتاً ينادي
من مكان ما :

« جين ، جين ، جين ! .. » ولا شيء أكثر من ذلك .. وشبهت
قائلة : « يا إلهي ! ما هذا ؟ .. » ولعلني قلت أيضاً : « أين هو ؟ » لأنني
لم أر شيئاً في الحجرة ، ولا في المنزل ، ولا في الحديقة .. على أن الصوت
لم ينبعث من الهواء ، ولا من تحت الأرض أو من فوق رأسي .. لقد
سمعتة .. ولكن كان من المستحيل أن أدرى : أين ولا أيان ! .. ولقد
كان صوت كائن بشري . معروف . ومحجوب .. كان صوتاً أتذكره
جيداً : صوت إدوارد فيرفاكس رويشستر ! .. وكان يتكلم بألم . وأسمى .
ولفحة ، واستنجد ، وتعجل ! .. فصحت قائلة : « إني قادمة ! .. »

انتظرنى ! .. أواه ، سأحضر ! .. وهرولت إلى الباب فنظرت إلى الممر
الذي كان مظلماً ، وجريت إلى الحديقة فوجدتها خالية .. فتأديت في
دهشة : « أين أنت ؟ » ..

وأرسلت اللال عبر الوادي رداً واهناً : « أين أنت ؟ .. » وجعلت
الرياح تن في خفوت خلال أشجار الصنوبر ، بينما كانت الوحشة
والوحدة تسيطران على اللال المقفرة « وخيم سكون منتصف الليل
على المكان .

وقلت لسانت جون ، إذ خيل لي أنني أرى شبحاً أسود يبرز عند
الشجرة السوداء المجاورة لباب الحديقة : « ألا دعني من الأوهام
الخرافية ! .. ما هذا من صنع دجلك أو صورك ، وإنما هو من صنع
الطبيعة .. لقد ثارت ، وإذا كانت لم تفعل المعجزات ، إلا أنها بدلت
قصارى جهدها ! .. » وابتعدت عن سانت جون ، ولو استطاع لاحتجزني .
ولكن هذه كانت ساعتى التي أستردها فيها سطواني وتفوذى ، فإذا قواى
تنطلق من عقاقها في شدة .. وطلبت إلى سانت جون أن يمسك عن أى
سؤال أو ملاحظة : ورغبت إليه أن يتركني لأخلو إلى نفسي ، فأطاعني
على الفور . وما دام الإنسان يملك الطاقة الكافية لكي يأمر بصورة حاسمة ،
فإنه لا يجد سوى الطاعة ! .. وصعدت إلى غرقتي فأغلقتها بالمفتاح ،
ثم ركعت على ركبتي ورحت أصلى على طريقتي .. وقد تغيرت طريقة
سانت جون ، ولكنها فعالة .. فبدأت في أنني أقترب جداً من الله ..
واندفعت روحي ساجدة عند قدميه ، عرفاناً وشكراً . وعندما نهضت
من صلاتي ، كنت قد عقدت العزم على أمر : فاستلقيت على فراشي

وقد اتراحت الهموم عن كاهلي ، وزالت الغشاوة عن بصري .
وانتظرت بلهفة شروق الصباح !

الفصل السادس والثلاثون

● وأقبل النهار ، فنهضت عند الفجر وانهكت ساعة أو ساعتين في ترتيب حاجتي في غرفتي وأدراجي وصواني « وقد اعتزمت أن أغيب عنها فترة وجيزة . وسمعت في الوقت ذاته (سانت جون) يبرح غرفته ثم يقف عند بابي . وخشيت أن يعطرقه ، ولكنه اكتفى بأن دفع من تحت الباب ورقة ، فتناولتها ونظرت إليها ، وإذا فيها : « لقد تركتني فجأة ليلة أمس ، ولو أنك مكثت برهة وجيزة ، لوضعت يدك على صليب المسيح وتاج الملاك . سأنتظر منك قراراً واضحاً عند عودتي بعد أسبوعين وفي الوقت ذاته « حافظي وصلي لكي لا تقعي في القوابة .. إن روحك راغبة ، ولكن الجسد .. على ما أرى - ضعيف . سأصلي من أجلك في كل ساعة - المخلص : سانت جون .. وهتفت في نفسي : « إن روحي راغبة في أن تفعل ما هو صواب ، وجسدي - فيما أوجو - قوي إلى الدرجة التي تمكنه من تحقيق إرادة السماء ، بمجرد أن تتكشف لي هذه الإرادة . وعلى أية حال ، فلسوف أكون من القوة بحيث أستطيع البحث والسؤال ، والتفتيب عن منفذ من غيوم الشك هذه ، كي أصل إلى نهار اليقين ! » :

وكان اليوم أول أيام شهر يونيو ، ومع ذلك فقد كان الصباح بارداً مطيراً ، وأخذ المطر يطرُق بشدة زجاج نافذتي : وسمعت الباب

الخارجي يتفتح « فنهضت سانت جون خارجاً .. ورأيت - خلال النافذة - يعبر الحديقة ، ثم يتخذ طريقه خلال الأجسام الملتفة بالضباب ، نحو (هويتكروس) ، حيث يلتقي بعسرة البريد . فقلت له في نفسي : « لسوف أقفؤ أترك بعد ساعات قليلة يا ابن العمة ، وأسئتل أنا الأخرى عربة من (هويتكروس) ، فإن لي أنا الأخرى من أسعى للاقائه قبل أن أرحل .. إلى الأبد ! » .. وكان باقياً على موعد الفطور ساعتان فأخذت أجوس خلال غرفتي في هدوء « وأتأمل الرؤى التي أحدثت هذا التغير في خططي .. تذكرت الإحساس الغريب الذي خامرني ، والصوت الذي سمعته بكل دافيه من غرابية لاسبيل إلى تعليلها .. ولاح لي أنه إنما انبعث في أعماقي وليس في الكون المحيط بي .. وساءلت نفسي : أفكان مجرد وهم عصبي ؟ .. لم يكن في وسعي أن أجزم ، ولا أن أصدق . كان أشبه الأصوات بالهاتف .. بالإلهام ! .. كان الإحساس الغريب أشبه بهزة فتحت أبواب حجب روحي ، وفككتها من أغلالها ، وأيقظتها من سباتها ، فإذا الروح تنفجر مرتجفة ، مرهفة السمع ، مبهوطة .. ثم ترددت صيحة ثلاث مرات في سمعي ، وفي قلبي ، وفي روحي ، فإذا بهذه الثلاثة لا تجزع ، ولا ترتعب ، وإنما انتشت ، وكأنها تحررت بحركة واحدة من أسار الجسد ! ..

وقلت أختم تأملاتي : « سأعرف بعد أيام شيئاً عن ذلك الذي خيل لي ليلة أمس أن صوته يدعوني .. لقد أثبتت الخطابات أنها غير مجدية ، ومن ثم فلا بد من التحرر الشخصي . فلما اجتمعنا حول مائدة الفطور ، أعلنت ديانا وماري أنني منطلقة في رحلة قد تستغرق أربعة أيام على الأقل ،

فسألته : « أو ترحلين وحدك يا جين ؟ » فأجبت : « أجل . فإني ذاهبة لأتفقّد أبناء صديق أشعر بقلق من أجله منذ أمد » . ولعلهما قالتا في نفسيهما إنهما كانتا تعتقدان ألا أصدقاء لي سواهم « فكثيراً ما قلت هذا فعلاً .. ولكن ما طبعنا عليه من لطف جعلهما تسمكان عن التعقيب . وإن سألتني ديانا عما إذا كنت أعتقد أنني في حالة صحية تمكنني من السفر .. إذ كانت تراني شاحبة .. ولكنني أجبتها بأنني لم أكن أعاني إلا من القلق .. »

* * *

■ وبارحت (مور هاوس) في الساعة الثالثة من بعد الظهر ، فلم تأت الساعة الرابعة حتى كنت أقف بجانب علامة الطريق -- عند (هويتكروس) أنتظر العربية التي تقاني إلى (ثورنفلد) . وما لبثت أن سمعتها -- وسط السكون الشامل -- تقرب من بعد .. وإذا بها عين العربية التي هبطت منها في تلك البقعة ذات أصيل من أصائل الصيف ، منذ عام !.. لكم كنت إذ ذاك بلا حول ولا قوة ولا هدف !.. وسرعان ما كانت تعطيني إلى (ثورنفلد) وأنا أشعر وكأنني حمامة تعود إلى عشها !.. واستغرقت الرحلة ستاً وثلاثين ساعة ، فقد بارحت (هويتكروس) بعد ظهر يوم الثلاثاء .. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم بعد التالي ، وقفت العربية -- ربما ترتوي الخيل -- عند فندق ريني . فإذا المروج الخضمر ، والحقول الشاسعة ، والتلال الخفيفة المكسوة بالأعشاب ، تصافح عيني بمنظر مأرّفة .. وما كان أبعد الفرق بيني وبين مروج (مورتون) !.. وعلمت من الفندق أنه لم يبق بيني وبين

(ثورنفلد هول) سوى ميلين ، قطمأنت نفسي إلى أن رحلتى قد أشرفت على نهايتها . فأودعت لدى الفندق صندوقاً ليستقبه ريثما أعود لاستردادته ، ثم تقدمت الحوذي أجراً أَرْضاه .. وعندما انطلقت على قدمي . كانت الشمس تغمر لافتة الفندق ، فقرأت عليها : « فندق ضيعة روشستر » ، ففحق قلبي إذ غدوت في نطاق أملاك سيدى . ولكن خاطراً هتف بي : « قد يكون سيدك نفسه عبر الخليج البريطاني .. وحتى لو كان في قصر (ثورنفلد) الذي تغذرن السير نحوه . فن التي تعيش بخواره .. زوجته المجنونة : ومن ثم فلا شأن لك به ، وليس من حقلك أن تكلميه أو تنشدي قربه .. خليك بك ألا تمنى قدماً » بل سلى أهل الفندق عن الأنباء أولاً !.. وبدا الاقتراح معقولاً . ولكنني لم أقو على تنفيذه ، فقد خشيت أن ألقى جواباً يسحق آملي .. وفي إطلاعة الثلث استبقاء للأمل !.. وما كان أسرع سيرى !.. فقد كنت أجرى في بعض الأحيان .. وكنت طيلة الوقت أتوق إلى رؤية الغابات المألوفة : وفي قاي سبل جارف من العواطف ، فلما لاحظت في النهاية ، تولاني حبور عجيب : وزدت من إسراعي في السير ، وأنا أتعجل رؤية القصر ذاته . وأنا أحدث نفسي : « ستكون الواجهة أول ما يصافح عيني .. وسوف أميز من بين نوافذها نافذة سيدى .. وربما وجدته واقفاً فيها : فإنه ينهض مبكراً في العادة .. بل لعله الآن يتمشى في البستان أو في الطريق المرصوفة أمام القصر .. آه : لو قدر لي أن أراه !.. أتراني لا أجن إذ ذاك . فأهرع إليه .. كنت أدرى .. وماذا يجري لو فعلت ؟ : ليباركه الله !.. من الذي يضارأنا نعمت مرة أخرى بتذوق

الحياة في فيض نظراته ؟ .. ولكنني أهذى ، فربما كان في هذه اللحظة
يرقب الشمس فوق جبال البيرنيز أو على بحار الجنوب ..

وبلغت فرجة في أحد المروج ، قام على جانبيها عمودان ، وكانت
تشرف على واجهة القصر مباشرة ، فلمست رأسي في حذر من خلف
أحد العمودين مشوكة إلى أن أتزود بنظرة إلى نوافذ مخدع سيدي ..
ولعل الغربان التي كانت تحوم فوق قد أخذت إذ ذاك لمظهرى ، ولما
بدا في حركاتي من حذر بالغ « وعجل شديد .. ولكنني سرعان ما تجرأت
وأرسلت نظرة خاطفة » ثم أتبعها بنظرة طويلة « ثم اندفعت من مكاني ،
فيأذي أمام القصر ، وهنا كانت الصدمة الكبرى ! ..

تصور أيها القارئ عاشقاً يفاجئ حبيبته نائمة على العشب .. إنه
يود أن يتزود بنظرة إلى وجهها دون أن يوقظها ، ومن ثم ينسلل في رفق ،
أشد ما يكون حذراً ، ثم يقف إذ يغال أنها تحركت .. ويتراجع ، ولكنه
يجدها ساكنة ، فيعاود التقدم ، وينحن فوقها ، ويرفع الحمار الرقيق
عن وجهها ، ثم يزاد انحناء ، وتلهم عيناه جامها الداني الناظر الحبيب
بنظرة عاجلة ، ثم تطول نظراته ، فلا يلبث أن يحفل ، ويضم إلى صدره
الجسد الذي لم يكن يقوى منذ لحظة على أن يمسه ، وبروح ينادى « ثم
يسقط حله ، ويحملك فيه ... ويعود يحتضنه ، وبصرخ ، ويحملك ،
وقد زايه الخوف من أن يوقظ الحبيبة .. إذ يتبين إذ ذاك أنها جثة هامدة !
وهكذا كان حالي .. فلقد تطلعت في فرح مشبوب نحو القصر المنيف
فلم أر سوى أطلال سوداء !

لم تكن هناك حاجة للتوازي وراء عمود ، ولا لاختلاس النظر إلى

نافذة المخدع : ولا الخوف من الحياة التي تدب وراء الجدران .. وما كانت
تمة حاجة لإرهاق السمع توقعا لأصوات الأبواب وهي تفتح ، أو لوقع
الخطى على الطريق الحصوية ، فقد كان الخراب يرين على كل شيء ..
وكانت الواجهة — كما رأيتها ذات مرة في منامى — مجرد جدار قائم ،
متداع : تتخلله ثغرات النوافذ .. فلا سقف هناك ، ولا مصاريع ،
ولا مداخن .. كل شيء قد انهار ! وأحاط بالموقع كله سكوت كالموت
ووحشة كثيفة .. لاعجب إذن في أنني لم ألتق رداً على الخطابين اللذين
أرسلتهما ! .. وكانت الأحجار الكثيفة ، السوداء ، تنبئ بالمصير الذي
لغته القصر ، فلقد احترق ! .. ولكن ، ما الذي أوقد الحريق ، وما قصة
النكبة ؟ .. وهل راحت الأرواح كما ذهب الصرخ ؟ .. وكان السؤال
رهيباً ، وليس تمة من يجيب عنه .. وفيما كنت أجوس بين الأطلال ،
وقع بصري — بالرغم مني .. على برج الكنيسة المغبر - فسألت نفسي :
« أترى حبيبي مع دامر روشستر يشاطره مثواه الرخامي الضيق ؟ »
وكان لابد من إجابات عن هذه الأسئلة فعدلت إلى الفندق الصغير :
وإذ أحضر لي الفندق بنفسه طعام الإفطار ، حاولت أن أستفسره ،
ولكنني خشيت أن أسجع ما كنت أكره ، فاضطربت هزينة . بيد أنني
ما لبثت أن سألته : « هل تعرف ثورنفيلد هول ؟ » .. فأجاب : « أجل
ياسيدي .. لقد عشت هناك فترة .. » إذن : فلا بد أنه عاش في غير
الفترة التي عشت فيها هناك .. وأردف الرجل : « لقد كنت ساقى المرحوم
مستر روشستر » .

المرحوم ! .. لكنني تلقيت لطفة حاولت جاهدة أن أنفادها :

وشهقت : « المرحوم ! » فقال الرجل : « أغنى والد السيد الحالى
مستر إدوارد .. وتنفس الصعداء : وانساب الدم ثانية فى عروقي
بعد أن كاد يتجمد . وطما تنق الكلماتان — مستر إدوارد — إلى أن
روشتري أنا ، كان ما يزال حياً .. بالكلماتين الساريتين ! لقد خيل
إلى أن فى وسعى أن أسمع كل ما يلى ذلك بنفس مطمئنة ، مهما كانت
الأنباء : وعدت أسأل الرجل وأنا أعرف جوابه مقدماً : « هل يقيم
مستر روشتري فى (ثورنفيلد هول) الآن ؟ » . فأجاب : « لا ياسيدى ..
لا أحد يعيش هناك » وما أراك إلا غريبة عن هذه الأصقاع « وإلا لكنت
قد سمعت ما جرى فى الخريف الماضى .. لقد أصبح (ثورنفيلد هول)
أطلالا ، إذ احترق عن آخره .. كانت كارثة مروعة ! فقد اندلعت
النار فى بهم الليل « وقبل أن تصل عربات الإطفاء من (ميلكوت) كان
قد أصبح كتلة من لهب » .. فغمغت : « فى بهم الليل ! » .. تلك كانت
ساعة الخطر دائماً فى (ثورنفيلد هول) . وإذ سألت عن الفاعل ، قال :
« لقد حدسوا .. بل أستطيع أن أقول إنهم تأكدوا .. لعلك لاتدري أن
ثمة سيده .. مجنونة « كانت فى القصر ؟ » كانت حبيسة تحت رقابة
شديدة ، وكان أمرها مكتوباً ، حتى أن أحداً لم يكن على يقين من
وجودها ، إذ أن مخلوقاً لم يرها ، أو يعلم بأمرها إلا على سبيل الأقاويل
والشائعات .. فقد كان يقال إن مستر إدوارد أحضرها معه من الخارج
وزعم البعض أنها كانت خليلته . ولكن أمراً غريباً حدث .. منذ عام
واحد ! » .

وتوقعت أن أسمع قصتي . فعلا قال الرجل : « لقد ظهر أن السيدة

كانت زوجة مستر روشتري ! » . وقبل أن يمضى فى الرواية ، عمدت
إلى تحويله عنها ، بأن سألته عن الحريق ، ولكنه استطرد يحكى كيف أن
مستر روشتري أغرم بحرية شابة فى قصره : « ويقول الخدم إنهم لم يروا
قط إنساناً متيماً مثله « فقد ظل بهم بها حتى بعد أن تركته ، وكانوا
يراقبونه .. وهكذا يفعل الخدم ياسيدتى ! — وهو يخلو إلى ذكراها .. إن
أحدلاً لم يعتبرها جميلة ، ولكنه كان فى حوالى الأربعين ، وهى فى العشرين
والسادة الذين فى سنه إذا وقعوا فى هوى فتيات « فتنوا بهم كأنهم
مسحورون ! » .. ومرة أخرى رددته عن هذه الناحية ، إذ قلت :
« هل انجبت الفنون إلى أن للمجنونة يداً فى الحريق ؟ » .

— إن هذا أكيد ياسيدتى « فليس سواها من أشعل النار : كانت
لها حارسة قديرة ، يقظة .. تدعى مسز بول — لم يكن لها سوى عيب
واحد شائع بين الممرضات .. كانت تحتفظ دائماً بزجاجة خمر ، تجرع
مها فى الليل .. إذا نامت مسز بول مخمورة ، عمدت المجنونة — التى
كانت داهية مأكرة ! — إلى مفاتيحها فأخذتها ، وغادرت غرفتها ،
لتجوس فى البيت مرتكبة أى شر يخطر لها .. وفى تلك الليلة ، أشعلت
النار أولاً فى سائر الغرفة المجاورة لغرفتها ، ثم هبطت إلى الطابق الثانى ،
وسارت إلى غرفة المربية — وكان يبدو أنها عرفت كل ماجرى ، فكرهت
الفنأة — فأشعلت النار فى سريرها .. ولم تكن صاحبه فيه لحسن الحظ ،
إذ أنها كانت قد فرت قبل ذلك بشهرين : ولم يدخر مستر روشتري
جهداً فى البحث عنها ، وكأنها كنت ثمين . ولكنه لم يسمع كلمة واحدة
عنها ، فاستبد به القنوط ، واشتدت شراسته حتى أخذت خطرة :

كما أصبح يحب الوحدة ، فأرسل مسز فيرفاكس - مديرة القصر - إلى أهلها ، وقرر لها معاشاً سنوياً طيلة حياتها .. وأرسل مسز أدیل إلى المدرسة ، وقطع كل علاقاته بمعارفه ، واحتبس نفسه في القصر كالناتسك . ولم يعد يخرج منه إلا في الليل . إذ كان يتمشى في أراضيها وكأنه روح هائمة ، أو شخص مختل ! ..

— إذن فهو لم يكن بداخل القصر حين شب الحريق ؟

— بل كان .. ولقد صعد إلى الطابق العلوي - والنار مشتعلة في كل شيء - فأيقظ الخدم وأعانهم على الهبوط . وذهب إلى حيث كان يحبس زوجته .. ثم سمع صياحاً ينبئها بأنها كانت فوق سطح القصر - تلوح بذراعيها وتصبح بأعلى صوتها .. وصعد إليها مستر روشستر ، وسمعتها بناديبها : « بيرتا ! .. » ورأى أنه بقرب منها ، ثم إذا بها تصرخ ، وتقفز عالياً .. وفي اللحظة التالية كانت مهشمة على الإقربز الممتد أمام القصر ! ..

وسألته : « ميتة ؟ » فقال : « كالحجر الذي تنثر عليه نهبها ودماها ! .. » وارتجف الرجل للذكرى الرهيبة . وسألته عما حدث بعد ذلك ، فقال : « احترق القصر عن آخره » .. قلت : « وهل فقدت أرواح أخرى غير تلك المرأة ؟ » ، فأجاب : « لا .. ولكن ، ليت مستر إدوارد المسكين مات إذ ذاك .. إن البعض يقولون إن ما أصابه كان جزءاً عادلاً لكتيباته أمر زواجه الأول ، ومحاولته الزواج مرة أخرى ، وامراته على قيد الحياة .. على أنني في الواقع أرى له ! .. »

— وهل هو ما يزال حياً ؟

فقال : « أجل ، أجل .. ما يزال حياً ، وإن كان الكثيرون يسمنون له أنه كان قد مات ! .. » وعاد الدم يجري بارداً في عروقي وسألته : « لماذا ؟ .. وكيف ؟ .. وأين هو ؟ .. أهو في إنجلترا ؟ .. » وأجاب الرجل : « نعم .. إنه في إنجلترا ، ولا يستطيع أن يبارحها .. إنه عاجز ! .. » وعصف الألم بقلبي « وأطال الرجل من لففي بصمته ، قبل أن يقول : « إنه أعمى .. عمى تماماً ! .. » وكنت قد خشيت ما هو أسوأ : خشيت أن يكون قد فقد عقله ! .. واستجمعت قواي ، لأسأل عن سر مصابه فقال الرجل : « كان كل شيء بسبب شجاعته ، وكرمه ، فقد أبى أن يبارح القصر قبل أن يخرج منه كل إنسان آخر .. ثم هبط في النهاية عن طريق السلم الكبير .. ولكن كل شيء انهار .. وأخرجوه من تحت الأنقاض ، حياً ، ولكنه في أسوأ حال .. فقد سقط لوح من السقف عليه فوقاه النار والانفاس ، ولكنه اقتلع إحدى عينيه ، وهشم إحدى يديه حتى اضطر مستر كارتر - الجراح - إلى بترها في الحال .. أما العين الأخرى فقد أودت بها النار .. وهو الآن يعيش أعمى ، عاجزاً ! .. » قبادرت متسائلة : « وأين هو ؟ .. » فأجاب الرجل : « في فرندين ، في دار ضيعة يملكها ، على ثلاثين ميلاً من هنا .. في بقعة منعزلة ! .. » وعدت أسأله : « ومن يقيم معه ؟ » ، فأجاب : « جون المعجوز وزوجته ، فقد أبى أن يعيش معه سواهما .. ويقولون إنه محطّم تماماً ! .. »

وظللت إلى الرجل أن يعدني عربة لتحملني إلى فرندين على الفور ، ودفعت له ولخوذيہ ضعف ما كانا يستحقان !

الفصل السابع والثلاثون

■ كان بيت ضبعة (فرندين) عتيقاً ، متوسط الحجم : خالياً من المبالغات الهندسية ، وقد قام في جوف إحدى الغابات . ولقد سمعت عنه من قبل ، إذ كثيراً ما حدثني مستر روشستر عنه .. وكان لبعده ، وسوء موقعه — صحياً — مهجوراً . وليس بغير غرفتين أو ثلاث فيه أى أثاث أو رياش .. وإلى هذا البيت وصلت قبيل الغروب ، في يوم بدت سماؤه كثيفة ، وهبت فيه الريح الباردة ، وتساقطت الأمطار الغزيرة .. وقطعت المبلل الأخير على قدمي — بعد أن صرفت العربة — وكانت الغابة جدد كثيفة حتى لينتعار أن تلمس أثر الدار عن كتب . على أنني ما لبثت أن بلغت أبواباً حديدية . غررت خلالها ، وإذا بي بين صفوف من الأشجار .. وكانت ثمة طريق مكسوة بالحشائش . فسلكتها فلما مني أنها ستقودني إلى المسكن ، ولكنها امتدت وتشعبت دون أن يبدو أثر لعمران . حتى نزلت أنني ضللت سبيلي ، وتكاثفت حولي ظلمة المساء وظلمة الأشجار الكثيفة : ورحت أتلفت حولي . ولكني لم أجد طريقاً أخرى ، فتابعته سيرى ، وأخيراً ، خفت تكاثف الأشجار ، وما لبثت البيت أن لاح لناظري ، وهو لا يكاد يرى بين الظلمة والأشجار وتحت الخضرة الكثيفة الرطبة التي كست جدرانها .. وانتهت إلى باب ، فوقفت في ساحة على شكل نصف دائرة ، تحف بها الغابة .. وكان كل شيء ينم عن أن « البقعة متعزلة » كما قال الفنديق . وكان السكون شاملاً لا يعكسه سوى ارتطام قطرات المطر بأوراق الشجر . فسأملت نفسي :

« أمن الممكن أن يكون هنا أحياء ؟ » .. أجل ، كان هناك أحياء ، فقد سمعت حركة نمت عن أن الباب كان يفتح .. وفعلاً ، لم يلبث أن انفتح في بطء : وبرز منه شخص وقف على عتبته .. وتبينت — في العتمة — أنه كان رجلاً بدون قبعة . ورأيت يمسك ذراعيه وكأنه يتبين ما إذا كان المطر منهراً .. وعرفته — رغم الظلام — كان سيدى ومولاى إدوارد فيرفاكس روشستر !

وسمرت قديمى ، وأمسكت أنفاسي ، ووقفت أرقبه وأتأمله والأسى بعصر فؤادى : لأنه لن يرانى .. كان لقاء فجائياً ، لقيت عناء في كبح العواطف التي اجتاحتها ، وفي خنق صوقي حتى لا ينطلق بالرغم مني .. وكانت قائمته كعهدي بها ، قوية « مستقيمة .. على أنني حين اقتربت .. بنظري مكتومة — تبينت في معالم وجهه تغيراً ثم عن هم وقنوط وكأنه طائر حبيس أو معذب ، على أنني آثرت ألا أفاجئه ، فوقفت أرقبه ، وإذا به يسير في بطء نحو بقعة معشوشبة على حافة الساحة .. ثم وقف . وكأنه لم يكن يدري إلى أية ناحية يتجه . ورفع يده ، فكشف عن حذقة عينه تحت أعضائه ، وتطلع إلى السماء بمقلة غير مبصرة ، وقد بدا عليه أنه كان يبذل جهداً ليجعلها تبصر .. كان وكأنه لم يطمئن إلى اتجاهه ، فتملمس سبيله عائداً إلى الدار ودخلها .. وإذا ذاك اقتربت وطرقت الباب برفق ، ففتحت زوجة جون . وبادرتها قائلة : « أهله أنت يا ماري ؟ .. كيف حالك ؟ » .. وأجففت وكأنها رأت شيئاً ، ولكني هدأت من روعها بسرعة . فهتفت : « أحقاً هذه أنت يا آنسة .. أو قدمت وحيدة . في مثل هذه الساعة : إلى هذا المكان المتعزلة ؟ » .. وتبعها إلى

المطبخ ، حيث وجدت جون جالساً بصطلي نار المدفأة ، فشرحت لها في إيجاز ما سمعته عما حدث منذ بارحت (ثورفيلد) ، وقلت إنني جئت لأزور مستر روشستر ، ثم أوفدت جون إلى البقعة التي بارحت فيها للعبة ليحضر لي حقيقتي « إذ كنت قد تركتها في كوخ صغير .

وفيما كنت أسأل ماري عما إذا كان من الميسور أن أقضي ليلتي في الدار ، دوى رنين جرس من قاعة الجلوس « فخفت لنليته . وإذا ذاك قلت لها : « قولي لسيدك أن ثمة شخصاً يريد لقاءه ، ولكن لا تذكرى له اسمي » . فأجابت : « ما أظنه سيسمح لك ، فهو يرفض مقابلة أي إنسان » . ولكنها ما لبثت أن عادت قائلة : « اكتب لي اسمك والمهمة التي جئت من أجلها » . ونحوت تملأ كوباً بالماء ، وتضعه على صينية مع بعض الشموع ، قائلة : « إنه يجب دائماً أن توضع الشموع بالغرفة ، رغم أنه أعمى » . فقلت لها : « هاتي الصينية ، فسوف أحملها إليه » . وأرشدتني إلى باب غرفة الجلوس ..

وكانت غرفة الجلوس تبدو كثيفة « وقد أخذت حفنة من الجمر تنقد ويبدأ في مدفأتها التي وقف سيد الضيعة الأعمى بجانبها وقد مال نحوها ، وأسند رأسه إلى حافتها « على عادته ، وكان كلبه المعجوز « بابلوت » متروياً في أحد الأركان « وكأنه يناي بنفسه عن مواطئ قدي سيده . فلما ولجت الحجرة ، شرع الكلب أذنيه ، ثم قفز مرسلانباحاً قصيراً ، خافتاً ، وقفز نحوى « فكاد يسقط الصينية من بين يدي . وما أن وضعها على المنضدة « حتى ربت الكلب وحسنت إليه ليعود إلى حيث كان . والتفت مستر روشستر بحركة آلية ، وكأنما أراد أن « يرى »



وقف سيد الضيعة الأعمى بجانبها وقد مال نحوها ، وأسند رأسه إلى حافتها

ما كان يجري : فلما لم ير شيئاً ، تهد وقال : « ناوليني الماء يامارى » .
واقتربت منه حاملة الكوب ، فتبعني (بابلوت) وهو ما يزال متفعلاً ،
فتساءل السيد : « ماذا هناك ؟ » . وعدت أحمس للكلب : « اهدأ
يا بابلوت ! » ، فأمسك السيد الكوب في الهواء قبل أن تلغ شفتيه . وقال :
« هل أنت ماري ؟ » . فأجبت : « إن ماري في المطبخ » .

ومد يده بحركة سريعة ، ولكنه لم يمسني ، إذ لم يكن يراني . وصاح
وقد لاح لي أنه كان يحاول أن يرى « بعينه اللتين فقدتا إبصارهما :
» من هذه ؟ من ؟ .. أجيبني .. تكلمي ! » . فقلت : « هل تريد مزيداً
من الماء ياسيدي ؟ .. لقد أرقمت نصف ما كان في الكوب » . وصاح
في لهجة أمرة : « من هذه ؟ .. من التي تتكلم ؟ » . قلت : « لقد عرفني
بابلوت .. ويعلم جون وماري أنني هنا . لقد وصلت لتوي » .. فهتف :
« الله أكبر ! .. أي وهم يغشائي ؟ .. أي جنون عذب يستولي علي ؟ ..
والكنني قلت : « لا وهم ولا جنون » فإن عقلك ياسيدي أقوى من أن
يغشاه الوهم ، وصحتك لاتدع سبيلاً للجنون ! » .. وعاد يقول : « أين
المتكلمة ؟ .. أهو صوت فحسب ؟ .. أواه ! ليس بوسعي أن أرى
فلا بد لي من أن أمس ، وإلا كف قلبي عن وجيهه ، وانفجر مخي .
أو فقدت الحياة ! » .

ومد يده يتلمس ، فأمسكت بها بين راحتي . وصاح : « إنها نفس
أصابعها .. الأصابع الصغيرة ، النحيلة ! .. إذن فلا بد أنها هنا بأكلها » .
وأفلتت يده القوية من قبضتي ، فأمسكت بذراعي ، وبكنفي وعنقي
وخصري ، ثم ضمعتي إليه ، وهو يهتف : « إنها جين ! .. نفس شكلها » .

وحجمها .. » . فأصقت قائلة : « وصوتها .. هي بأكلها هنا » وهذا
قلبي أيضاً .. ألا باركك الله ياسيدي ! لكم أنا مسرورة إذ أجدني بقربك
مرة أخرى » . ولكنه لم يقو على أن يقول شيئاً سوى : « جين إير ! »
جين إير ! » . فقلت : « أجل ياسيدي العزيز .. أنا جين إير .. لقد
عشت عليك .. لقد عدت إليك ! » .

— أحقاً ؟ .. بلعحك ودملك ؟ .. أحقاً أنت جين ، وعلى قيد
الحياة ؟

— إنك تلمسني ياسيدي . وتضمني .. لست باردة كالجثة ، ولا
هباء كالأشباح .. بل أنا حقيقة !

— يا حبيبي ! .. هذه حقاً أطرافها .. وهذه قسماها .. ولكنني
لا أصدق أنني أحظى بالنعيم بعد كل ما لقيت من تعاسة .. إنه حلم ،
وكم من أحلام مثله تراودني في ليل ! .. أحلام أضمرها قيباً إلى قلبي ،
وأقبلها ، وأشعر بأنها تحيي ، وأثق من أنها لن تفارقني .

— وإن أغارقت منذ اليوم ياسيدي .. أبداً !
— أيقول الطيف : أبداً ؟ .. ولكنني أستيقظ دائماً لأجد أن الأمر
لا يبدو أن يكون خيرية خاوية . وأنتي وحيد ، مهجور .. حيائي ظلام
وعزلة ويأس .. إن روحي ظامئة ولكنها محرومة من الشراب .. وقلبي
جائع ولكنه لا يلقى القوت قط .. أيها الحلم الرقيق الناعم المستكين في
أحضائي .. لسوف تغير كما طار إخوانك من قبل ، ولكن .. قبليني قبل
الرحيل .. قبليني يا جين !

والصفت شفتي بعينه اللتين كانتا من قبلين

وبشعره وجينه : وفجأة ، وجدته ينهض وقد استولى عليه اليقين ،
وهتف « إنها .. أنت جين !.. إذن فقد عدت إلي ، ولست جنة هامدة
في خندق أو جوف جدول .. ولست تهيمن منبوذة بين أغرابه ؟ » ..
فقلت : « لا ياسيدي .. بل أنا الآن امرأة مستقلة .. وإذا تسأل :
« مستقلة ؟ » ، قلت : « لقد مات خالي في ماديرا ، وترك لي خمسة
آلاف جنيه .. فصباح : « لعمرى ، إنها الحقيقة .. إنه واقع !.. وهذا
هو صوتها ذو الطابع الخاص ، الذي يحبي قلبي الذاوي . إذن فأنت
امرأة غنية يا جانيت !.. لاشك في أن لك الآن أصدقاء يعنون بك ،
ولا يهتمونك عناء أن توفقي حياتك على أعمى أكتع عاجز ! » ..
فهتفت : « لقد أنبأتك ياسيدي بأنني مستقلة ، وغنية ، وسيدة نفسي !..
فتساءل : « وهل ستمكثين معي ! » .. وكان جوابي : « بالتأكيد ،
ما لم تكن تمنع أنت !.. سأكون جارتك : وممرضتك « ومديرة
بيتك .. إنني أجدك وحيداً ، وسأكون أنستك : أقرأ لك ، وأسير معك
وأجلس معك ، وأقوم بخدمنك ، وأكون عينين ويدين لك . فكفت عن
الحزن ياسيدي العزيز ، قلن تكون وحيداً مادمت أنا على قيد الحياة ! » ..
ولم يجب ، بل بدا شارداً بالذهن ، ثم تهد ، وهم بأن يتكلم ، ولكنه
عاد فأطبق شفتيه . وشعرت بشيء من الحيرة ، وخشيت أن أكون قد
تجاوزت حدودي إذ عرضت عليه البقاء معه ، وأنه رأى في ذلك ما يحتاج
الاحتشام ، كما فعل سانت جون !.. والواقع أنني ما اقترحت البقاء
معه ، إلا استناداً إلى أنه كان بود أن أكون زوجته .. وشرعت أتسأل
من أحضانه برفق ، ولكنه تشبث في ملهوقاً ، وقال : « لا يا جين »

لا تذهبي !.. لقد لمستك ، وسيمتلك « ونعمت بوجودك ، وبغلب
مواساتك « وليس بوسعي أن أتغلب عن هذه المسرات : لا بد من أن
أستحوذ عليك ، ولتضحك الدنيا ، ولتقل لاني أناني ، فإن هذا لن
يهني .. إن روحي تطالبك ، فإن لم تنل بغيتها فستوقع على كياني انتقاماً
مميّاً » . فقلت : « حسناً ياسيدي « سأبقى معك كما قلت « . فعقب قائلاً :
« ولكنك تفهمين من البقاء معي غير ما أفهم . إنك قد تمزمين أن تعني
بي كمرضة رحيمة ، وهذا يكفيني ، إذ أرى أن من الخلق في الآن ألا
أكن لك سوى مشاعر أبوية .. ولكنك لن تظلي أبداً عمرضتي يا جانيت :
إنك شابة ولا بد من أن تتزوجي يوماً » .

— لست أحفل بالزواج .

— بل يجب أن تحفلي .. ولو أنني اليوم كما كنت من قبل ، لما
جعلتك تحملين همّاً ، ولكنني .. جسد بلا بصر !

واستكان للأمر مرة أخرى : أما أنا فقد ازدادت ابتهاجاً وجرأة :
إذ أدركت العقبة التي كانت تعترضه .. ولكنها لم تكن تعترضني أنا ،
فقلت : « لسوف يضطلع شخص ما ببردك إلى الطبيعة الإنسانية يوماً ،
إذ أرى أنك قد تطورت إلى أسد ، أو ما يشبهه » . وإذا ذاك بسط ذراعه
المبتورة نريد ، وقال : « ولكنني لم أوت بدأ ولا غلباً في هذه الذراع ..
إنها بشعة المنظر ، ألا تظنين ذلك يا جين ؟ » . فقلت : « إنني أشعر
بالأسى إذ أراهما ، وإذ أرى عينيك « والحرق الذي في جبينك .. وأسوأ
ما في الأمر أن المرء في خطر الوقوع في حبك من أجل هذا كله ! » :
فقال : « ظننت أنها ستثير تقززك يا جين »

— أحقاً؟ لا تقل هذا : وإلا انزلق لساني إلى تسفيه حكتك .
والآن : دعني أغادرك وهلة لأذكي النار ، وأنظف المكان أمام المدفأة .
هل تعرف النار الجيدة إذا وجدت ؟
— أجل ، فإن عيني البني تستطيع أن ترى الوهج وكأنه ضباب

منقاد

قلت : « وهل ترى الشموع ؟ » . فأجاب : « خافتة جداً .. كل
منها كالسحابة المضئنة » . فسألته : « وهل تراني ؟ » . وكان جوابه :
« لا يا حوريتي .. ولكنني أجد الله على أن يوسعي أن أسمعتك وأن أملكك ! » .
واستدعيت ماري ، وسرعان ما نسقت معها الغرفة ، فأصبحت
بهيجة المنظر . وأعددت له عشاء شهيياً : وقد انتشت أحاسيسي . وأخذت
أحدثه أثناء العشاء .. ووقتاً طويلاً بعده — في سرور وانطلاق .. أجل ،
كنت أشعر وأنا معه بانطلاق وراحة . لأنني كنت أدرك أنني أروق
له : وأن كل ما أقول يسري عنه وينحسه .. وباله من شعور طروب ،
رد الحياة والضوء إلى طبيعتي كلها . فإذا بي أعيش في وجوده . وإذا
هو يعيش في وجودي ! .. وأخذت بعد العشاء يسألني أين كنت
وماذا كنت أفعل ، وكيف عثرت عليه . ولكنني اقتصرت على إجابات
مقتضبة : خشية ألا يتسع الليل للتفصيل . كما أنني لم أنشأ أن أنكأ
جراحاً قديمة في قواده .. وكان لا يفتأ يسألني : « أحقاً أنت آدمية يا جين ؟
من الذي يستطيع أن يصنف الحياة المظلمة ، البغيضة ، اليائسة التي كنت
أرزع تحتها في الشهور الماضية ؟ .. لم أكن أفعل شيئاً ، أو أتوقع شيئاً ..
أخلط بين الليل والنهار : دون أن أشعر بالبرد إذا انطلقت النار ،

ولا بالجوع إذا نسيت الطعام .. حزن لا ينقطع ، وشوق محمود إلى أن
أضم (جيني) ثانية : كنت أصبو إلى استردادها أكثر مما أتوق إلى
استرداد بصري . فكيف أصدق أن جين معي الآن : وأنتي أسمعها تؤكد
أنها تحبني ؟ » :

● وشعرت به مستيقظاً في ساعة جد مبكرة من الصباح التالي : ينقل
من غرفة إلى غرفة . وما أن هبطت إليه ماري ، حتى سمعت هذا السؤال :
« هل مس إر هنا ؟ » .. ثم : « في أية غرفة أنزلتها ؟ .. أهى غرفة جافة ؟
وهل استيقظت ؟ » . فهبطت إليه ، ودخلت الغرفة لخطى خفيفة ،
وأخذت أنامله قبل أن يفطن إلى وجودي .. كان من الحزن حقاً أن أشهد
تلك الروح القوية حبيسة جسد عاجز مشوه ! .. كانت تجاعيد الأسي
تخلل قسبانه القوية . فذكرني مظهره بمصباح انطفأ ، وجثم يرتقب
أن يضاه ثانية .. واأسفاه ! .. لقد أردت أن أبدو مريحة ، ولكن عجز
الرجل الجبار مس شفاف قلبي .. ومع ذلك فقد رحمت أخطابه بكل
ما استطعت من خفة روح : « إنه صباح مشمس مشرق ياسيدي .. ولن
نلبث أن نخرج للتزهة » . وأيقظت كلباني وميض روحه ، فأشرقت
أساريره وهتفت : « آه : إنك هنا حقاً يا عصفورتي ! .. تعالى إلي ! ..
إنك لم تذهبي ، ولم تتلاشي .. كل أنغام الدنيا تتركز في لسان جيني
الحبيبة ليسكبها في أذني .. وكل أشعة الشمس أحسها في وجودها ! » :
وقضينا معظم النهار في الهواء الطلق . فقد قدمته بعيداً عن الغابة
الكثيفة الرطبة ، إلى بعض الحقول النائية

الخضرة ، وحسن الزهور ، وصفاء السماء .. واختارت له مجلساً على جذع شجرة في بقعة جميلة ، متواوية . ولم أمانع حين أجلسني على ركبتيه . ولماذا أمانع مادام كل منا سعيد بقرب الآخر ؟ .. وفجأة : صاح وأنا بين ذراعيه : « يا لك من هاجرة قاسية ! .. أهواه ، يا جين ، أي شعور تملكني حين اكتشفت فرارك من ثورنفلد ، وعندما عز عليّ العثور عليك في أي مكان ، ولما تبينت أنك لم تتزودي بقود أو أي شيء » يتفح بدلا منها ! .. وشرعت أروى له تجاربي في العام الأخير . وقد خفت كثيراً من وصف الأيام الثلاثة التي قضيتها مشردة ، جائعة ، حتى لا أسبب له ألماً لا داعي له .. وكان يقاطعني بالالوم والعتاب ، فلما انتهيت سألتني عن سانت جون . وغاظه أن رحت أصغه بكل حسن ، وأظنبت في امتداحه .. ورأيت أن الغيرة قد لدغته ، فلم يلبث أن قال :

— هل عينك سانت جون معلمة قبل أن يعرف أنك ابنة خاله ؟ وأجبت : « نعم » ، فقال : « هل كنت تربيه كثيراً ، وهل كان يزور المدرسة أحياناً ؟ » ، فأجبت : « يومياً » .

— هل كان يقر تصرفاتك يا جين ؟ .. إنني أعرفك بارعة ذكية : وقلت : « أجل ، كان يقرها » . فقال : « هل اكتشفت فيك أشياء كثيرة لم يكن يتوقعها ؟ » . وكان جوابي : « لست أدري » . فعاد يسأل : « تقولين إنك كنت تقيمين في كوخ صغير بالقرب من المدرسة ، فهل كان يزورك فيه ؟ » .. وأجبت : « بين آن وآخر » : وهنا سألتني : « في المساء ؟ » ، فقلت : « مرة أو اثنتين » . وصحت يده ، ثم عاد يسألني : « كم أقمت معه ومع أختيه بعد اكتشاف القبر ؟ » : فكان جوابي :

« خمسة أشهر » .. وإذ عرف أنني درست الألمانية في تلك الأثناء ، وأن سانت جون علمني قليلاً من الهندوسانية ، قال : « لماذا رغب في أن يعلمك الهندوسانية ؟ » . فأجبت : « كان يرى إلى أن أذهب معه إلى الهند » :

— آه ، بلغت لب الموضوع .. أكان يريد الزواج منك ؟ — بل عرض عليّ الزواج .. سألتني أكثر من مرة ، ولم يكن يقل عنك إلحاحاً واستحاثاً .

— أكرر لك يا ميس إير أن بوسعتك أن تغادري . لماذا تبقين جامئة على ركبتي وقد أذنت لك بالرحيل ؟

قلت : « وإلى أين أذهب يا سيدي ؟ » . وكان جوابه : « مع الزوج الذي اخترته .. هذا السانت جون ريفرز ! » . وهنا قلت : « إنه ليس زوجي ، ولن يكون ، فهو لا يحبني ، ولست أحبه .. ما أراد الزواج مني إلا لأنه ظن أنني أصلح لأن أكون زوجة مبشر .. إنه بارد لزاني كعجل من جليد ، فهو ليس مثلك يا سيدي .. إنه لا يرى في شخصي فتنة ، وإنما يرى بعض محاسن عقلية نافعة .. أفأتركك بعد هذا يا سيدي وأذهب إليه ؟ » :

وارتجفت على الرغم مني : فتعلقت بسيدي الأعشى الحبيب . وإذ ذاك انبسم قائلاً : « أحقاً يا جين أن هذه هي حقيقة ما بينك وبين ريفرز ؟ » : فقلت : « كل الحقيقة يا سيدي .. آه ، لا حاجة بك لأن تغار ، فإنما أردت أن أداعبك قليلاً لأبديد عنك الشمع .. لو أنك أدركت كم أحبك لأزدهاك الله وأعزك الرضى . إن قلبي بأسره ملك

لك يا سيدى ، وسيتى معك ولو شاء القدر أن يقصبنى عنك . فقبلنى
وقد اكفهر عياده وتمم : «أواه يا بصرى المظلم ، وباقواى العاجزة !»
ورحت أسرى عنه ، فأشاح عنى قابلا ، وإذ ذلك رأيت دمعة تنحدر
من عينه المغلقة ، فانفطر قلبى . وعاد يقول : «إبنى لست أفضل من
الشجرة العتيقة التى اقتلعها العاصفة فى حديقة قصر ثورنفيلد .. فأى حق
لهذا الطلل ، فى أن يسأل زهرة مفتوحة بأن تضىء بنضارتها بقاءه ؟»
فقلت : «ما أنت بالشجرة التى اقتلعها العاصفة يا سيدى ، وإنما أنت
خضرة ونضارة وقوة . لسوف تنمو النباتات حول جذورك ، سمحت
لها أو لم تسمح . لأنها تسعد فى الاحياء بظلك .. وبينما نحن عليها ،
ستلطف هى حولك . لأن قوتك تتبع لها حتى أمينا !»

وعاد يبتسم ، إذ سرى عنه . على أنه ما لبث أن قال : «أواه
يا جين !.. ولكننى أشد زوجة» .. فقلت : «أحقاً يا سيدى؟»
وهنا قال :

— أجل « سأختار تلك التى أحبها فوق كل شئ .. هل تزوجين
منى يا جين ؟

وإذ أجبت : «نعم يا سيدى» : قال : «أتزوجين من أعمى مسكين ،
تأخذين بيده لتقوده ؟» . فقلت : «أجل يا سيدى» . وعاد يسأل :
«أتزوجين رجلاً عاجزاً يكبرك بعشرين عاماً ، وتضطرين إلى خدمته» .
قلت : «أجل يا سيدى» : فهتف : «أواه يا حبيبتى !.. ليباركك الله
وينزل لك الجزاء !» : وإذ ذلك قلت فى حرارة : «مستر رويستر :
إذا كنت قد فعلت خيراً فى حياتى ، وإذا كانت قد جالت بخاطرى

يوماً فكرة طيبة ، وإذا كنت قد صليت يوماً صلاة غلصة لا شائبة
فيها » وإذا كنت قد تميت يوماً أمنية حلالة .. فما أئذى الآن أنال
الجزء .. :

— ذلك لأنك إنما تغتبطين بالتضحية .

— تضحية !.. بأى شئ أضحى ؟.. أهى تضحية أن أستبدل
بالجوع قوتاً ، وبالرجاء سعادة واقعة .. أن أحتضن أغلى ما لدى .. أن
ألصق شفتى بمن أحب .. أن أستند إلى من أطمئن إليه .. أهله
تضحية ؟.. إذا كانت كذلك ، فأنا متبيلة فعلاً بالتضحية !

— أوليس احتمال عجزى والتغاضى عن عيوبى تضحية ؟

— إنها ليست شيئاً فى نظرى ، فأنا أحبك اليوم أكثر من ذى قبل ،
إذ أجدنى ذات نفع لك .

— إذن ، فليس لدينا ماتريث من أجله . لتزوج فى التو !

وكان يتكلم بحماسة ، وقد عاودته حمية الماضي . فقلت : «إبنى أرى
الشمس قد تجاوزت السميت ، فدعنى أعرف الوقت فى ساعتك» .
ونظرت إلى الساعة ثم قلت : «إنها الرابعة من بعد الظهر ، أفلا تشعر
بجوع يا سيدى ؟» . ولكنه عاود حديثه الأول : «بعد ثلاثة أيام نعقد
قرائنا يا جين» ولا حاجة بنا للانتظار . إنك تظنينى كلياً زنديقاً يا جين
ولكن قلبى يزخر بالشكر لرب هذه الأرض ، فهو أبعد نظراً ، وأعدل
حكماً « وأوسع حكمة من الإنسان . لقد أذنبت ، إذ كدلت أدنس زنبقى
البرينة ، ولكن الله القدير انتزعها منى ، فكادت أنعنه فى حتى بدلا من
أن أحنى الرأس لحكمة :.. بتحيته ، فتبعنى العناية الإلهية .. ونحو ذلك على

انطلقت بين جبال ، إذ سمعت لها صدى تردد .. وما كان أحلى التسمم التي لثت جيئني إذ ذاك .. إني لأومن بأن روحينا تقابلتا إذ ذاك .
ولقد كانت ليلة الاثنين ، وحوالي منتصف الليل أيها القارئ ، حين سمعت النداء الخفي ، وأجبت عليه بتلك الكلمات .. على أنني لم أصارع مستر روشستر بذلك ، فقد بدت الظاهرة أغرب من أن أصفها له .. كان عقله في دور النفاة من آلامه ، فلم يكن ينبغي أن يرهق بأسرار ما وراء الطبيعة .

* * *

الفصل الثامن والثلاثون

■ وتزوجته ، أيها القارئ ! .. وكان قرانا هادئا لم يحضره سواء وإيلى والكاهن وكاتب الكنيسة . وعندما عدنا إلى الدار ، قصبت إلى المطبخ ، حيث كانت ماري تطهو « وجون ينظف السكاكين ، وقلت : « لقد تزوجت مستر روشستر في هذا الصباح يا ماري ! » .. وكنا من البسطاء ، المحترمين ، الذين يستطيع المرء أن يزجى إليهم أي نأ دون أن تحرق أذنيه صيحات الدهشة أو الفرح .. فتطلعت إلى ماري في هاو « وقد غفلت عن المغرفة التي كانت تقلب بها دجاجتين على النار « فتركها معلقة في الهواء ثلاث دقائق « بينما كف جون برهة عن تلميع السكاكين . على أن ماري ما لبثت أن تحولت إلى الدجاجتين ، دون أن تفوه بأكثر من : « أحقا يا آنسة ؟ .. أحسنتا ! » .. ولحمت جون ينسهم فاغرا فاه ، وقال : « لقد قلت لماري إني كنت أعرف أن مستر إدوارد سيقدم على هذا ، وفي رأيي أنه أحسن صانع »

النكيات ، واضطرت إلى أن أهم في واد نخيم عليه ظلال الموت : وأدركني قصاص الله فأذلتني إلى الأبد . إنك لتعلمين أنني كنت مغرورا بقوتي ، فأين هي الآن وقد أصبحت مضطرا إلى من يقودني ، كما يفعل الطفل في ضيقه ؟ .. لقد بدأت أرى يد الله وأعترف بقدرتها : بدأت أندم ، وأتوب ، وأتقرب إلى خالتي .. بدأت أصلي ، صلاة صادقة برغم قصرها .. ومنذ أيام ، بل منذ أربعة أيام — في مساء الاثنين الماضي — اخترتني حال غريبة ، فإذا الحزن يحل محل الجحود ، والأسى محل العناد .. وكنت أوقن — بعد أن عجزت عن العثور عليك — من أنك ولابد ميتة .. وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ، ناشدت الله أن يخلصني من الحياة إذا رأى في هذا خيرا ، وطمعت في أن يجمعني العالم الآخر بك .. وكنت إذ ذاك جالسا في غرفتي بجوار نافذة مفتوحة .. واشتدني الحنين إليك يا جانيت ! فتهتف لساني بما كان قلبي يهفو إليه ، فتهتفت : « جين ! جين ! جين ! »

فقلت أسأله : « أكان ذلك في مساء الاثنين .. حوالي منتصف الليل ؟ » .. فقال : « أجل . ليس المهم الوقت ، وإنما المهم ما حدث بعد ذلك .. لسوف تظنين أنني أومن بانحرافات ، ولكنه الحق أقول : فما إن هتفت باسمك ، حتى أجابني صوت — لا أدري من أين انبعث ، ولكنني أعرفه جيدا — : « إني قادمة ، انتظري ! » .. وبعد لحظة ، حملت الريح هذه المهمة : « أين أنت ؟ .. إن من العسير علي أن أصف لك ما أريد . إن (فرندين) دينة — كما ترين — في جوف غابة كثيفة ، تكتم ذبذبات الصوت ، ومع ذلك فقد خيل لي أن عبارة « أين أنت ؟ »

وكتبت لفوري إلى (مور هاوس) و (كبر دج) أزعجى النبأ ،
وأشرح سر تصرفي . وابتهجيت ديانا وماري بلا تحفظ .. ولست أدري
كيف تلقى سانت جون النبأ ، فإنه لم يرد قط على خطابي ، على أنه ما لبث
أن كتب لي بعد ستة أشهر ، دون أن يذكر اسم مستر روشستر أو يشير
إلى زواجي . وحرص بعد ذلك على الكتابة إلى بانتظام — وفي قترات
غير متقاربة — متمنياً لي السعادة .

وما أظنك نسبت أدبيل ، أيها القارئ .. إنني سرعان ما استأذنت
مستر روشستر في الرحيل لزيارتها في مدرستها . ولكم أثر في نفسي الفرح
الطاغى الذى تولاهما .. وبدت لي شاحبة ، هزيلة ، مهمومة ، فلما تبينت
أن نظام المدرسة أقسى من أن تحتمله صبية في سنها ، صحبها معي في
عودتي ، وألحقها بمدسة قريبة أكثر ملاءمة لها . واعتدت أن أزورها ،
وأن أستقدمها إلى دارنا . وألا أدعها تشعر بحاجة أو أسمى .. وهكذا
اقتربت قصتي من ختامها ، فلم تبق سوى كلمة عن حياتي الزوجية .
ونظرة سريعة إلى مصائر أولئك الذين ترددت أسماءهم في الرواية :

لقد انقضت عشر سنوات على زواجي ، فعرفت مدى المنفعة التى
يحظى بها المرء حين يعيش من أجل أحب عزيز لديه على الأرض .. إن
لغتي تعجز عن وصف هنائي ، لأننى حياة زوجي ، وهو حياتي .
وما أظن امرأة توثقت صلتها بزوجها قدر توثق صلتى بزوجي .. إننى
لا أمل عشرة إدوارد ، وهو لا يمل عشرتي ، اللهم إلا إذا جاز للمرء
أن يسأم وجيب قلبه ..! إننا دائماً معاً ، وكأننا شخص واحد ينعم بالوحدة
والحرية ..! ولقد ظل مستر روشستر فاقد الإبصار خلال العامين الأولين

من زواجنا ، فكنت أنا بصره ، كما لا أزال بده اليمنى .. كان يرى
الطبيعة بعيني ، ويقرأ الكتب بهما ، وما شئت قط أن أعوضه ببصرى
عن بصره المفقود .. وكان حبه لي يجعله لا يألم من اعتماده عليّ ، واستمناحه
بخدعتي له ، فقد كان موثقاً من أننى أحبه كل الحب . وفي ذات صباح
— في نهاية العام الثانى لزواجنا — أخذ يلى عليّ خطاباً . وفيما كنت أكتب ،
سألتني : « هل تلبسين حلية لامعة حول عنقك يا جين ؟ » .. وكنت أحيط
رقتي بسلسلة ذهبية ، فقلت : « أجل » . قال : « وهل ثوبك أزرق
خفيف ؟ » .. وكان ثوبى كذلك فعلاً . وإذ ذاك أنبأني إدوارد بأنه بدأ
منذ زمن يشعر بأن الغيوم التى كانت تخيم على عينه الوحيدة أخذت تخف
وتتشفع . وقد تأكد من الأمر في ذلك الصباح . ومن ثم رحلنا إلى لندن ،
حيث فحصه أخصائى مبرز في علاج البصر ، فلم يلبث أن استرد إبصار
تلك العين . ومع أنه لا يستطيع الآن أن يرى بجلاء تام ، ولا أن يظلم
القراءة والكتابة ، إلا أنه يستطيع أن يتبين طريقه دون أن يأخذ أحد
بيده .. وعندما تلقى أول أولاده بين ذراعيه — عقب مولده — استطاع
أن يرى الابن الذى ورث عنه عينيه في حالها الأول .. العينين الواسعتين ،
المائلتين ، السوداوين ..! وفي هذه المناسبة ، عرف إدوارد — مرة
أخرى — أن الله برحمته قد خفف من عقابه !

وهكذا أحيا مع حبيبي إدوارد في سعادة يضاعف منها أن أحب
الناس إلينا سعداء ، هم الآخرون . فلقد تزوجت ديانا وماري ريفرز ..
الأولى من ضابط في البحرية ، طيب القلب والسيرة ، والثانية من قبل
كان زميل أخيها في الدراسة .. أما مانت — التي فقدت قلبها إلى الهند ،

وما يزال يعضى فى الطريق التى اختارها لنفسه ، كرائد قوى العزيمة ، لا يتطرق الكلل إلى همته وسط الصخور والأخطار .. لقد كان صارماً . متعنتاً ، طموحاً . ولكنها كانت صرامة المجاهد فى سبيل الله . وتعت للرسول الذى يتمثل يقول المسيح : « من يأتى ورأى فليُنكر نفسه وليحمل صليبه ويتبعنى » .. أما طموحه ، فطموح الروح الكبيرة السامية ، التى تهدف إلى أن تكون فى الصفوف الأولى بين من يعتقدون من الأرض ، ويفكرون بالخلاص ، ويقفون أمام عرش الله بلا خطيئة . ولم يتزوج سانت جون حتى الآن . ولقد انتزع خطابه الأخير الدموع من عيني ، وإن ملأ قلبى بفرح ربانى .. لقد أحسست بأن الخطاب التالى سيكون بيد غير يده ، لينقل إلى مصرعه .. مصرع خادم أمين وفى لربه . ولكن ، لماذا البكاء ؟ .. إن الخوف من الموت لن يخيم على الساعة الأخيرة فى حياة سانت جون ، وسيظل عقله صافياً ، وأمله قوياً ، ويقينه ثابتاً .. لقد عبر فى خطابه الأخير عن هذا بقوله :

.. لقد أُنذرتنى معلمى ومولاى .. أن صوته يزداد وضوحاً فى كل يوم ، وهو يقول لى : « بقيناً إننى لآت سريعاً ! » .. وفى كل ساعة ، أجيب فى حرارة : « آمين .. غلتأت أيها الرب يسوع ! » .

(تمت بحمد الله)

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن في كل شيء تقريباً : تشابهن في نبوغهن الأدبي ، وهزالهن البدني . وقصر أعمارهن ، كما تشابهن في خلودهن بعد الموت ! .. وهكذا اقتسرن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنساني : وكان نصيب صغراهن «آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (موتفعات وذرنج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل أو التدرن الرئوى - فماتت به «شارلوت» فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، وماتت به «إميلي» فى سن الثلاثين (١٨١٨ - ١٨٤٨) . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ - ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لا تقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسببة عن أجو القاء الذى تتسم به رواياتهن جميعاً . فقد كانت أسرة «برونتى» تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو فسيح كنيسة بجهة (هاروث) بالجلترة . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، وإليزابيث ، وشارلوت ، وبرانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلي ، وأخيراً «آن» .

وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للمصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات أخق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية - هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها «شارلوت» فى رواية (جين إير) باسم «لووود» .